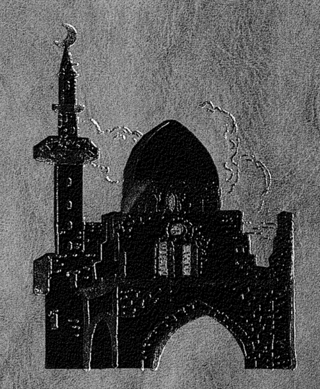


موسوعة الحضارة الإسلامية

تأليف أحمد أمين







مَوْسُوعَةُ الحَضَارَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

المجلّد العشرون

فيض الخاطر (10)



أحمَد أَميـن

مَوسُوعَة الحَضَارَةِ الإِسلامِيَّةِ

المجلّد العشرون

فيض الخاطر (10)

دار نوبليس

2006

اسم المجموعة: موسوعة الحضارة الإسلامية

اسم الكتاب: فيض الخاطر (10)

المؤلف: أحمد أمين

قياس الكتاب: 20 × 28

عدد الصفحات: 176

عدد صفحات المجموعة: 5352

مكان النشر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبليس

تلفاكس: 961-1-583475

تلفون: 961-1-581121/ 961-3-581121

بريد إليكتروني: E.MAIL: www.nobilis_international@hotmail.com

الطبعة الأولى: 2006

الوصايا العشر

قرأت أن أمريكيًا من رجال الأعمال وضع لنفسه وصايا عشرًا، وعنونها «عهد وثيق» وكتبها على بطاقة، وآلى أن يقرأها كل يوم صباحًا عند الإفطار، وأن يبذل كل جهده للعمل بها، وهي:

(1) سأكرم نفسي: لأني أستطيع أن أعتزل كل أحد إلا نفسي، أعيش معها كل وقتي، آكل معها، وأنام معها، وأقيم معها؛ وأرحل معها، فعليَّ عهد ألا آتي بعمل يخجلها.

(2) سأكون طموحًا لا أقنع بما أنا فيه، بل أجعل نصب عيني أن أكون خيرًا مما أنا عليه، ومن أجل هذا لا أكره أن تظهر نقائصي؛ فذلك أقرب إلى معالجتها وإصلاحها، وهذا يجنبني الزهو بنفسي، ويحملني على أن أعمل دائمًا في بنائها.

(3) سأراقب ما يدخل في ذهني من أفكار، لأنها ذات أثر فعّال، فهي إما أن تبنيني أو تهدمني، ولذلك سأغلق باب ذهني عن كل أفكار الفشل، وأفكار الرعب وأفكار اليأس، وسأحرم دخولها إلى ذهني كما أحرم الأكل السام إلى معدتي.

(4) سأكون أمينًا مع نفسي ومع غيري؛ سأكون أمينًا في السر والعلانية، أمينًا وحدي وأمينًا مع الناس، أشعر إذا قربت من الخيانة أنها كالنار ترعى جسمي.

(5) سأعنى بجسمي، فمنه أستمد القوة والصبر على العمل، وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل الأخلاق الطيبة، لا أتلفه بالإفراط، ولا أحمّله ما لا يطيق، لا أسرف في العمل، ولا أسرف في الكسل، سآكل وأشرب بحكمة، لا أعلف جسمي كما تعلف الدواب، ولكن أنهج معه نهجًا يحفظ عليه صلاحيته.

(6) سأعمل على ترقية عقلي، فأغذيه كل يوم كما أغذي جسمي، وأدرس دراسة دقيقة منظمة لنوع من المعارف أتخذه هوايتي.

(7) سأحتفظ بحماستي وحرارة عواطفي باعتدال وابتهاج، فلا أشكو ولا أتبرم، ولا أتساءم ولا أصادق المتشائمين اليائسين، وأتحمس للخير والجد والعمل في فرح ونشاط.

(8) سأكون أميل إلى مدح الناس وتقريظهم من ذمهم وتعييرهم وتعييبهم وسأقول الخير وأبذل الثناء للناس في وجوههم ومن ورائهم، وأما ما أكرهه منهم وأعيبه عليهم وأحتقره من فعالهم فسأحتفظ بإفرازه إلى أن أعود إلى بيتي.

(9) سأحتفظ بمجهودي وطاقتي، فلا أسرف في إنفاقها في غير فائدة، فلا أجادل من لا فائدة في جدله، ولا أغضب إذ لا فائدة في الغضب، ولا أحقد فالحياة أقصر من أن تضيع في حقد.

(10) سأنجح في الحياة، وسأنجح مهما صادفني من عقبات، وإذا وضع في طريقي أحجار أزلتها، وسأضع كل قلبي في عملي، وأواجه كل الصعاب من غير خوف، وأعتقد أن الحظ الحسن يتبع الجد والشجاعة.

الإمضاء «نفسي»

* * *

هذا عهد أمريكي. وقد أذكرني بعهد عربي قديم وضعه لنفسه ابن مسكويه من نحو ألف عام، نقتطف منه ما يأتي: «هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد، وهو يومئذ آمن في سربه، معافى في جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن، ولا يريد بها مراءاة مخلوق، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة.

عاهده على أن يجاهد نفسه، ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم. وعلامة عفته أن يقتصد في مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه، أو يهتك مروءته.

وعلامة شجاعته أن يحارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة، ولا غضب في غير موضعه.

وعلامة حكمته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته -بقدر طاقته- شيء من العلوم والمعارف ليصلح نفسه ويهذبها.

وعاهده على إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات، والصدق على الكذب في الأقوال، والخير على الشرّ في الأفعال، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها.

ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك.

والصمت في أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل.

والإقدام على كل ما كان صوابًا، والإشفاق على الزمان الذي هو العمر، فيستعمل في المهم دون غيره.

وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد حتى لا يُشغل بهم.

وذكر المرض وقت الصحة، والهم وقت السرور، والرضا عند الغضب ليقل الطغي والبغي.

وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله عز وجل».

* * *

ومجال القول ذو سعة من الموازنة بين العهدين ومقارنة أثر العصرين، ونتاج الحضارتين، وفي كل خير.

* * *

أبو سليمان المنطقي

كما يصوره أبو حيان التوحيدي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني:

فارسي الأصل، عربي المربى، كان أنبغ فيلسوف في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

لم يكن أقل شأنًا من ابن سينا وابن رشد، وربما فاقهما في بعض النواحي، ولكن الوجاهة والشهرة حظ لم يرزقهما أبو سليمان، فقلّ من يعرفه أو يترجم له أو يوفيه حقّه، ولولا ما وقع في أيدينا من نبذ هنا وهناك من كلام أبي حيان التوحيدي ما عرفناه.

لقد كان في بغداد في عصره نخبة من الفلاسفة والحكماء من مسلم ونصراني ويهودي أمثال ابن زرعة وابن الخمار وابن السمح والقومسي ومسكويه ونظيف ويحيى بن عدي وعيسى ابن علي وأبي حيان التوحيدي وغيرهم.

ولكن كان أبو سليمان واسطة عقدهم وجامع شملهم ومقصدهم في حل المشكلات وقائل الكلمة الأخيرة فيما يجري بينهم من مناظرات، وكان كما يصفه أبو حيان: «أدقهم نظرًا، وأقعرهم غوصًا، وأصفاهم فكرًا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز».

وهذا تحليل دقيق من أبي حيان لشخصية أبي سليمان. فهو قوي الفكر ألكن العبارة، وهو يعتمد على قوة عقله أكثر مما يعتمد على النقل من المؤلفات، وهو واثق بصدق رأيه أكثر مما يثق بما يقول غيره، وهو قوي الشخصية يجعل رأيه حَكَمًا في كل ما يعرض عليه، وهو بخيل بعلمه لا يذكر بعضه إلا للخاصة إذا دعت الدواعي.

ولعل في هذا بعض ما يفسر خموله، فضنه بعلمه جعله لا يخرج من المؤلفات ما ينشر ذكره ويعلي شأنه ويخلد اسمه، يضاف إلى هذا أن الله الذي وهبه بسطةً في العلم والعقل حرمه الجمال، فهو أعور العين مصاب بالبرص مشوه الخلق، يقول فيه الشاعر [من المنسرح]:

أبـو سُـلَـيْـمـان عـالِـمٌ فَـطِـن
مـا هـو فـي عِـلْـمِـه بِـمُـنْـتَـقِـصِ
لـكـنْ تَـطَـيَّـرت عـنـد رؤيـتـه
مـن عَـوَر مـوحِـشٍ مـن بـرصِ
وبـابْـنِـه مـثـل مـا بـوالـده
وهـذه قِـصَّـةٌ مِـنَ الـقِـصَـصِ

منعه هذا العور وهذا البرص من أن يغشى مجالس العظماء والأمراء والحكماء. وفي ذلك العصر كان هذا الاتصال سبب الرزق للعلماء، ولم يكن الأمر كما هو في عهد ديمقراطية اليوم حيث يستطيع العالم أن يجد رزقه من الشعب بوسائل مختلفة، بل كان العالم إن لم يتصل بخليفة أو أمير يمنحه أو يصله بوظيفة يستدر منها رزقه في وقف من الأوقاف ساءت حياته وأصابه الضنك إن لم يكن له مال موروث.

والفلسفة على الخصوص محتاجة إلى عون الأمراء، بل وحمايتهم، لأنها ليست مستساغة للعامة وأشباههم، بل هي مكروهة منهم.

فكان أبو سليمان فقيرًا معتزلًا بالإكراه، لا يجد قوته ولا أجر مسكنه إلا بمشقة.

كان عضد الدولة يمنحه المنحة الفينة بعد الفينة، فلما مات عضد الدولة، شق عليه موته، فمنحه الوزير ابن سَعْدان مائة دينار مرة، فتهلل لها، ووعد بأن يواصل منحه، ولكن الوزير قتل، فهذه المعيشة المنعزلة الفقيرة كان لها أثر كبير في خموله. كان بيته -مع فقره- مجمع فلاسفة بغداد، ومجلسه مملوءًا بالبحث وتبادل الآراء في المشاكل التي تثار مع اختلاف ألوانها وموضوعاتها، وكتب أبي حيان -كالإمتاع والمؤانسة، والمقابسات، والصداقة والصديق- تشغل جزءًا كبيرًا منها محاضر لهذه الجلسات وتدوين مختلف وجهات النظر وما كان لأبي سليمان المنطقي فيها من قول فصل.

ونحن نستعرض بعض آرائه الدالة على عمق نظره وسعة أفقه:

(1) لقد كان من أهم ما يثار في تلك الأيام مسألة لا تزال تثار إلى اليوم، وهي موقف الناس من الوحي ومن العقل، فأساس الأديان أن الله تعالى شاء أن يتصل بخلقه عن طريق رسله، فأوحى إليهم بتعاليم الدين، علمًا منه بقصور العقل الإنساني وضيق مجاله، فإن استطاع العقل إدراك المادة وقوانينها، فلن يستطيع إدراك ما وراء ذلك من عالم الغيب، وهذا هو ما بيَّنه الأنبياء بما يوحي إليهم، وعلى هذا الأساس شرعت العبادات وشرح عالم الغيب، فهي قد جاءت لا عن طريق أعمال العقل وترتيب المقدمات والنتائج كما يفعل العقل في بحثه العلمي؛ ولكن عن طريق أن الرسول أوحي إليه من الله بهذه التعاليم، فآمن بها وبلَّغها للناس، فهل تعرض هذه التعاليم الدينية على العقل ليبحثها بطريقته الفلسفية والمنطقية؟

هذا سؤال عالجه قديمًا الفلاسفة كما يعالجه اليوم الفلاسفة ورجال الدين. وكان في أيام أبي سليمان هذا أربع نزعات في هذا الموضوع، منهم من حكم العقل في الدين فعرض كل مسائل الدين على العقل، فما قبله العقل من الدين قبله وما لم يقبله رفضه. وكان من أكبر دعاة هذا المذهب زيد بن رفاعة المقدسي، وقد كان آية في الذكاء وحسن البيان وسعة الاطلاع، فكان يقول: الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم وحتى يزول المرض بالعافية فقط، فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلًا. ويرى أن الشريعة للعامة، والفلسفة للخاصة، وأن أدلة الدين ظنية وأدلة الفلسفة يقينية، إلى آخر ما قال.

ونزعة أخرى عكس هذه تمامًا، وهي تحكيم الدين في العقل أو الفلسفة، وعرض نظريات الفلسفة على الدين، فما وافق منها الدين قبل وإلا رفض، ويمثل هذه النزعة المحدثون والفقهاء.

ونزعة ثالثة آمنت بالفلسفة وأرادت أن تؤمن بالدين، ففسرت الدين تفسيرًا فلسفيًا، وبعبارة أخرى حولت الدين إلى عقل، وما لم يمكن تفسيره من الدين بالفلسفة أوَّلته، أي أنها جعلت الدين والفلسفة وحدة خاضعة لتفسير العقل، وهذا ما كان يحاوله الفلاسفة الإسلاميون أمثال الكندي والفارابي، وأخيرًا في هذا العصر الذي نتحدث عنه «إخوان الصفاء»، فمزجوا الوحي بالتشبع بالفلسفة اليونانية، وحاولوا أن يكوّنوا منهما وحدة، فإذا صادفتهم صعوبة من أنواع من الوحي لا يمكن تفسيرها بالعقل كبعض أشكال العبادات، سبحوا في الخيال،

وأمعنوا في الرمز حتى يلائموا بينها وبين الفلسفة.

طلع أبو سليمان المنطقي برأي في هذا جديد، ولم يعجبه ما فعل إخوان الصفاء وقال فيهم: «إنهم تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا، ظنّوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنّوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة في الشريعة وأن يضموا الشريعة للفلسفة... وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنيابًا، وأحضر أسبابًا، وأعظم أقدارًا. فلم يتم لهم ما أرادوا، ولا بلغوا منه ما أملوا، وحصلوا على لوثات قبيحة ولطخات فاضحة وعواقف مخزية، وأوزار مثقلة».

وقد أبان السبب في هذه الطريقة بأن منهج الدين يخالف تمامًا منهج الفلسفة، فأساس الدين الوحي، وهو الأخذ عن الله بواسطة السفراء بينه وبين خلقه، وبرهانه الآيات وظهور المعجزات، وهو يشتمل على ما يوجبه العقل تارة ويجوزه تارة، وفيه ما لا سبيل إلى إقامة البرهان على ثبوته أو نفيه. وإنما يقبل بالتسليم من غير لِمَ وكيف ولو وليت، ومعنى هذه التعاليم الورع والتقوى، ووسيلتها العبادة وطلب الزلفى.

أما الفلسفة فأساسها العقل الذي وسيلته المنطق ودرس المقدمات وربط المقدمات بالنتائج وعدم قبول شيء إلا أن يقوم البرهان المنطقي عليه؛ وفي الدين ما لا يمكن قبوله إلا بالتسليم؛ لأنه لا يمكن إقامة البرهان عليه بالنفي أو الإثبات.

فكيف -إذًا- يسوغ لإخوان الصفاء أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة وحقائق الدين في نطاق واحد.

وإذًا، فما الحل؟

يكاد أبو سليمان يرى أن للدين مجالًا وحدودًا وللفلسفة مجالًا وحدودًا، فالدين لم يأت لشرح النظريات العلمية؛ وإنما أتى لشرح العلاقات بين العبد وربه، والفلسفة أتت لتفسير الكون وقوانينه الطبيعية؛ ولم تأت لتفسير الأمور الغيبية، فلنتبع الدين في مجاله وحدوده، ولنتبع الفلسفة في مجالها وحدودها، وهو في حدود الدين لا ينظر إلى الفلسفة، وهو في حدود الفلسفة لا ينظر إلى الدين. يقول: «والعاقل يتحلّى بهما مفترقين في مكانين، على حالين مختلفين، ويكون بالدين متقربًا إلى الله على ما أوضحه له صاحب الشريعة عن الله

تعالى، ويكون بالحكمة متصفحًا لقدرة الله في هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين، المحيرة لكل عقل، ولا يهدم أحدهما بالآخر، أعني لا يجحد ما ألقي إليه صاحب الشريعة مجملًا ومفصلًا، ولا يغفل عما استخزن الله هذا الخلق العظيم على ما ظهر بقدرته... ولا يعترض على ما يبعد في عقله ورأيه من الشريعة بأحكام الفلسفة، فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوذة من الوحي الوارد من العلم بالقدرة. ولعمري إن هذا صعب، ولكنه جماع الكلام وأخذ المستطاع، وغاية ما عرض له الإنسان المؤيد باللطائف».

ويقول: «إن الفلسفة حق، لكنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حق، ولكنها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي والآخر مخصوص بوحيه، والأول مكفيّ؛ والثاني كادح».

وهذا في نظري رأي دقيق معتدل يستحق كل تقدير وإعجاب. وقد سقنا هذا -مثلًا- لعمق تفكيره في أعوص المسائل ودقة نظره واستقلال رأيه.

وعلى هذا الأساس كره علم الكلام والمتكلمين؛ لأنهم حاولوا أن يبرهنوا على قضايا الدين بالمنطق؛ فقال: ولمصلحة عامة نهي عن المراء والجدل في الدين على عادة المتكلمين الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين، وهم في غاية العداوة للإسلام والمسلمين، وأبعد الناس من الطمأنينة واليقين.

ذلك لأن الدين في نظره، كما يقول، مبني على القبول والتسليم؛ فمتى آمن المرء بنبي، سلَّم بما جاء به من غير «لِمَ» و«كيف» إلا بقدر ما يؤكد أصله ويشد أزره، وينفي عارض السوء عنه، لأن ما زاد على هذا يوهن الأصل بالشك، ويقدح في الفرع بالتهمة.

وحكى حكايات تسخِّف المتكلمين وتبيِّن سوء جدلهم، وأن كثيرًا منهم حار ووقع في القول بتكافؤ الأدلة، وهو ضرب من الشك.

* * *

وكثيرًا ما كانت تثار في مجلس أبي سليمان ببغداد المسائل النفسية، إما نفسية بحتة أو نفسية تطبيقية على الأفراد أو نفسية اجتماعية، فمن النوع الأول أبحاثه الكثيرة في النفس، وهو يرى أن الإنسان جسم ونفس، وهما عنصران متباينان، فالجسم له أبعاد ثلاثة والنفس لا

أبعاد لها، وهي جوهر بسيط لا يتجزأ، ولا يدرك بحاسة من الحواس الخمس، ولا يقبل التغير والاستحالة من شيء إلى شيء، ولا يعتريه فتور ولا ملال، وهي تخالف الجسم في قبولها للصور المختلفة من جنس واحد في وقت واحد، فالجسم إذا كان على شكل مثلث، استحال أن يكون مربعًا أو مدورًا، إلا إذا زال شكل التثليث، وليست كذلك النفس، فهي تقبل الصور المتعددة على التمام والنظام من غير محو وإثبات، ولهذا يزداد الإنسان بصيرة كلّما نظر وبحث وارتأى وكشف. وقد صحبت النفس البدن عند مسقط النطفة، وما زالت تربيه وتغذيه، وتحييه وتسويه حتى بلغ ما نرى. والإنسان بهما إنسان وليس بأحدهما، ونصيب الإنسان من النفس أكثر من نصيبه من البدن.

والإنسان يريد أن يعرف النفس، وهو لا يعرف النفس إلا بالنفس، وهو محجوب عن نفسه بنفسه، وكل من كانت نفسه أصفى، ونظره أعلى، كان من الشك أنجى وإلى اليقين أقرب. والنفس قوة إلهية بسيطة، ولبساطتها كان خلودها، لأن الفساد إنما يدب إلى الجسم من تركيبه، والبدن إنما يبلى ويفسد ويبطل ويموت لأن النفس فارقته، والنفس لا يفارقها شيء ليعتريها الموت، وهكذا يفيض في هذا.

وقد أرسل إليه مرة الوزير ابن سعدان أسئلة مع أبي حيان في النفس وطبيعتها ودليل بقائها، وهل تعلم هذا العالم بعد مفارقتها الجسم إلى آخره. فكتب إليه في الإجابة رسالة لطيفة مختصرة. ويقول أبو حيان إن أبا سليمان كان إذا تكلم في النفس أفاض وأتى بالعجب. وفي الحق أن أبا حيان ملأ كتبه بأحاديث أبي سليمان عن النفس.

وهو يطبق معارفه في النفس على سلوك الأفراد والأمم. أطلعه مرة أبو حيان على صحيفة في تعريف الأخلاق وتجديدها، نقلها عن عيسى بن زرعة، فنظر فيها أبو سليمان وقال: «إن تحديد الأخلاق لا يصح إلا بضرب من التجوز والتسمح، وذلك أنها متلابسة تلابسًا، ومتداخلة تداخلًا، والشيء لا يتميز عن غيره إلا ببينونة واقعة تظهر للحس اللطيف أو تتضح للعقل الشريف. ألا ترى أن التواضع مشوب بالضعة، وعلو الهمة بالكبر، وعزة النفس بالعُجْب، والحلم ببعض الضعف. هذا بالقول ربما سهل وانقاد، ولكن بالعقل ربما عز واعتاص، والأخلاق والخَلْق مختلطة».

ثم قال: «وهذا أيضًا يختلف بحسب المزاج والمزاج، والإنسان والإنسان، وإنك لو

رمت تحويل البخيل من العرب إلى الجود كان أسهل عليك من تحويل البخيل من الروم إلى الجود، والطمع في جبان الترك أن يتحول شجاعًا أقوى من الطمع في جبان الكرد أن يكون بطلًا».

يريد أن مزاج العرب أقرب إلى الجود فسهلت الدعوة إليه، ومزاج الترك أقرب إلى الشجاعة فسهلت الدعوة إليه، وليس كذلك مزاج الروم في الجود إلخ.

قال: ومع هذا فوَصْف الأخلاق بالحدود -وإن كان على ما بينا- نافع جدًا.

ثم لأبي سليمان في السياسة العملية نظرات صافية، أحكي منها مثلًا أو مثلين: لقد كان ابن سعدان الوزير البويهي يتأفف من كلام الناس في السياسة ومحاولتهم تعرف كل صغيرة وكبيرة يفعلها الوزراء والأمراء حتى ليودون أن يعرفوا ما يجري في بيوتهم، وما في دخائل أنفسهم. وقد ضاق الوزير ذرعًا بذلك، وود أن يؤدبهم بالضرب والتنكير حتى لا يخوضوا في مثل هذا الحديث وأن يتوجهوا فقط إلى معايشهم ووسائل تحصيلهم.

وقد شكا الوزير إلى أبي حيان، فنقل له أبو حيان من كلام أبي سليمان في ذلك قولًا رائعًا، ونظرًا صائبًا وفصلًا لم تبل جدته، ولم تغيره الأيام على اختلاف تقلب السياسة، فهو جديد اليوم كما كان جديدًا في أيامه.

قال أبو سليمان:

«ليس ينبغي لمن كان الله جعله سائس الناس عامتهم وخاصَّتهم أن يضجر مما يبلغه عنهم أو عن أحد منهم لأسباب كثيرة: منها أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلومهم، وصبره أتم من صبرهم. ومنها أنهم إنما جُعلوا تحت قدرته ونيطوا بتدبيره، ليقوم بحق الله فيهم، ويكون عماد حاله معهم الرفق بهم والقيام بمصالحهم، ومنها أن العلاقة بين السلطان وبين الرعية قوية، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملك والد كبير، كما أن الوالد ملك صغير، وما يجب على الوالد في سياسة والده من الرفق به، والحنو عليه واجتلاب المنفعة له أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده. . . ومما يزيد هذا المعنى كشفًا أن الملك لا يكون إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعية إلا بالملك. . وبسبب هذه العلاقة المحكمة لهجت العامة بتعرف حال سائسها، والناظر في أمورها حتى تكون على بيان

من رفاهة عيشها، وطيب حياتها، ودور مواردها بالأمن الفاشي بينها، والعدل الفائض عليها، والخير المجلوب إليها، وهذا أمر جار على نظام الطبيعة، ومندوب إليه في أحكام الشريعة «ولو قالت الرعية لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك ولا نبحث عن غيب أمرك، ولم لا نسأل عن دينك ونحلتك وعادتك وسيرتك، ولِمَ لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحنا متعلقة بك،وخيراتنا متوقعة من جهتك، ورفاهيتنا حاصلة بحسن نظرك وجميل اعتقادك، ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مصيبة في دعواها؟

«ولو قالت الرعية: لِمَ لا نبحث عن أمرك، وقد ملكت نواصينا وصادرتنا على أموالنا وقاسمتنا مواريثنا، وإن طرقنا مخوفة، وخراجنا مضاعف، ومعاملتنا سيئة، وجندينا متغطرس، وشرطينا متعجرف، ومساجدنا خربة، ووقوفنا منتهبة، ومارستاناتنا خاوية، وأعداءنا مستكلبة، ماذا يكون الجواب؟

وعلى هذا يمضي في بيان حقوق الرعية على الراعي في حرية تامة وجرأة مستفيضة. وقد أعجبني من أبي حيان شجاعته في نقل هذا القول للوزير ابن سعدان، فأصلح رأيه وألجم لسانه.

ومثل آخر من نظرته الصائبة في السياسة: أن أبا سليمان حكى أن كسرى أنوشروان لما تقلد مملكته، عكف على الصبوح والغبوق، فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها: إن في إدمان الملك ضررًا على الرعية، والوجه تخفيف ذلك والنظر في أمر المملكة. فوقع كسرى على ظهر الرقعة بالفارسية ما ترجمته: إذا كانت سبلنا آمنة وسيرتنا عادلة، والدنيا باستقامتنا عامرة، وعمالنا بالحق عاملة، فلم تمنع فرحة عاجلة؟

علَّق أبو سليمان على هذا القول: «أخطأ كسرى من وجوه: أحدها أن الإدمان إفراط، والإفراط مذموم. والثاني أنه جهل أن أمن السبل وعدل السيرة وعمارة الدنيا والعمل بالحق حتى لم يوكل بها الطرف الساهر، ولم تحط بالعناية التامة ولم تحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام، دبّ إليها النقص، والنقص باب للانتقاص مزعزع للدعامة. والثالث أن الزمان أعز من أن يبذل في الأكل والشرب والتلذذ والتمتع، فإن في تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها، وابتعاد الغيّ عنها، ما يستوعب أضعاف العمر،فكيف إذا كان العمر قصيرًا، وكان ما

يدعو إليه الهوى كبيرًا. والرابع أنه ذهب عليه أن الخاصة والعامة إذا وقفت على استهتاره باللذات وانهماكه في طلب الشهوات، ازدرته واستهانت به، وحدّثت عنه بأخلاق الخنازير وعادات الحمير، واستهانةُ الخاصة والعامة بالناظر في أمرها، والقيّم بشأنها، متى تكررت على القلوب تطرقت إلى اللسان وانتشرت في المحافل، والتفت بها بعضهم إلى بعض. وهذه مكسرة للهيبة، وقلة الخيبة رافعة للحشمة، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة، والوثبة غير مأمونة من الهلكة، وما خلا الملك من طامع راصد قط».

وله في تحليل شخصية عضد الدولة السياسي وأحوال الناس في زمانه واضطراب أمرهم بعده ما يدل على دقة نظر. وهو يرى أن لا بدّ من الأخذ بقواعد السياسة بجانب الدين، ولا بد من اطّلاع السائس على كتب السياسة التي كتبها الحكماء وعرفانها، والعمل بها والزيادة عليها حسب مقتضيات الأحوال. وقد كتب هو نفسه رسالة لطيفة في السياسة أهداها إلى قابوس ملك جرجان.

وقد حكى أبو حيان عنه أن أبا سليمان كان إذا تكلم في مثل هذه الموضوعات عجبوا منه وعوذوه، وسألوه أن يؤلف لهم فيها.

ولأبي سليمان كلمات رائعة في الحكمة على نحو ما روي لأفلاطون وبقراط وأمثالها من حكماء اليونان.

وكان دقيق الحكم، له الطبع العلمي المنصف الذي لا يهرف بما لا يعرف.

قيل له يومًا: هل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فقال: «هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة، وحذق ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى تأتي على آخرها وأقصاها، ثم نحكم حكمًا بريئًا من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاهة».

قال له أبو حيان يومًا: كيف أصبحت؟

فقال: «أصبحت مالك الظاهر مملوك الباطن... إن حزنت حزنت طباعًا وإن فرحت فرحت خداعًا، إن أنا خالطت ذممت الناس، وإن اعتزلت اجتلبت الوسواس، إن بحثت دهشت، وإن قدرت استوحشت، بهذا مسائي وصباحي وعليه غدوي ورواحي، وا شوقًا

إلى وطء ذاك البساط! وا كربًا من عقد هذا الرباط! يا لها سعادة وجدت بالجد والتشمير، وزهد من أجلها في النقير والقطمير!».

وكان أبو حيان وغيره يأتونه بالصفحة من كلام الصوفية أو من الفلسفة اليونانية، فيستحسنها ثم يملي من عنده خيرًا منها.

كان له طبيعة يفلسف بها كل شيء مرّ على سمعه أو تحت نظره؛ فما يسمع بحادث، وبعرض عارض، أو ترد خاطرة، حتى تفيض فلسفته ويغمر بها سامعيه.

وكان -مع هذا- له مجالس أنس يروّح فيها عن نفسه. كان مشغوفًا بسماع الغناء من فتى موصلي نابغ، فيطرب من غنائه أشدّ الطرب. وكان يخرج بعض أيام الربيع إلى البساتين ومعه مغنّ، فهل ينسى فلسفته حتى في هذه الأوقات؟ كلا. كان يثير مثل هذه الأسئلة: لِمَ كان المغني إذا تابعه أحد في غنائه وسانده يكون غناؤه ألذ وأطيب وأحلى وأعذب؟ ويغنيه مرة غلام جميل الصوت تنقصه الصنعة، فيثير مسألة: لم تحتاج الطبيعة هنا الصناعة؟ وهكذا يفلسف كل شيء حتى لو قال له أحد «السلام عليكم»، لفلسفها كما فلسف سؤال أبي حيان له: كيف أصبحت؟

وليست فلسفته بالبساطة التي عرضتها. فكثيرًا ما يعمق حتى يدق فهمه، ويسمو حتى لا يدرك، ويرمز حتى لا يبين.

وهذه المسائل التفصيلية كلها ترجع في فلسفته إلى أصول كلية خلصت له، وصحت عنده واعتنقها، وولد منها كل هذه الفروع.

ما هذه الأصول؟ ومن أي مدرسة كان أبو سليمان من مذاهب الفلسفة الإسلامية؟ وهل كان أرسطاليسيًا أو أفلاطونيًا؟ وإلى أي حدّ كان مقلدًا للفلسفة اليونانية؟ وإلى أي حدّ كان أصيلًا؟ هذه مسائل تحتاج إلى بحث أدق ونظر أعمق.

أيًا ما كان، فقد كان أبو سليمان شخصية ممتازة لم تنل حقها من التقدير، لقد تركت دويًا كبيرًا في محيطه وفي زمنه، وكان بيته مقصد العلماء ليلًا ونهارًا، هذا أبو حيان يقرأ عليه كتاب النفس لأرسطو، وهذا يعرض ما غمض عليه من أقوال الفلاسفة فيشرحها، وهكذا كان مجلسه متعة النفس وغذاء العقل. وأقواله تنقل إلى الخاصة، ويتجادل فيها العلماء في مجالسهم، ويتخاصم فيها في سوق الوراقين، وتحدث حركة علمية جليلة. ولكن لا تلبث أن تخبو، وقلّ من التفت إليها وحرص على دراستها، كما فعلوا بكتب ابن رشد وابن سينا

ومثالهما، والدنيا حظّ والوجاهة حظّ.

وهو -مع الأسف- لم يخلف لنا كتابًا أو كتبًا تعرض كل فلسفته مبوَّبة مرتبة، ولكن نبذ من هنا ومن هناك حكاها عنه أبو حيان.

ومع هذا، فلعلّي بهذه الكلمة القصيرة أكون قد نفضت عنه بعض الغبار الذي عفي عليه، ولعلها تثير من يكشف النقاب عن وجهه.

* * *

تعقيل الإصلاح[1]

في اللغة: عقّل الأحمق أو الجاهل: صيرّه عاقلًا. وقد استعملته هنا في معنى قريب من هذا، وهو تأسيس الإصلاح على مقتضى العقل والعلم لا على أي أساس آخر.

وتقبل الإصلاح بعذا المعنى درجة لا يصل إليها الإنسان إلا بعد مراحل شاقة وبلوغ درجة عالية من الرقي والنضج. سواء في ذلك الإصلاح الشخصي أو الإصلاح الاجتماعي. ففي الأفراد -مثلًا- كثيرًا ما يسيِّر المرء هواه وعواطفه لا عقله، وقد يتخذ الهوى والعواطف شكل العقل خداعًا وتضليلًا، هذا رجل مقتر على نفسه، يأتيه المال الكثير ولا ينفق منه إلا القليل، ويضن به على نفسه وأولاده حتى في الضروريات خشية الفقر، فهذا يسير في حياته على الهوى، ولكن يصبغه صبغة العقل فيخترع حججًا ومنطقًا يبرر بها سلوكه، ويظن أنها العقل وليس بعقل، وإنما هو الهوى.

وهذه امرأة رأت نفسها أسمن مما يلزم، فوصف لها نمط من الغذاء خاص تلتزمه، فلما حاولت ضعفت إرادتها، فهي تزعم لنفسها أن سمنها ليس فوق المعتاد، وأنها إن نحفت عن ذلك قل جمالها، فهي تخترع حججًا عقلية لتبرهن بها على سلوكها، وهي في الواقع تستر فشلها. هي -إذًا- تسير حسب هواها لا حسب عقلها، لأن السير حسب العقل عسير.

والأمر من الإصلاح الاجتماعي أوضح؛ فالأمم تسير في الإصلاح حسب الهوى حتى تنضج، فتخضع للإصلاح حسب العقل. وأعني بالهوى مجرد الرغبة، سواء أكانت خيرة أو شريرة، فالإصلاح المؤسس على مجرد عاطفة ولو خيرة من غير أن يفحصه العقل هو إصلاح مبني على الهوى ويحتاج إلى تعقيل.

ولنضرب لذلك -مثلًا- الفقر والإحسان. فقد نظر إلى الفقر قديمًا على أنه كارثة يألم لها

---

(1) ملخص محاضرة ألقيت في الجمعية الجغرافية بدعوة من الجامعة الشعبية.

الإنسان، وعالجها بالإحسان بمعنى التصديق على الفقراء، فهذا إصلاح مبني على العاطفة أو النية الحسنة أو الهوى بمعناه الحسن، ولكنه إصلاح لم يعقَّل. وظل الحال على هذا المنوال حتى جاء العصر الحديث وحدثت النهضة العقلية، فحاولوا تعقيل إصلاح الفقر. فماذا فعلوا؟ درسوا الفقر وأسبابه دراسة عميقة، فتساءلوا: ما الفقر؟ ومن الفقير؟ وأسباب الفقر، وما يرجع منها إلى الفقير، وما يرجع إلى النظام الاقتصادي والاجتماعي في الأمة. ورأوا أن الإحسان بمعنى إعطاء الفقير شيئًا من الصدقة يدًا بيد قد يلتقي مع أسباب الفقر في قليل من الأحيان، ولا يلتقي في كثير منها، فإذا كان سبب الفقر أن ربّ الأسرة سكير، فماذا تجدي الصدقة؟ فلمّا عقَّلوا الإصلاح ودرسوا الفقر وأسبابه، نوّعوا الإحسان ليتلاقى مع أسباب الفقر، فمن كان سبب فقره العطل عن العمل، فليوجد له عمل، ومن كان سببه الإدمان على كيف من المكيفات فليعالج، وإذا كان السبب سوء الحالة الاقتصادية في البلاد فلتصلح الضرائب.

وعلى كل حال فليكن الإحسان في يد جمعيات وهيئات صالحة تدرس وتعالج بناء على الدرس، وليحرّم الإحسان الفردي، وليكن الإحسان لهذه الهيئات الصالحة تنفقه، وليحرَّم التسول في الطرقات بناء على هذا، ولتنشأ المدارس الصناعية لأولاد الفقراء منعًا للفقر المقبل، وهكذا. ولا يزال الباحثون يعقِّلون هذا الإصلاح إلى اليوم. وكان آخر ما قرأنا في ذلك مشروع «بيفردج». وكان لهذا التعقيل على اختلاف أنواعه نتائج باهرة إن لم تقض على الفقر تمامًا، فقد كادت. ولولا الحروب وويلاتها لرأينا منها أحسن النتائج.

ولننظر في ضوء هذا إلى الأموال الكثيرة تنفق بدعوى معالجة الفقر عندنا كأموال النذور والأوقف الخيرية وأموال الجمعيات الخيرية كيف توزع بدعوى معالجة الفقر من غير عقل ولا تعقيل!!

كذلك الشأن -مثلًا- في الإجرام والجريمة. كانت النية الحسنة أو الهوى ينفّر من الجريمة، ويعاقب عليها في كثير من الأحوال، ولكن لما أريد تعقيلها بحث عن الجريمة وأسبابها ووضع العلاج لكل سبب، فالجريمة لم تأت عفوًا فلا تعالج عفوًا، إنما تأتي من عوامل متعددة مختلفة، فما بقيت العوامل بقي الإجرام.

على هذا أصلحت السجون، ووضعت الأسس للوقاية من الإجرام.

وهكذا كل الأمراض الاجتماعية وما وضع لها من إصلاح.

وقد أتى هذا التعقيل -أو هذا النضج في التفكير- نتيجة للإيمان بقانون السببية، وربط المسببات بالأسباب. فالفقر والإجرام والجهل والقذارة وسوء النظام وفساد الحكم، كل ذلك ليست قدرًا ينزل من السماء لا قبل لنا به ولا دخل لنا فيه، ولكن أسباب حدثت تنتج مسببات لا بد منها، وليست ثمر تثمر عفوًا، ولكن تبذر بذورًا وتتكون مع الزمن لتكون شجرة ثم تثمر، ولا بد أن تكون الثمرة من جنس البذرة، فإذا بذرت حنظلًا وأردت تفاحًا فذلك محال، إلا أن تغير البذرة وتتعهدها بالنماء حتى تثمر تفاحًا. ومهما كان لك من نية حسنة، فبذرة الحنظل حنظل، وبذرة التفاح تفاح.

والناظر في شؤون الأمم والجمعيات وتطورها يرى أنها جرت في تطورها على سنن واحد من الخضوع للغريزة إلى الخضوع للهوى، إلى التعقيل.

فالجمعيات الإنسانية الأولى تتحكم فيها الغرائز وحدها؛ ولا شيء يكبتها إلا القوة والخوف منها، ثم تخضع لحكم الهوى من تقاليد وعرف وظروف طبيعية واجتماعية، ثم أخيرًا تتطور إلى الخضوع للعقل وإن لم تبلغ في ذلك -إلى الآن- الغاية.

هذا هو شأن الإنسان في علاقاته الجنسية. فالغرائز -أولًا- مطلقة، ثم تكون الأسرة خاضعة لأحكام الهوى، ثم تأخذ في الخضوع للعقل، وكذلك الشأن في النظم الاقتصادية: تخضع أولا للغرائز، ثم لحكم الهوى، فيكون نظام الطبقات وما إليها، ثم لحكم العقل. وكذلك في الشؤون السياسية.

ولهذا كان البطل في الجمعية الأولى أقوى مَن في الجمعية غرائز، كما يتمثل ذلك في شيخ القبيلة، ثم يكون البطل في الطور الثاني الولي أو القديس أو الحاكم المستبد، ثم يكون في طور التعقيل للصالح. وليست الخطوط بين هذه الأطوار واضحة جلية، فكثيرًا ما تمر القرون مختلطة بين طورين حتى يتم التطور.

ماذا نعني بتعقيل الإصلاح؟

إذا أردنا أن نبني عمارة على مساحة من الأرض فإن سرنا على الهوى فإنا نأتي بمعماري

حيثما اتفق، وهو يسير في بنائها حيثما اتفق، وإذا عنّ في أثناء البناء ضروب من التعديل والتغيير أدخلها، وإذا فرغ مال المالك وسط البناء وقف، وإذا تمّ البناء بدأ يفكر في التجارة، وقد تستلزم التجارة تعديل البناء. وهكذا في كل خطوة تظهر مشاكل تتطلب حلًا، فتحل المشكلة الحاضرة من غير نظر إلى ما وراءها، حتى إذا تمت -إن تمت- فبطلوع الروح، وبضروب من النقص الناشئ من الارتجال.

أما إن بنيت على أساس التعقيل، وجب أن يحدد المالك ماذا يريد من البناء: الاستغلال، أو سكنى نفسه وأهله، وكم شقة يريد في الدور، وكم دورًا.. الخ.

ويأتي بالمهندس فيمسح الأرض، ويدرسها من حيث طبيعتها وما تسمح به القوانين في ارتفاعها، ويتخيل أحسن أشكالها وفقًا لموقعها، وما تتطلبه من شمس وهواء وضياء، ويضع ذلك كله على الخريطة: الأساس والدور الأول والثاني وهكذا، وكم مترًا ستكون مساحة البناء، وما يتطلبه من مال، والنجارة، والسباكة، والكهرباء. ويضع ذلك كله على الورق، ويراعي كل الظروف والملابسات، ويصل إلى كل النتائج، إلى تسليم المفتاح. وإذا كان مهندسا ماهرًا لم يختل شيء من ذلك في قليل ولا كثير.

ثم المالك بعدُ يقيس ذلك بماليته، ويرى هل ذلك كله حقق غرضه. فإن تم الاتفاق، نَفَّذ المشروع، على أن يكون أول حجر يوضع مقدمة لآخر عمل يعمل، فهذا تعقيل البناء، وكذلك الشأن في تعقيل الإصلاح الاجتماعي.

إن أي مشروع لإصلاح اجتماعي يتطلب لتعقيله خمس خطوات:

(1) مسح المشروع كما تمسح الأرض، وذلك بإلقاء نظرة عامة عليه وعلى ما يحيط به من علاقة بين الحالة الاقتصادية والاجتماعية للأمة.

(2) دراسة المشروع دراسة وافية من جميع جوانبه كما يفعل المهندس الماهر في دراسة بناء العمارة: من وصف دقيق للمشروع، وتحليل عميق، وعلاقة المشروع بالنظم الاجتماعية والاقتصادية في البلاد، والاستعانة بما يحتاج إليه من إحصائيات وما يتكلف من مال، والموارد والمصادر والنتائج، والموازنة ين ما ينفق عليه والنتائج التي تحصل منه، وما قد يعترضه من عوائق، وكيفية التغلب عليها، وهلى ينفذ دفعة واحدة أو على خطوات، وإن كانت الثانية، فما هي هذه الخطوات؟ وهكذا إلى «تسليم المفتاح».

(3) وضع المشروع على الورق، أو رسم الخريطة الكاملة له نتيجة لدرسه، وعرضه على الخبراء لنقده إن كان لديهم نقد، والإصغاء إلى ملاحظاتهم، وتقديرها في عدل وسماحة، وتعديل المشروع حسبما يصح من وجوه نقدهم.

(4) إعداد الرأي العام لقبول المشروع والعطف عليه والتحمس لإتمامه؛ ففي هذا فائدة كبرى للمشروع، فإنه إذا لم يحظ بعطف الرأي العام، أحيط بالصعوبات والعقبات، وفت ذلك في عضد القائمين به، وتعثر في كل خطوة يخطوها. وفي عطف الرأي العام شيء من الضمان في الاستمرار فيه، والدفع إلى إتمامه.

(5) التشريع له وإقراره من السلطة المختصة حتى يبدأ في التنفيذ.

هذه هي الخطوات الخمس لتعقيل أي مشروع. فإن أردنا أن نضيف شيئًا إلى هذه الخطوات الخمس، قلنا: يجب أن يكون موقف الأمة الاقتصادي والاجتماعي في حالة ملائمة لقبول هذا المشروع، ولك أن تدخل ذلك في الخطوة الثانية، وهي خطوة الفحص والدرس.

وعلى كل حال، فإن رأيت فشلًا في مشروع من المشروعات، فاعلم أن سببه أنه لم يستوف خطوة أو أكثر من هذه الخطوات، ولو أنه استكملها لنجح نجاحًا مؤكدًا.

إن أكبر أسباب فشلنا في كثير من المشروعات يرجع إلى عدم تحديد ما نريد، فإذا حددنا ما أردنا، فنقصٌ في البحث والدرس، وكثيرًا ما نعتمد على الدرس الذي قامت به دولة أو هيئة أوروبية من غير أن نفحص المشروع نفسه في بلادنا وما يحيط به من ملابسات عندنا. مثال ذلك ما حدثني به اقتصادي مصري خبير قال: إن جماعة في إنجلترا أسست مشروعًا لجمع الملابس القديمة وإعادتها بالآلات الحديثة إلى «فتل» تنسج من جديد؛ فتكون أثوابًا جديدة رخيصة، قد تختلف عن الفتلة الجديدة بأنها أقل متانة وأقل نعومة، ولكنها على كل حال صالحة للاستعمال. ونجح المشروع الإنجليزي، فأراد جماعة من المصريين أن يقلدوهم في مشروعهم بناء على درس الانجليز -لا على درسهم هم- ففشل المشروع لقلة الدرس؛ إذ فاتهم أن أكثر الملابس الإنجليزية صوفية؛ وأكثر ملابسنا قطنية؛ وأن الإنجليز يستغنون عن ملابسهم قبل أن تهلهل، وأن أكثر ملابسنا لا نستغني عنها إلا بعد أن تكون مهلهلة. ولذلك فشل المشروع.

ثم إذا نحن حددنا ما أردنا جيدًا، ودرسنا جيدًا، فأمامنا ثلاث مصائب كبرى تقضي على أكثر المشروعات: النظام المالي عندنا وفساده، وهذا يحتاج وحده إلى محاضرة أو محاضرات ممن هم أعلم مني بذلك، وعدم استقرار الحكومات مع ربط المشروعات برغبات الحكومة، فإذا تغيرت الحكومة تغيرت الرغبة. وأوضح مثل لذلك مهزلة مشروع خزان أسوان، ومشروع تعميم التعليم. والمصيبة الثالثة ضعف خلق الثبات والاستقرار في الأمة، ويتجلى هذا حتى في المشروعات الأهلية. لهذا كله قد نرى المشروع جميلًا جدًا، وإخراجه إلى الوجود قبيحًا جدًا، آلة فخمة ضخمة كاملة، ولكن ينقصها المحرك.

ومع هذا فدورنا دور طبيعي في الأمم؛ ولا بد -حين الانتقال من عصر الهوى إلى عصر التعقيل- من عصر مخضرم، ثم ينتهي الأمر إلى التعقيل لا محالة إن شاء الله.

* * *

غفلة مزمنة

قرأت في بعض الصحف، «إن زعيم الإسماعيلية الهنود -وعددهم يزيد على عشرة ملايين- سيهدي إليه أتباعه في عيده الماسي وزنه ماسًا، ويقدر الماس الذي يعادله وزنه بـ615000 قيراط- وقد بدأ فعلًا جمعها، وقد أهدي إليه في عيده الذهبي وزنه ذهبًا، فبلغ 25000 جنيه ذهبًا».

فقلت: أيظل المسلمون في غفلتهم هذه أبدًا؟ إن الإسلام في جوهره لا يقدس أحدًا، ويحارب عبادة كل حجر وكل وثن وكل صنم وكل حيوان وكل إنسان، وشعاره الدائم «لا إله إلا الله» ومعناها البسيط أنه هو وحده الذي يعبد والذي يقدس والذي يرجى والذي يخاف.

فما بال المسلمين فقدوا هذا المعنى، فقدَّسوا الأشخاص يعبدونهم، ويلجأون إليهم ويقدمون لهم الهدايا كما نقدم القرابين؟!

ألا يدرون فيما تصرف هذه الأموال الطائلة التي يجمعونها من البائس الفقير الذي لا يجد ما يسد قوته وما يستر جسمه؟ إنها تصرف في خيل السباق وفي ترف الزعيم وفي غير ذلك من وجوه الترف؟ أليست نظرة بسيطة تُرِي أن هذا المال الذي يجمع من محتاجه ليصرف في هذه الوجوه غفلة عريقة عريضة.

ولِمَ هذا التقديس كله؟ ولِمَ هذه الحفاوة كلها؟ لَمْ يكن ذلك من كفاية ممتازة، ولا عبقرية خارقة للعادة، ولا قيام بالإصلاح عظيم، ولكن وراثة دينية ورثها. وسلطة روحية تنقلت من الآباء إلى الأبناء حتى وصلت إليه.

أفيقوا أيها المسلمون.

ليس هذا الأمر مقصورًا على الإسماعيلية دون غيرهم، ولا على الشيعة دون السنِّيين، فالغفلة عامة، والجهل مخيم، والسخافة فاشية، وعبادة الأشخاص في كل مذهب.

ما صناديق النذور هذه التي يراها الزائر عند كل ضريح كبير كالسيد البدوي والإمام الشافعي والسيدة زينب وسيدنا الحسين وغيرها من الأضرحة؟ إن كل صندوق من هذه توضع فيها مئات الجنيهات بل الآلاف أحيانًا كل عام.

أتدرون من الذي يدفعها ومن الذي يَنعم بها؟ يدفعها الفلاح المسكين يحرم نفسه وأولاده من غذائهم الضروري وملبسهم الذي لا بد منه، ويدفعها من ثمن بقرة يبيعها وهو في أشد الحاجة إليها في زراعته ليفي بنذر نذره إن شفي ابنه من مرض أو بُرِّئ من تهمة أو نحو ذلك؟ مما لا دخل للسيد البدوي وسيدنا الحسين فيه.

ويأخذ الأغنياء المترفون من مشايخ هذه المساجد ومن إليهم ممن ليسوا في حاجة إليها، وبعضهم يقتني منها الأملاك والضياع، وكل حين تحدث فضائح حول هذه الصناديق تؤلف وزارة الأوقاف لها لجانًا. وماذا عليها لو ألغتها فسدَّت بذلك بابًا من أبواب الفساد.

وما هذه المشيخة الصوفية التي تتوارث كما ورث زعيم الإسماعيلية مشيخته؟ فهل العلم يتوارث؟ وهل الروح تتوارث؟ إنا نرى أعلم عالم يلد أجهل جاهل، وصالحًا كبيرًا يلد فاسقًا كبيرًا، وممعنًا في الفسق يلد ممعنًا في الصلاح. والعلم والذكاء والغباء والصلاح والفساد «تذكرة شخصية» لا يمكن أن تتوارث، وقد منع الأنبياء من أن يُورثوا حتى في أموالهم، وجاء الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركنا صدقة».

فالسيادة الروحية كالسيادة العلمية لا يصح أن يكون كل مصدرها الوراثة، بل لا يصح أن يكون أحد مصادرها الوراثة. هل رأيت أحدًا اختير أستاذًا في جامعة أو في مدرسة عالية أو غير عالية لأن أباه كان يشغل هذا المنصب؟ فكيف بالروح وأمرها أصعب ونيل الدرجة الممتازة فيها أشق، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ **[الأنعام: الآية 124]** . وقد يكون شريف النسب لا يساوي عند الله شيئًا، وقد يكون وضيع النسب وهو عند الله في مكان مكين. هذه بديهيات تطيح بمشايخ الطرق وزعماء المذاهب وبكل من نال منصبًا بالوراثة لا بالكفاية.

قد كان الناس إلى عهد قريب ينظرون إلى المناصب نظرة شخصية، فإذا مات موظف، جهدوا في أن يحل ابنه مكانه للحرص على أن يظل «البيت مفتوحًا» ونحو ذلك من الاعتبارات. فلما عقلوا وفهموا أن المنصب عمل يؤدَّى، ولا بد لمن يؤديه أن يكون كفئًا له، زالت النظرة الشخصية، وزال توظيف الابن مكان أبيه لمجرد الأبوة والبنوة، وروعيت

المصلحة العامة لا المصلحة الشخصية. فلماذا تبقى هذه البقية من المناصب تتوارث من غير نظر إلى الكفاية؟

إن رجل الدير إنما يقوَّم بدينه وبما يقوم به من إصلاح روحي وخلقي، فلو لم يكن فيه هذه الصفات، فلا يصلح -مطلقًا- أن يولّى هذا المنصب ولو كان أشرف الشرفاء. والله يقول لنوح النبي في ابنه غير المؤمن: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هُود: الآية 46] . والرسول يقول لعائشة زوجه ولفاطمة ابنته: «إني لا أغني عنك من الله شيئًا»، فما بال هؤلا يعتزون بنسبهم البعيد ويرون استحقاقهم للمناصب بنسبهم لا بأعمالهم، والناس من غفلتهم يؤيدونهم في أغراضهم وشهواتهم!

هل كان النبي (ﷺ) يختار لعمله أقاربه؟ أو كان أبو بكر وعمر وعليّ يختارون لعملهم أقارب النبي؟ ألم ينحّ عليّ نفسُه قريبه عبدالله بن عباس وينصب من ليس من أهله مراعاةً للكفاية وحدها.

جميلة جدًا هذه العاطفة النبيلة أن يحب المسلمون نبيهم، فيحبوا كل ما يتصل به من أقاربه ومكانه وأصحابه كما يحب العاشق كل ما اتصل بمحبوبه، ولكن لا يصح أن يتدخل هذا الحب في المصلحة العامة ولا في العدالة الاجتماعية ولا في المبادئ الأساسية للإسلام. هل يسمح لي في شرعة العدل أن أولِّيَ قريبًا عملًا لا يصلح له؟ بالبداهة، لا، فكذلك هنا «لا».

إن من أسس الإسلام التقويم بالعمل لا بالنسب. ووضعت لذلك القاعدة الجميلة ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8] من غير نظر إلى فاعل الخير وفاعل الشر. فهل يصح أن نهمل كل ذلك من أجل الحب، والحبيب نفسه لا يرضى أن تهدر مبادئه؟

لقد ذهب زمان الغفلة، وأصبح الناس يقدرون الرجل بعمله، فيولون رئاسة حكوماتهم ابن الصانع وابن العامل، وينحّون عن العمل ابن العظيم وابن الشريف إذا كان لا يصلح للمنصب، والناس يتقدمون للانتخابات بعملهم وبرامجهم لا بنسبهم، ومنتخبوهم ينتخبونهم على هذا الأساس لا على أي أساس آخر.

أفيصح للمسلمين في مثل هذا الزمان أن يسلموا زمامهم، وينفقوا أموالهم، ويطأطئوا رؤوسهم، ويسندوا أعمالهم إلى من ليس يستحق لمجرد نسبه؟

لست أقصد بهذا النقد مذهبًا معينًا ولا طائفة خاصة، فهذا الشر واقع فيه كل الطوائف، والغفلة عامة، فهل يفيقون في زمن لا تكفي فيه الإفاقة، بل لا بد من العمل المجدي والسعي المضني للعيش الصالح في هذا العالم!

* * *

الجرائم العقلية

بالأمس قرأت في إحدى الصحف أن دجّالًا قدم للمحاكمة بتهمة التغرير بالعقول، وهُجم على بيته، فرئي فيه أنواع من ملابس الشعوذة أشكالًا وألوانًا، وأحصيت ثروته فبلغت مائة ألف جنيه، ثم حكمت المحكمة ببراءته لأن القانون لا ينطبق على أعماله.

هذه جريمة عقلية.

ومن حين حدّثني المرحوم عبدالعزيز باشا فهمي أن رجلًا من أسرة مشهورة في الشرقية سماها لي مات جدهم من زمن، وكان لصًا فتّاكًا، ودفن في مقبرة معروفة، فعمد أحد خدمهم إلى هذه المقبرة وشيدها وجعلها على شكل ضريح، ولوّن حيطانها بألوان أضرحة الأولياء، وأشاع في الناس أن ساكن الضريح ولي من أولياء الله له كرامات واضحة، فكم شفي من مرض وفرِّج من كربة، وجعل له «حضرة» تقام كل أسبوع، و«مولدًا» يقام كل عام. وطلب من «الأوقاف» أن تعينه شيخًا للضريح ففعلت، فكان هذا مصدر ربح كبير استطاع به أن يشتري خمسين فدانًا من أطيان أسرة صاحب الضريح.

هذه أيضًا جريمة عقلية.

وفي الأضرحة المشهورة كالسيد البدوي والسيّدة زينب وسيدنا الحسين صندوق نذور يضع فيه الزوار نذورهم، ويبلغ معدل صندوق السيدة زينب ثمانيمائة جنيه كل شهر.

هذه أيضًا جريمة عقلية.

من أين هذا المال؟ وإلى أين؟

من فقير لا يجد قوته وقوت أسرته، ومن سيدة مسكينة اقتصدته من غذاء أبنائها وبناتها وملابسهم، ومن فلاح فقير باع بقرته وفاءً بنذره، وظل بعدها بلا بقرة.

هذا «من أين»، وأما «إلى أين»، فإلى دجال يستهوي عقول المغفلين بشعوذته وبأثوابه البيض والحمر وببخوره الجاوي. ثم هو يعيش بعدُ عيشة الترف والنعيم والبذخ، وإلى جيوب من لا يستحقون من موظفي المساجد الذين يتقاضون المرتبات على ما يعملون.

* * *

أعني بالجرائم العقلية كل عمل يرتكب ضد العقل، وكل سلوك ضد الصدق وضد الحق.

وهذه الجرائم تغمر الحياة العامة، ويتخذ الناس منها ضروبًا وأفانين. ولنسق بعض الأمثلة عليها:

1- فمن ذلك تغرير العقول وتضليلها، كوضع البرامج الضارة بعقول الناشئين في المدارس، وكبرامج الإذاعة وروايات السينما والتمثيل التي تحيي الشهوة وتميت العقل، وكأعمال الزعماء السياسيين الذين يغررون بالعقول، أو يحجرون على حرية القول وحرية التفكير، ومثل الدجالين بالطب الروحاني والاتصال بالجن والعفاريت يستحضرونهم ويسخرونهم.

2- ومن ذلك أيضًا ما نرى كل حين من أشخاص يقررون أن الشيء حق، ولكن عملهم عمل من يعتقد أنه باطل، أو يقررون أن الشيء باطل، ولكن يعملون عمل من يعتقد أنه حق، كالذي يعلي من شأن الصدق ويكذب، أو من شأن النزاهة ويرتشي، أو يشيد بالعدل ويسعى في نيل درجة أو وظيفة من طريق غير شريف.

3- ومن ذلك جناية الإنسان على نفسه من ناحية عقله بشرب الخمور وبقلّة تغذية عقله بالقراءات النافعة، ومثل تكوين الإنسان آراءه على غير أساس واستسلامه للخرافات والأوهام تغزو عقله، وبيع عقله لغيره يتصرف فيه تصرف الملاك وهكذا.

* * *

والدنيا حولنا مملوءة بهذه الجرائم العقلية تعبث بالعقول وتسمم الأفكار.

انظر إلى الجرائد والمجلات كيف تتنازعها الدعايات المختلفة في الأخبار الخارجية، وكل أمة تسوق الأخبار حسب هواها ومصالحها لا حسب حقائقها، واعتبر بما يجري هذه الأيام في عرض القضية الواحدة، تعرضها روسيا بشكل وإنجلترا بشكل وأمريكا بشكل، فأين الحق؟ لست أدري. وهكذا الشأن في مشاكل العالم، ليس يتحرّى عارضها حقًا وصدقًا، ولكنه يتحرى أملًا ومصلحة. وفي الأمور الداخلية كل حزب يصور المسائل حسبما يهوى حزبه لا حسب الصدق ولا الحق. وتقرأ الجرائد المختلفة فتصرخ من أعماق نفسك: يا لضيْعة الحق!

وانظر إلى ترجمة الحياة في حفلات التكريم والتأبين وفي كتب التراجم والتاريخ كيف يضيع الحق بين دعوة الدعاة وملق المتملقين وخصومة المتعادين وتعصّب المتحزبين.

وانظر إلى الإعلانات عن السلع وعن الكتب وعن المستحضرات الطبيّة وعن الروايات التمثيلية كيف يلعب فيها بالعقل، فكل دواء يشفي من كل مرض، وكل كتاب كنز ثمين، وكل رواية فتح جديد، وكل سلعة ليس لها نظير، وهكذا.

من أكبر ما يؤسف له أن الجرائم العقلية لم تقدر خطورتها القدر اللائق بها؛ فهذا الدجّال الذي سرق مائة ألف جنيه من الفقراء والبائسين - وفوق ذلك ضلل عقولهم- لم يجد القضاة نصًا في القانون يعاقبونه بمقتضاه، ولكنهم يجدون نصوصًا كثيرة لفقير سرق رغيفًا من غني، إن القوانين عنيت -مع الأسف- بالماديات دون المعاني، مع أن جريمة المعاني أشد خطرًا وأنفث سمًّا.

والأمم الجاهلة لا تحسّ خطر الجرائم العقلية بل لا تحسها إطلاقًا، بل هي تمنح المجرمين العقليين كثيرًا من الاحترام. إن شئت فانظر ماذا يلقى هذا الدجال من توقير واحترام، أو انظر كم من آلاف الناس يهوون تقبيلًا لأيدي سارق النذور، وكيف يبجل بعض الزعماء السياسيين الذي يضللون العقول أو يحجرون على التفكير.

ومن أهم الفروق بين أمة منحطة وأمة راقية كثرة الجرائم العقلية في الأولى وقلتها في الثانية. ومن أهم علامات الأمة الراقية سيرها على مقتضى العقل في تربية أبنائها وفي فلاحتها وصناعتها وكل مرافق الحياة فيها.

وأهم ما يجب أن يعنى به المصلحون خَلْق «الضمير العقلي» في الأمة، وإشاعته وتقوية سلطانه. وأعني بالضمير العقلي تنبه الشعوب باستهجانه كل ما يرتكب ضد العقل واحتقار فاعله كما يحتقر السارق والقاتل، والشعور بالاستحسان ممن يأتي بالفضائل العقلية، كالدعوة إلى محاربة التخريف والتدجيل ونحوهما.

إن أكثرنا -إلى اليوم- حتى خاصتنا، يقفون من الجرائم العقلية موقف عدم الاكتراث، وهذا هو في نفسه جريمة عقلية.

لست أدري لماذا نتحمس لحماية عرضنا ولا نتحمس لحماية عقلنا، وكلاهما يجب أن يكون عزيزًا علينا.

* * *

قادة الرأي

قائد الرأي في الأمة كربّان السفينة، لا يمكن أن تسير في أمن إلا به، ولا يمكن أن تصل إلى غايتها إلا به، وإذا كان ربان السفينة لا يصلح لقيادتها إلا إذا ثقف ثقافة واسعة في البحار والأنواء، وكيفية اجتياز الصعاب إذا عرضت، وتجنب المخاطر إذا أسفرت، والدخول إلى الموانئ والخروج منها وما إلى ذلك، فكذلك القائد لا بد أن يكون على علم تام بشؤون الأمة جميعًا في الداخل والخارج، وما يقدمها وما يؤخرها، وما يؤثر فيها ظاهرًا وباطنًا، وكيف يصل بها إلى برّ السلامة إذا هبّت العواصف، وكيف يسير بها إلى الأمام إذا اعتدلت الريح، وهكذا.

وكما أن قائد السفينة لا يسير على هوى الركاب، ولا يخضع لإرادتهم في سرعة السير وبطئه، ولا في الاتجاه الذي يتّجهه، ولا في كيفيّة دخول الميناء والخروج منه، وإنما يخضع لعلم البحار وقوانينها ونظمها، وما يراه هو في مصلحة الركاب، لا ما يرون هم، فكذلك قائد الرأي في الأمة لا يخضع لرغباتهم وشهواتهم، ولا يتجه دائمًا إلى ما يرضيهم، وإنما يخضع لقوانين الأمة ونظمها، وما يرى هو -بعد الاستشارة وتبادل الرأي- أنه المصلحة العامة، وأنه يحقق تقدم الأمة ونجاحها ورقيها، ولو خالف رغباتها.

ربان السفينة يسرّه أن يرضي الركّاب، وأن يكونوا في سرور ومتعة، ولكن ذلك مشروط باتفاقه والمصلحة العامة؛ فإذا رأى أن اتباع هواهم في غير مصلحتهم لم يعبأ برضاهم ولا سرورهم، وعمل الواجب عليه ولو أغضبهم، فكذلك قائد الرأي، يرضيه أن يرضى الناس عنه، وإن يحقّق لهم ما يسرّهم، ولكن في حدود ما يرى المصلحة لهم. فليس الذي يسيّره هو تصفيق الجماهير، بل هو يعمل الحق، ويؤدي الواجب، سواء صفق له الجماهير، أو رموه بالأحجار، لأنه يعلم حق العلم أنه إن سيّره تصفيق الجماهير كان تابعًا للجماهير لا قائدًا لها، وكان في مؤخرتها لا في مقدمتها.

قد كان ربّان السفينة فيما مضى يكفيه العلم بالبحر حسبما شاهد وجرّب، واستفاد ممن

سبقوه تجربة ومرانة، ولكن ربّان السفينة اليوم أصبح لا بدّ له من علم بجانب التجربة؛ لا بد له من أن يعلم «علم البحر» بعد أن صار عِلْمًا، و«علم الجو» بعد أن صال علمًا، وميكانيكا السفينة، وهندستها، وما إلى ذلك، فكذلك قائد الأمة، أصبح واجبه أدق، وأعباؤه أعظم، وتكاليفه أشق. أصبحت نفسية الجماهير علمًا يجب أن يعرف، وتاريخ بلاده سجلًا يجب أن يقرأ، والسياسة الدولية علمًا معقَّدًا، بل علومًا معقدة يجب أن تدرس وتفهم، وإلا ما صح أن يكون قائدًا، فمن ظن أنه يقود أمّة بثرثرة كلام، أو استرضاء مشاعر، أو تهييج خواطر، كان كمن يريد أن يكون ربان سفينة بالصياح.

لقد كانت السفينة فيما مضى تسير في بحرها وحدها؛ غير عابئة بغيرها، وكان الربّان لا ينظر إلا إلى سفينته وبحره. أما اليوم فالبحار شبكة واحدة، والسفن في البحار شبكة تتعاون وتتخاطب وتستنجد ويستنجد بها؛ فكذلك الأمّة والقائد - كانت الأمة تعيش وحدها، فإن توسعت فمع من جاورها، وكان سهلًا على القائد أن يقودها. أما اليوم فالعالم شبكة، ولا يمكن لقائد أمة أن يقودها حتى يعلم تيارات السياسة العالمية ومراميها ومصاعبها، وكيف يجتاز أخطارها، ويصل إلى بر السلامة متجنبًا ألغامها، وما أشق ذلك وأصعبه!

ربّان السفينة يجب أن يمتاز بثلاث خلال، هي في الصميم من عمله: أن يكون أمينًا على ما في يده من أرواح من بالسفينة، وهذا يقتضيه أن يفتح عينه لكل ما في السفينة، وما يحيط بها، وما ينتظرها، حتى إذا فاجأها مفاجئ عرف كيف ينجو بها، ثم أن يكون شجاعًا فلا يضطرب لحادث، ولا ينخلع قلبه لعارض، بل يتصرف عند الخطر في ثبات ورزانة وحكمة، حتى يسلم بسفينته من الخطر. ثم التضحية عند الشدائد، فهو آخر من ينزل إلى قوارب النجاة إذا غرقت السفينة، وهو الذي يقف على ترتيب وسائل النجاة إلى آخر لحظة من حياته.

فكذلك يجب أن يكون القائد في الأمة أمينًا على أرواح أمّته، أمينًا على مصالحها، أمينًا على السعي في خيرها، ثم هو شجاع، لا يخشى الكوارث تحلّ به، ولا التهديد يناله من أعدائه، ولا الصعاب تعترض سبيله، ولا الفقر، ولا السجن، ولا النفي، ولا أي مفزع، ثم هو مضحّ إلى آخر حدود التضحية. يشعر أن أرواح الناس وحريتهم واستقلالهم وخيرهم في عنقه، يجب أن يحافظ عليها أشد مما يحافظ على نفسه، وإذا اقتضى الأمر أن ينجي أمته ويموت هو فلا بأس، كما يفعل الربّان الأمين.

ولكلّ أمّة حيّة سفينة ذات أشكال وألوان، فسفن سلمية، وسفن حربية، وسفن كاسحات ألغام، ولكل نوع ربابنته العارفون بشؤونه، المقَدّرون له الصالحون لقيادته، وكذلك الشأن في

قيادة الأمة، فقائد سِلْم، وقائد جلاد وخصام، وقائد لكسح الألغام، ولكل قائد مزاياه، ولكل قائد مكانه وزمانه.

وإذا كانت كل أمة محتاجة إلى ربابين يقودون سفنها، فالشرق اليوم أحوج في ذلك من الغرب، لأن الشرق يسير الآن في خطوط ملاحية جديدة لم يسبق له السير فيها، هي خطوط تنتهي بالاستقلال، فلا بدّ لهؤلاء الربابين أن يتبينوا معالم الطرق جيدًا، ويحتاطوا للأنواء والعواصف احتياطًا كاملًا، ولأن الغرب مهما ادّعى من إنسانية ومبادئ عدالة ومساواة وديمقراطية لا يزال يضع الألغام في الخطوط الملاحية الجديدة للشرق، فلا بد من إعداد سفن من كاسحات الألغام، ولا بد من إعداد ربابين لاكتساحها. ولأن الرأي العام في الأمم الشرقية لا يزال ناشئًا، يعوزه النظام وسعة الاطلاع وحسن التقدير، حتى يميز بين الربان الماهر فيسلِّمه سفينته وبين الربان المهرج فلا يسلمه قيادته.

ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله.

* * *

عام العنز

قالت العنز للفيل يومًا: لِمَ يكون لك عام في التاريخ لا يزال يذكر على مدى الأيام، فيقال: «عام الفيل»، ولا يكون لي عام يسمى «عام العنز»؟

قال الفيل: إني أضخم منك جسمًا، وأعظم منك قوة، وأحدّ منك نابًا، وإني أستصغرك أن تكوني لي فريسة، وأستضعفك أن أساجلك الحديث.

قالت العنز: إن الضعيف قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ القوي بقوَّته.

وصممت العنز على ما قالت، فكانت لها ما أرادت، وأصبح لها في مصر عام، هو «عام العنز»، وكان ذلك سنة 1173هـ. أي: من نحو مائتي عام.

ذلك أنه كان في مسجد السيدة نفيسة شيخ للخدم اسمه الشيخ عبد اللطيف، وكان شيخًا ماهرًا ماكرًا. ضاقت به أسباب الرزق، ففكر في حيلة، وقلّبها على وجهها حتى استوت ونضجت، واتخذ بطل الرواية عنزًا.

قال: إن جماعة من المسلمين وقعوا في أسر النصارى، فاجتمع الأسرى وتوسلوا بالسيدة نفيسة، وأقاموا «حفلة ذكر» أعدوا لها عنزًا لتذبح وتؤكل، فاطلع على أمرهم النصراني المكلف بحراستهم، فمنعهم من حفلة الذكر، ومن ذبح العنز، فكان من بركة السيدة نفيسة ومن بركة العنز أن رأى النصراني رؤيا أزعجته، ففكّ أسرهم، وأطلق سراحهم، وأقسموا أن يحتفظوا بالعنز، وأن يحضروها إلى السيّدة نفيسة، ففعلوا وسلموها للشيخ عبد اللطيف.

وأكمل الشيخ روايته فقال: إن العنز تارة تقف بجانب ضريح السيدة، وتارة فوق المنارة، وقد سمعها الشيخ بأذنه تكلم السيدة نفيسة والسيدة توصي بها.

وأشاع الشيخ هذا الخبر في سائر الخدم، وأوصاهم بإذاعته، فانتشر في حي السيدة ومنه إلى أحياء القاهرة، ومنها إلى الريف، وصارت العنز حديث الكبار والصغار، والعامة والخاصة، وكل من مرض استشفع بالعنز، وكل من له حاجة نذر للعنز.

وأكمل الشيخ حيلته، فمرَّن العنز على ألا تأكل برسيمًا ولا فولًا كسائر الغنم، وإنما

تأكل فستقًا مقشورًا ولوزًا مقشورًا، ولا تشرب إلا ماء ورد مذابًا فيه سكر مكرر، والشيخ يجلس وفي حجره هذه العنز السعيدة المحظوظة، تأكل الفستق واللوز، وتشرب ماء الورد، والناس يتلهفون على لمسها وتقبيلها.

وتقاطرت على الشيخ قناطير الفستق واللوز والسكر المكرر وقناني ماء الورد، حتى شحّت هذه الأصناف من الأسواق.

ثم زادت كرامات العنز وعظمت، فكم شفت من مريض، وكم فرجت من كرب مكروب، وكم قضت من حوائج، حتى غطت كراماتها على كرامات السيدة.

واستقل الناس الفستق واللوز والسكر المكرر وماء الورد، فجدّ الصاغة في عمل قلائد الذهب وأطواق الذهب للعنز، حتى أصبحت «عنز هانم»، وكادت تكون، «صاحبة العصمة».

وتسابق الكبراء في الهدايا والنذور للعنز وتنافسوا، فإذا وهب الأمير فلان قنطارًا من الفستق وقلادة من الذهب، عز على الأمير فلان إلا أن يهب قنطارين وقلادتين، وصار للعنز من الحلي ما ليس للأميرة الجليلة.

وكان يوم الأحد من كل أسبوع -وهو يوم حضرة السيدة نفيسة- يومًا مشهودًا، يتدفق فيه الزائرون والزائرات، وتزدحم الشوارع، وتتدافع المناكب. ومرحى للسعيد الذي يرى العنز أو يلمسها، وأسعد منه من يقبّلها.

وليس حديث المجالس إلا ما يقصون من كرامات العنز، وما شاهدوه من عجائب، وما رأوه من منامات، وما شفت من أمراض، وما أغنت من فقير، وما أولدت من عقيم.

وافتتن الناس، وخشي بعض الحكام أن يذهب سلطانهم إلى العنز، فقد أصبحت هي التي تأمر وتنهى وتحكم، ولم تبق إلا خطوة قليلة حتى تضخم العنز فتكون «عجل أبيس».

* * *

وكان في مصر أمير من كبار الأمراء اسمه «عبد الرحمن كَتْخُدا» ثريّ سري، قوي جبار، لا يُرتشى، ويحب الخير، يصادر أموال الناس ويصرف منها في أعمال البر، جادّ لا يميل إلى الهزل، يغلق الخمارات ويبطل المنكرات، مغرم بالتعمير، له ذوق جميل في هندسة البناء وفن العمارة، أنشأ وجدد ثمانية عشر مسجدًا، وعددًا كبيرًا من الأسبلة والزوايا والمدارس والمكاتب والقناطر والجسور، وأنشأ جانبًا فخمًا في الأزهر، وبنى لنفسه فيه ضريحًا دفن به،

وهو الذي يسميه بعض العامة «سيدي الأزهر». تراه فترى رجلًا مهيبًا مربوع القامة، أبيض اللون، مسترسل اللحية، تغلب عليه علائم القوة والعزة والاعتداد بالنفس.

* * *

سمع الأمير عبد الرحمن بحكاية العنز، فهزئ بها وسخر من عقول الناس، وضحك من سخافتهم، وعدّها من المنكرات التي يبطلها كالخمارات.

فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يرجوه الحضور إليه بعنزه ليتبرك بها هو وأهل بيته، فطار الشيخ فرحًا، وقال: ليس بعد إيمان الأمير كفر، ولا بعد عطائه عطاء، وقد ضمنت بذلك الدنيا والجاه والثراء.

وحدد موعدًا لانتقال العنز، وأعدت العدد، وأحضرت الطبول والبيارق، وزينت الطرق، واصطف آلاف الناس على جانبي الطريق، وتحرّك موكب العنز من مسجد السيدة نفيسة إلى عابدين، حيث يسكن الأمير عبد الرحمن كتخدا. وركب الشيخ بغلته والعنز في حجره، والطبول تدق، والرايات تخفق، والناس تتصايح، والدنيا قائمة قاعدة، والعنز ضاحكة مستبشرة، تقول في سرها: أين يوم العنز من يوم الفيل! وبعد التي واللتيّا، والذي واللذيّا، وصل الموكب الشريف إلى بيت الأمير الكبير، ونزل الشيخ عن بغلته، وحمل عنزه ودخل بها على الأمير وحوله الأمراء، فتقبلها الأمير والأمراء قبولًا حسنًا، وتمسحوا بها يستنزلون البركة منها، ثم أرسلها الأمير إلى الحريم وجلس مع الشيخ يتحدث في البركات والكرامات حتى حضر وقت الغداء، فحضر الطعام، وأكل الأمراء وأكل الشيخ، ومن حين إلى حين يقدم الأمير للشيخ قطعة من اللحم ويسأله عن رأيه، فيقول إنه لحم طيب لذيذ، ثم شربوا القهوة، واستأذن الشيخ في الانصراف، وطلب أن يحضروا له عنزه.

قال الأمير: العنز! لقد أكلتها يا شيخ، واستطعمت لحمها، وفرغنا منها ومن بركاتها وكراماتها!

أيها الشيخ! ما أضلّك وأفجرك، وأقدرك على اللعب بعقول الناس، والله لأجعلنك نكالًا لمن بعدك، انتظر قليلًا.

ورُعب الشيخ، وشعر بضياع مجده، وذهاب كنزه، ذلك إن سلمت له نفسه.

وقضى وقتًا وهو يرتجف، ثم نزل من القصر جلد العنز المذبوحة، وأقسم الأمير ليعممن به الشيخ فوق عمته، ويعود على هذه الحال في الموكب الذي حضر به.

وكنت ترى في العصر الطبول تدق والرايات تخفق، والموكب يسير من عابدين إلى السيدة نفيسة، والشيخ على بغلته معممًا بجلد عنز، وكل شيء كما كان في حفلة الصباح إلا العنز. والناس تقابل هذا الموكب بالرضا والتسليم، كما استقبلته صباحًا بالهتاف والتهليل.

* * *

مثل رائع

كان مسْلمة بن الخليفة عبد الملك بن مروان سيد بني أمية، نبلًا وكرمًا وشجاعة وعلوّ نفس وأصالة رأي. لما اشتدت العلة بعبد الملك، دعا بنيه وقال: «أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية وجُنة واقية، وقِّروا كبيركم، وارحموا صغيركم، وابذلوا للناس معروفكم، وجنِّبوهم أذاكم، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك، فإنه سنّكم الذي به تتزينون، ونابكم الذي عنه تفترون، وسيفكم الذي به تصولون، فاقبلوا قوله، واصدروا عن رأيه؛ وأسندوا جسم أمركم إليه، أكرموا الحجاج بن يوسف، فانه وطّأ لكم المنابر، ودوّخ لكم البلاد».

وتسألني: ومسلمة على هذه الحال، لماذا لم يعهد عبد الملك إليه بالخلافة كما عهد لبنيه؟

فأقول: كانت تقاليد بني أمية الإمعان في العصبية للعرب، واستهجان من عداهم، والاعتزاز بالدم العربي إلى أقصى حدود الاعتزاز، والاستخفاف بغيرهم مهما بلغوا من المجد، ولهم في ذلك أخبار غريبة، ونوادر عجيبة، ولم تكن أم مسلمة عربية، بل كانت رومية.

والعرب في عهد بني أمية يرون ألا يصلح للخلافة إلا العربي القحّ، فهذا ما نحّى مسلمة عن الخلافة رغم كل مميزاته.

ومع أن عبد الملك نفسه لم يؤمن بهذه النظرية، ويرى أن قد يكون في أبناء الإماء نجابة وفضل ونبل - وخاصة إذا كرم أصلهن، وعلا حسبهن - فإنه لم يستطع الخروج على هذه التقاليد.

أقيمت يومًا حفلة سباق وفروسية حضرها عبد الملك، فكان السابق فيها مسلمة. فنظر عبد الملك إلى مَصقلَة بن رقبة العَبْدي وقال: إن صاحبكم لقليل المعرفة بأولاد أمهات الأولاد حين يقول [من الطويل]:

نَهَيْتُكُم أن تَحْمِلوا هُجَناءَكم[1]
علي خَيْلِكُم يوم الرِّهان فتُدْركوا

وما يَسْتَوي المَرْآن هذا ابنُ حُرَّةٍ
وهذا ابن أخرى بطنها مُتَشَرِّك

تُرَعَّدُ كفاه ويسقط سوطه
وتَفْتُر فخذاه فلا يَتَحَرَّكُ

وتُدْرِكه أعراقُ سوءٍ ذَميمةٌ
ألا إنَّ عِرْق السُّوءِ لا بُدَّ مُدْرِكُ

ولكن العرف والتقاليد والرأي العام غلبت على عبد الملك، فخضع لها، وأبعد مسلمة، وجعل الخلافة في سليمان ويزيد والوليد وهشام أبنائه من الحرائر.

فتوجه مسلمة إلى المجد لا عن طريق الخلافة، فكان القائد الكبير، والفاتح العظيم، وطالما اشتاق إلى فتح القسطنطينية، وقد تقدم في الفتوح إلى أن وصل إلى أسوارها.

* * *

لم نسق هذا الحديث في فضائل مسلمة، وإنما سقناه لجندي مجهول في جيش مسلمة، تمنى مسلمة أن يكونه؛ لم يعرف له اسم، ولا حسب، ولا نسب، ولم يشأ هو أن يُعرف له شيء من ذلك.

هؤلاء هم المسلمون يحاصرون حصنًا منيعًا بذلوا الجهد في الاستيلاء عليه فلم يوفقوا، وأخيرًا نقبوا فية نقبًا لينفذوا منه إلى داخله، ولكن الروم أدركوا خطورة عملهم، فوجهوا إلى النقب قوّتهم، فكلما أراد أحد من المسلمين أن ينفذ منه قُتِل. وأخيرًا استطاع جندي أن يأتي بالأعاجيب، فنفذ ومهد السبيل لغيره أن ينفذوا، ثم استولوا على الحصن، وفرح المسلمون بنصر الله والفتح، وعرف مسلمة فضل ذلك الجندي الباسل، فأراد أن يكرمه. فجمع الناس، وأمر مناديًا ينادي: أين صاحب النقب؟ والتفت الناس، واشرأبت الأعناق لرؤية هذا الذي يتقدم مزهوًا بنفسه معجبًا بشجاعته معتزًا بفعاله. ولكن مرت فترة سكون رهيبة ولم يتقدم أحد.

(1) الهجين: من كان ابن أمة من عربي.

أمر مسلمة أن ينادي المنادي مرة ثانية، فلعله لم يسمع، فكانت المناداة الثانية والثالثة كالأولى، لم يلبِّها أحد.

وفي المرة الرابعة تقدم رجل ملثم لا يبين وجهه، وقال: أنا أيها الأمير «صاحب النقب»، «ولكن آخذ عليكم عهودًا ومواثيق ثلاثة: ألا تسوِّدا اسمي في صحيفة[1]، ولا تأمروا لي بشيء، ولا تسألوني من أنا».

قال مسلمة: قد فعلنا لك ذلك.

ثم اندس في غمار الجند لم يعرفه أحد.

قال الراوي: فكان مسلمة يدعو بعد صلاته: «اللهم اجعلني مع صاحب النقب».

* * *

لو حلَّلنا نفسية هذا الرجل العظيم، والباعث له على سلوكه، لكان أحد أمرين: إما أنه أراد أن يحتسب عمله لربه من غير أن يضعف قيمته بمكافأة أو شهرة أو جاه، عملًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[التوبة: 111] . وإما أن تكون قد سمت عنده فكرة الخير، وملكت عليه نفسه، فهو يعمل الواجب للواجب من غير أن يدنسه بنظرة إلى ثواب ما، وكلا الباعثين عظيم تضعف بجانبهما كل البواعث الأخرى، حتى باعث «مسلمة» من فخر ومجد وحسن أحدوثة، ولذلك أدرك مسلمة سمو هذا الرجل عنه، فكان يدعو الله أن يجعله مع «صاحب النقب».

إن هذا الجندي المجهول شعر أن باعثه النبيل أرقى من أن يناله التاريخ فيدوِّنه، وأرفع من أن يقوِّمه الإنسان فيجازى عليه. لئن دوّنه التاريخ فيجب أن يدوّنه معنى في السماء لم يتصل بشخص في الأرض، ولئن أراد الناس أن يقوموه فيجب أن يقوموه في نفوسهم ليُحتذَى، لا لمكافأة صاحبه ليستصغر.

ليت شباننا وشيوخنا يعون هذا الدرس، فقد أصبحت التضحية مهزلة، فكل من صرخ صرخة فهو كبير المجاهدين، وإن شيك شوكة فهو سيد المضحّين، لا يرضيه إلا أن يطبل له ويزمّر له، ويهتف باسمه كلما تحرك، ويسبح بحمده كلما ذُكر، ويكتب اسمه كل يوم في

(1) يريد ألا تكتبوا اسمي في دفتر العطاء، أو التشريف أو نحو ذلك.

الصحف بحروف بارزة، إلى آخر هذا الهراء، يريدون غنمًا كثيرًا من غير غرم، وشهرة طويلة عريضة من غير عمل.

ووالله لو أطلَّت علينا روح هذا الجندي المجهول، ورأت هذه المظاهر الكاذبة، لأسرعت في التواري مما ترى خجلًا.

* * *

قصة من حياتي

هأنذا في الرابعة والعشرين من عمري، وقد تخرجت في مدرسة القضاء الشرعي ولم أتعلم لغة أجنبية. وكل ما حولي يستحثني على تعلمها، فأساتذتي في المدرسة كانوا يرجعون فيما يعلموننا من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وجبر وهندسة إلى الكتب الإنجليزية، وأصدقائي المتخرجون من مدرسة المعلمين يتحدثون عما طالعوه في الكتب والمجلات والقصص الإنجليزية، من آراء لطيفة، وأفكار طريفة؛ وكلما سمعت شيئًا من ذلك أدركت أن لا قيمة لحياتي ما لم أتعلم لغة أجنبية. وأخيرًا اتفقت مع أستاذي وصديقي المرحوم أحمد أمين بك المستشار أن نطالع خطط علي مبارك باشا فيما يتعلق بمساجد القاهرة وآثارها، ثم نزور المساجد والآثار لنطبّق ما نشاهد على ما نقرأ. وكان رحمه الله يدل علي بما يقرأ من كتب إنجليزية في هذا الموضوع تزيد معلوماتها على ما في خطط علي مبارك، فيومًا من الأيام دلّني على أثر فخم من الآثار هو بيت شاهبندر التجار في «حوش قدم» بالقاهرة ولم يكن ذكره علي مبارك باشا. فآليت أن أتعلم الإنجليزية بعد عودتنا من زياة هذا البيت، مهما يصادفني من صعوبة. وطلبت من صديق أن نمر معًا على مدرسة «برليتز» تتفق على دروس تعطى لي، واستمررت على ذلك سنتين لقيت فيهما من العناء ما لا يوصف، فتعلم اللغة في الكبر وفي غير بيئة اللغة أمر عسير. ثم رأيت بعد السنتين أن مدرسة برليتز لم تعد تفيدني فبحثت عن مدرّس آخر.

كان من حسن حظي أن دلّني صديق لي على «مس بور» Power سيدة إنجليزية في نحو الخمسين من عمرها تجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وتجيد فن الرسم والتصوير، ولها شخصية قوية جبارة، ومثقفة ثقافة واسعة، وتحرر في الجرائد الإنجليزية الكبرى كالتيمس، وتستأجر بيتًا لطيفًا في ميدان الأزهار، ولم تكن تحترف التعليم، ولكني رجوتها أن تعلمني فقبلت. واستمررت أتعلم عليها نحو خمس سنوات. وكانت رغبتها في تعليمي رغبة أُم تريد أن تربّي ابنها. فكانت تدعو إلى بيتها إنجليزيين وإنجليزيات تعرّفني بهم، وتقصد إلى أن أتحدث معهم ويتحدثوا معي لينطلق لساني، وتتمرن آذاني، وكانت تنقد أخلاقي وتطلعني على عيوبي، فإذا حضرت للدرس -مثلًا- وبدأت أفتح الكتاب لأقرأ صرخت في وجهي: «ألم ترَ

هذه الأزهار اليانعة، وألوانها البديعة، وتنسيقها الجميل -وقد أحضرتها اليوم- ألم تلفت نظرك؟ أيصح أن تراها ولا تبدي إعجابك بها؟ أليست لك عين فنيّة؟» إلخ فيكون هذا درسًا من أمتع الدروس وأنفعها، وأحيانًا كانت تغير وضع نظام حجرة الجلوس، فتنقل الكراسي من مكان إلى مكان، وتخالف بين الأثاث، فإذا دخلت ولم أتكلم في هذا التغيير، وأوازن بين الوضع الجديد والوضع القديم، تلقيت منها درسًا قاسيًا أتعلم منه دقة الملاحظة، وتربية الذوق. وأحيانًا تقف بي ساعة بين لوحات من رسمها علقتها في حوائط الحجرة، تشرح لي دلالاتها ونواحيها الفنية وهكذا. وبذلك ألقت عليّ دروسًا قيّمة، لم أتعلمها من بيتي ولا مدارسي ولا أساتذتي... فإن كنت الآن أعجب بالأزهار وجمالها، وأهتم بحديقتي وتنسيقها، وما إلى ذلك، فبتربيتها وفضلها.

كنت في آخر سنة من دراستي معها أقرأ عليها جمهورية أفلاطون بالإنجليزية، فإذا فرغت من قراءة فصل أفاضت في شرح نظرية أفلاطون وما طرأ عليها من تغير في المدنية الحديثة، وكيف طبقت في بعض الأمم ونتائج تطبيقها، وهكذا. وساعدها على ذلك رحلاتها الطويلة إلى ألمانيا وفرنسا وأمريكا ووقوفها على النظم الاجتماعية فيها.

* * *

ما أدري ما الذي جنح بها في أيامها الأخيرة إلى أن تشتغل بالروحانيات، فتقرأ الكتب الكثيرة المتنوعة فيها، وتجرب تأثير نفسها في نفوس الآخرين والإيحاء إليهم بما تريده منهم، سواء أكانوا في حضرتها أم غائبين عنها، ثم تتجه إلى معالجة بعض الأمراض بطريق الإيحاء، وكان هذا يقتضيها أن تمكث ساعتين أو أكثر كل يوم في قاعة مظلمة، تركز فيها ذهنها فيما تريده من علاج أو إيحاء أفكار، فكلَّ من أجل ذلك عقلها، فإذا هي سيدة مجنونة، تحاول أن ترمي نفسها في النيل من كوبري قصر النيل. فلما علمت ذلك، نقلتها إلى مستشفى المجاذيب.

وأعجب ما شاهدت أني زرتها في المستشفى، فكانت تتكلم كما عهدتها بالعقل في حكمة ورزانة. وسألتها عن نوع مرضها، فشخصته تشخيصًا دقيقًا، إذ قالت: إن مرضها أصاب إرادتها... فلو فتحت لها أبواب المستشفى لعسر عليها معرفة أين تتجه، وإلى أين تذهب. وتمر الأيام وترسلها القنصلية الإنجليزية إلى إنجلترا، ثم يأتيني منها خطاب بأنها شفيت تمام الشفاء، وأنها الآن في إيطاليا تستمتع برؤية الآثار الفنية في روما وتدرسها. ثم تنقطع عني أخبارها ولا أدري ماذا كان مصيرها.

شباب الزمان... الربيع

ما قيمة الحياة إذا اقتصرت على الماديات، وحصرت نفسها في الخبز والملح ومضاعفاتها، ولم تعبأ بجمال زهرة ولا تألق نجم، ولم ينبض قلبها بحب للجمال في جميع أشكاله؟

بل ما قيمة الحياة أيضًا إذا غرقت في النظريات العلمية العقلية، وفكرت في قوانين الأشياء وشرحها، واهتمت بمعرفة الطبيعة أكثر مما تهتم بجمالها؟

إن الحياة الحقة هي ما تجاوبت مع العناصر المكونة للإنسان، وللإنسان جسم يحتاج إلى مادة تغذية وفيه عقل يحتاج إلى تفكير منطقي في حقائق الأشياء وفيه فوق ذلك كله عاطفة تحتاج إلى جمال يغذيها وينميها ويرقيها. ولئن كانت الحياة المادية والحياة العقلية جافة باردة، فالحياة العاطفية ناعمة دافئة تبعث السرور والبهجة، والغبطة والسعادة.

فالعاطفة هي ملح الحياة، بها يدرك الإنسان من هذا العالم اللجب المضطرب، الشقي التعس، ما في باطنه من وفاق وتناسب كتناسب نغم الموسيقى، والعاطفة إذا هذبت نعمت بالجمال، أوجدت وخلقت من الشقاء سعادة ومن النار جنة.

والإنسان من يوم أن خلق مدَّ خيوطًا بين الطبيعة وقلبه، فشعر شعورًا ساذجًا بجمال السماء والأرض، وجمال الطيور والأزهار، وشروق الشمس وغروبها، ولكن كان يحول بينه وبين الاستمتاع بها حاجته الملحة إلى القوت ومشقة الحصول عليه... حتى إذا توافر له، رقيت عواطفه، فأحس أن القوت ليس كل شيء، ولا العلم كل شيء، وإنما العاطفة والجمال ورقة الشعور، والإستمتاع بجمال الطبيعة وجمال العالم، هي قوام الحياة.

* * *

كم في الكون من جمال، ولكنه يحتاج إلى عين تنظره، وكثير من الناس لهم عيون، ولكن لا يبصرون بها إلا ما يأكلون وما يشربون وما يدخرون، وقليل هم الذين دقَّ نظرهم، فرأوا جمال العالم المتجدد في الحقول والزهور، والسماء والنجوم، والبحار والأنهار

والجبال والأحجار. وقل أن يكون شيء في الوجود لا جمال فيه وإنما يحتاج إلى عين تبصره وذوق يدركه وقلب يلقنه، ورحم الله ابن المعتز إذ يصف قلبه فيقول [من السريع]:

قلبيَ وثّاب إلى ذا وذا ليسَ يرى شيئًا فيأباهُ

يهيمُ بالحُسْنِ كما ينبغي ويرحمُ القبحَ فَيَهْواهُ[1]

وما أشقى من لم يَرَ في البستان إلا زهرة تشم أو ثمرة تؤكل، ولا يرى في البحر إلا ماءً ملحًا وسمكًا يتغذى به، ولا يرى في الحمام واليمام والعصافير إلا أنها تصاد وتشوى. إن هؤلاء وأمثالهم عميُ العيون صمُّ الآذان غلفُ القلوب، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ [الغاشية: 17-20].

إن أردت الحق فعمر الإنسان لا يحسب بالسنين التي عاشها، ولا بالملذات المادية التي استمتع بها، إنما تقدر الحياة بما نبض به قلبه من مناظر أشجار يانعة، أو أطيار صادحة، أو نجوم متألقة، أو زهور ضاحكة، وعلى الجملة بما تجاوبت به نفسه مع منظر جميل أو معنى جميل. وأما ما عدا هذا فقشور الحياة لا لبها؛ وإن ساعة واحدة يقضيها المرء بين الأزهار والأشجار أو على شاطئ البحار والأنهار، يناغي فيها الطبيعة الجميلة ويقترب فيها من عمق الحياة وسرها، ويخفق فيها قلبه لما تحويه من معنى الأبدية والأزلية، خير من ألف ساعة يقضيها في كفاح من أجل المال بل ومن أجل العلم، ولقد كان على شيء من الحق ذلك الرجل الشاعر القلب المرهف الحسّ الذي أخذته روعة غروب الشمس فهتف قائلًا: «دعوا لي هذا المنظر وخذوا جميع كتبي».

في كل جانب من جوانب الطبيعة جمال، ولكل جمال ذوقه وطعمه، كالفاكهة تختلف أشكالها وطعومها ولك فاكهة جمالها، فهذه القبة الزرقاء ببهائها وسنائها ولألاء نجومها تبعث في الإنسان الشعور بألم لذيذ أو لذة أليمة، وسبب اللذة جمالها... وكل جمال يبعث اللذة والسرور، وسبب الألم جلالها... وكل جلال يبعث في النفس الشعور بالضعة والمهانة وحقارة الإنسان أمام هذا الجلال. وهو شعور أليم. وهذه الشمس الجميلة القوية مصدر نورنا ونارنا، تفعل أفاعليها العجيبة الجميلة في أرضنا حتى كأنها «فيلم» سينمائي غريب. تبخر الماء وترفعه غيومها في السماء وتنزله أمطارًا تجري به بحارًا وأنهارًا، ويسقى به الزرع فينمو ويهيج، والأزهار فتنضج وتتفتح، ثم هي بحرارتها تلعب بالرياح، والرياح تلعب بالأمواج،

---

(1) ديوانه 1/ 220.

والأمواج تلعب بالسفن، والسفن تلعب بالراكبين، وهكذا من مناظر جميلة لا يحصيها العد، وهذا القمر الوديع اللطيف يبدو هلالاً نحيلاً وينمو نموًا متتابعًا بديعًا.

ثم يعود كما بدا، فيتلوَّن في ذلك بلون من أضناه الحب فنحف وهزل، ثم بلون الحبيب المتلئ حسنًا ونضارة، ويعرض علينا صورة الطفل بدا صغيرًا هزيلًا، ثم صار في أحسن تقويم، ثم ردَّ أسفل سافلين ثم هو يلعب بالماء في مده وجزره، وتلوينه وتفضيضه؛ فإذا نحن رددنا الطرف من قبة السماء إلى سطح الأرض وجدنا صنوفًا من الجمال لا تنتهي. هذا الماء البديع ينساب في الجدول ويتدفق في النهر ويتموج في البحر، ويكون فضيًّا في وسط النهار وذهبيًّا في الأصيل، وله صوت في سريانه وتدفقه وتموجه أجمل من صوت الناي، وإذا مسّ أرضًا ملأها بالحياة من شتّى الأنواع؛ وهو على وقته يفتت الصخور، ويذيب الجبال، وله في كل نهر وبحر وبحيرة تاريخ طويل مما له من أفاعيل.

وهذه الجبال -معممة بالثلوج أو مكسوة بالأشجار أو صخرية جرداء- تفتن النظر بجمالها وعظمتها وتعاريجها وارتفاعها. في أعاليها يتعانق السحاب، وفي هيكلها تتلون الصخور، بين دكناء وحمراء وصفراء، وفي باطنها المناجم تعجُّ بالخير، وفي أسفلها الوديان تموج بالحياة، تشمخ بقمعها كأنها تريد أن تنطح السماء، وبجمال أديمها كأنه ألوان الحرباء، وبصفاء جوها ونقاء هوائها وبعدها عن التلوث بصغائر الإنسان.

وحتى الصحراء الجرداء لها معان من الجمال فاتنة. فهي واسعة لا يبلغ الطرف مداها، تقرأ العين فيها معنى الأبدية واللانهائية والخلود، وينعم العقل فيها بمعنى الاستقرار والثبات، بينما ينعم في منظر البحر بمعنى الحركة والتقلب والنشاط، وكلاهما معنى لا يفهم إلا بأخيه ولا يحمل إلا بقرينه.

* * *

أكتب في مستهل الربيع والعالم يموج بالجمال، فلئن كان للزمان عمر فللربيع شبابه، ولئن كان الجمال في غيره يرتشف فهو في الربيع يعمل وينهل، قد دبت الحياة في الأرض، فأفاقت الأشجار من نومها، واكتست الأرض بثيابها الخضر من عريها، وتفتحت الأزهار وغنيت بالألوان، وتمايلت الورود على الأغصان، وغردت الأطيار... فإذًا كل شيء جميل لا ينقصه إلا طرف يدرك جماله وقلب ينبض بحبه ولسان يهتف: سبحان خالقه.

* * *

برنارد شو

إرلندي دخل إنجلترا طالبًا للقوت، ثم تبين أنه دخلها غازيًا فاتحًا، وما زال يجاهد ويحارب حتى توج ملكًا على الرأي العام.

وناشئ في بيت منحل، فقد كان أبوه على حدّ تعبيره «رجل أعمال نظريًا، وسكّيرًا عمليًا». وتلميذ خائب في مدرسته، يهزأ بالدراسة وبثرثرة المعلمين، وجمود أساليبهم وسخافة تعاليمهم، فكان له من بيته المنحل، ودراسته الفاشلة غذاء صالح وذخيرة كبيرة لنقد الحياة الاجتماعية والدعوة لإصلاحها.

منح ذكاء حادًا كالبلور في صفائه وقسوته، فبدا شهابًا لامعًا يعجب ولا ينفع، ثم نما وكبر حتى صار شمسًا تدفئ وتنفع.

من أعجب ما فيه رحمته وقسوته معًا، وامتزاجهما فيه مزجًا غريبًا، فهو يرحم الحيوان كأبي العلاء المعرّي، فيعفُّ عن أكله، ويعيش على النبات، بل يتمنى أن لو وسعت رحمته النبات أيضًا، فلا يحرم الشجر ثمارها، ولا الثمرة بذورها، ولا النباتات جذورها. وهو مع ذلك يقسو على الناس في نقدهم ولذعهم، وإقلاق راحتهم، وتحطيم أوثانهم. ولكن لعل قسوته عليهم من رحمته بهم، فهو يرحمهم من سخفهم فينقدهم، ومن خمودهم فيلذعهم، ومن نومهم فيوقظهم، ومن جمودهم الذهني فينشطهم. ولذلك كان من طبيعته أن يهاجم فكرة الناس ولا يهاجم الناس، ويقاتل الرأي الفاسد ولا يقاتل أصحابه، ويحمل حملة شعواء على فكرة الحرب ولا يثور على المحاربين، ويحمل حملة شعواء على الأدب السخيف ولا يتعرض للأدباء.

سما فوق العادات والتقاليد، فلم تقيده عادات الطفولة إذ لم يكن سعيدًا، ولا عادات المدرسة والجامعة إذ كانت فاشلة، ولا عادات المجتمع إذ لم يجد فيها ما يحترمه ويوقّره. فتحرر من أغلال الأوضاع والتقاليد، ونظر إليها من طيارة فوجدها رممًا بالية، وأشياء مستقذرة، وأغلالًا للعقول، وقيودًا للفكير، وأصنامًا تعبد من دون الله. فنزل عليها بمعوله

يحطمها في قسوة، ويحرقها في جرأة، ويصوغ عباراته في نقدها صوغًا أنيقًا متقنًا بارعًا، فتجري في الناس مجرى المثل، ويضحكون منها وهم إنما يضحكون من أنفسهم. وينفذ بصره الفاحص إلى حقائق الأمور ولا يلهيه زخرفها الظاهر، ولا طلاؤها الخادع، فإذا وقف على الحقيقة المؤلمة أعلنها على الناس في صراحة وجرأة. يقارن بين المدنيين على آخر طراز وبين المتوحشين من سكان الكهوف، ويعقد الشبه بينهما في شكل يدعو إلى العجب والإعجاب. ويسخر من الأميركيين إذ يضطرون الزنوج إلى مسح أحذيتهم، ثم يدللون على انحطاطهم بأنهم مساحوا أحذية. ويرى الأدباء قد غلوا في الإعجاب بشكسبير واتخذوه صنمًا يعبد، وجعلوا أدبه المثل الأعلى، وقاسوا أدبهم بأدبه فما انطبق عليه كان عالي القيمة، وما بعُد عنه ضعفت قيمته، فهاج على شكسبير وكسر صنمه، وأنزل من قيمته وقال عبارته المشهورة: «إن يكن شكسبير أطول مني فإني أقف على كتفه». وأتخذ هجومه عليه من ناحية أن شكسبير في أدبيه سوداوي متشائم، يرى الحياة باطلًا من الأباطيل، والأدب في نظر «شو» هو ما بعث الحياة، وبعث الأمل فيها، وبعث على الاستمتاع بها، والاستزادة منها.

ومن أجل ذلك اتجه في أدبه ونقده إلى تقويم ماله قيمة حقيقية، لا شكل براق، فهو يزدري الخفيف من الروايات والقذر من النكات، ولا يقوم من الروايات إلا ما كانت ذات وزن، ولا من النكات إلا ما كانت عميقة ذات ذكاء.

* * *

حدد برنامجه أن يكون ثائرًا على المجتمع وأخطائه ثورة بطيئة دائمة محققة، وأن يكون مجددًا في أفكاره، مجددًا في أسلوبه وفي رواياته وفي حواره واستدلاله، فناصر المرأة وطلب مساواتها بالرجل، ولم يسلك في براهينه سبيل من قبله من رفع شأن النساء حتى يتساوين بالرجل، بل رثي لحالة الرجال وطلب أن يتساووا بالنساء. وفي كل رواية من روايات «شو» الأولى حوار بين الرجل والمرأة تغلب فيه المرأة على أمرها لتعترف بأنها حقًّا على مساواة مع الرجل.

وناصر حركة الكتابة الصوتية، أي: كتابة ما ينطق بها من الحروف وحذف ما لا ينطق، فلا معنى لكتابة حروف لا ينطق بها ولا النطق بحروف لا تكتب.

ولم يعجبه غرور العلماء في عصره وادعاؤهم علمهم بكل شيء، فأبان عجزهم وضعفهم، وأن ما جهلوا أكثر مما علموا، وأن بعض ما قالوه يعوزه الدليل الصحيح؛ ومما

قاله في ذلك: «إذا قال لي الفلكيون إن ثمة نجمًا بعيدًا عنا يرسل ضوءه فيستغرق وصوله إلينا آلاف السنين، فقولهم هذا كذبة بلقاء يعوزها التمويه الفني»، ويقول عن هكسلي: «إنه عرّاف كبير»، ومع ذلك فشو مشغوف بالعلم، مطلع عليه اطلاعًا واسعًا، يستمد أدبه من سعة علمه.

* * *

لقد بهر «شو» الناس بأشياء كثيرة: ذكاؤه النافذ الذي يصل إلى أعماق ما في الأشياء ثم يخرجها بعد ذلك في شكل واضح بسيط جذاب، فهو جيد الإنتاج جيد الإخراج، قد يصل إلى فكرة لو عبر عنها الفيلسوف لخرجت منه غامضة مبهمة معقدة قد أعرقتها الاصطلاحات المألوفة، فيخرجها «شو» في جملة واضحة رائعة فتفهم وتضحك. ثم إلى ذلك قدرته الفائقة على النكتة. ونكتة «شو» قد يحسده عليها «فولتير» نفسه أو كما نقول نحن يحسده عليها «جحا»، فهي ذات جذور فكرية عميقة. وإذا عرض لموضوع ليتنادر عليه استقصى كل نواحيه حتى كان كما قالوا: «إذا تنادر على خياط استندر النوادر عليه إلى آخر نادرة عن الأزرار». وأحيانًا يسرف فينزل ويأتي بما ينبو عنه السمع، فيكون له من ذلك كثير من الأعداء، ثم صوته الجذاب الذي يستطيع به أن يقول ما يسيء -بنغمة عذبة- فتقبل منه، ووقفته الخطابية البديعة التي يقفها من غير اكتراث، ويلقي برأسه إلى الخلف في خفة، ويترنح أحيانًا هازًّا كتفيه وهو يحمل وجهًا ذا حاجبين كثيفين ولحية حمراء مدببة علاها الشيب.

إن «شو» في هيكله الذي وصفناه وفي نقده اللاذع، وفي رواياته الجديدة التي خرجت على الناس بشكل جديد وتأثرت بقوته في الحديث والحوار والميل إلى الجد والاستخفاف بالتوافه، و«شو» في فلسفته التي تدعو إلى الحياة وتقويتها والإصغاء إلى العقل لا العادة والعرف، والإصلاح في غير خداع ولا مواربة... كل هذا جعله قبلة الأنظار، وزعيم الأدباء، والمثل الذي يحتذى.

* * *

وقد أثّر في الشعب الإنجليزي أثرًا كبيرًا من نواح كثيرة، فقد استنزل الفلسفة والاقتصاد والمعاني السامية من السماء إلى الأرض، وجعل الشعب يفهمها وجعل العلماء والفلاسفة يقلدونه في وضوحه، ويحذون حذوه في محاربة الغموض.

وهو إلى ذلك يركز المسائل العامة الفلسفية والعلمية في «برشامة» كما يركز السحاب المنتشر في قطرات المطر، فكان في أسلوبه هذا مثلًا للعلماء يحتذى.

وأكثر من هذا أنه حمل حملة شعواء على ما كان سائدًا في عصره من موجة التشاؤم فأبادها، وأحلّ محلها موجة التفاؤل وحب الحياة والعمل للحياة.

وإن كان يؤخذ عليه شيء فإشاعته بين الناس التدجيل في الكلام، ممن وهبوا ثرثرته ولم يوهبوا حسن ذوقه وخفة روحه، ثم ما قلده الناس فيه من الاستهزاء بالعادات المألوفة مهما حسنت وبالقديم مهما جل، ولكن أي الرجال الكامل؟

ليت شعري لو كان «شو» في الشرق، ماذا كان يكون مصيره؟

فأول كل شيء من المحال أن يكون «شو» شرقيًا، فشجر الأرز لا ينبت في خط الاستواء، والثلج يذوب في الحرارة. فإذا أمعنا في الخيال وتصورناه شرقيًا فأكبر الظن أنه لم يكن شجرة مثمرة، بل ولا شجرة ناضرة.

لقد كانت تتعاون عليه القوى كلها لتخنقه في مهده، أو تكمم فمه فلا يستطيع قولًا.

إنه في بلاده هاجم كل طائفة بلسان مقذع، فأفسحوا صدورهم له، وقابلوا نقده بروح رياضية، وضحكوا منه، فشجعوه بذلك على الاستمرار والاسترسال حتى بلغ القمة.

هاجم العادات وقال: «إن عيد الميلاد لعبة اخترعها الخمارون ليبيعوا خمورهم»، وهاجم الطبقات، وخاصة طبقة الأغنياء في اشتراكية، وهاجم رجال الدين في أساليبهم، وهاجم رجال العلم في غرورهم، وهاجم الأدباء في اهتمامهم بسفاسف الأمور وعبادتهم للأصنام، وأخيرًا منع الرقيب إحدى رواياته لخروجها عن اللياقة والحشمة فاتخذ الرقباء موضع سخريته وقال: «إن الرقيب داعر، أما «شو» فإنه طاهر عفيف، وإن الرقيب بمنعه هذه الرواية قد جنى على الأخلاق، وإنه إنما يسمح بما يسمح به من الروايات لرذيلتها لا لفضيلتها، وإن جريمة «شو» في هذه الرواية ليست في أنه عرَّض في روايته لبنت من بنات الهوى، ولكن جريمته أنه لم يجعلها كلها هوى».

وهكذا وهكذا، فلم يسلم من لسانه شيء. ومع هذا قوبل بالإعظام والإكبار حتى من خصومه.

لو كان عندنا لتكاتفت كل الطوائف على خنقه من أغنياء لا يطيقون كل ما في اشتراكيته، ومن أدباء خطرات النسيم تجرح مشاعرهم، ومن محافظين يضيقون ذرعًا بأي خروج عن العادات والتقاليد، ومن رجال سياسة ورجال إدارة لا ينظرون إلى الأمور إلا نظرًا حزبيًّا، وهو أكره ما يكرهه «شو».

وعلى الجملة فلو كان «شو» في الشرق لانتحر، أو انفجر، أو لبس جلدًا غير جلده.

* * *

لماذا تغضب المرأة؟

لئن كان آدم على ظهر الأرض لغزًا من الألغاز يصعب حلّه، فإن حواء لغز أكثر تعقيدًا وأصعب حلًا، وكل السنين التي مرّت عليها لم تزدها إلا غموضًا وتعقدًا، ومهما تقدم علم النفس وادعى أنه وضع يده على سر النفس الإنسانية، عاد فأقر بالعجز عن فهمها، وبخاصة نفس حواء.

ولنحاول في هذا المقال أن نكشف عن ظاهرة من ظواهرها تميزها عن آدم.

ففي نظري أن المرأة ساخطة ما لم تُسترضَ، والرجل راضٍ ما لم يُستسخط.

ولعل هذه الظاهرة تفسر لنا كثيرًا من سلوك المرأة في الحياة؛ فهي ملول، وهي ضجرة، وهي متبرمة، وهي كثيرة السخط على صديقها، وعلى أسرتها، وعلى زوجها، وعلى الدنيا بأجمعها، تريد في كل حين أن يبذل من يتصل بها الجهد في إرضائها بشتّى الأشكال والألوان.

سل العاشق: كيف عانى من حبيبته وهجرها وسأمها ودلالها، وكم بذل من جهود في سبيل إرضائها، وكم لاقى من عذاب صدّ وهجران، وملال ودلال؟

وسل رب الأسرة: كيف يجد زوجته كالبحر، يهدأ حينًا ويهيج أحيانًا، وكيف يتركها في البيت راضية ويعود، فإذا هي ساخطة، لأتفه الأسباب أو من غير إبداء أسباب، وكيف تسخط عليه، وتسخط على الخدم، وتسخط على أبنائها وبناتها، وكيف تبحث عن أسباب السخط في كل زمان زكان، حتى إذا وجد ألف سبب يدعو إلى الرضا وسبب واحد يدعو إلى السخط غلبت السبب الواحد وسخطت كل السخط. والرجل -في الأعم الأغلب- على العكس من ذلك يرضى ويسترضي، ويحلم ويستحلم، ولا يغضب إلا إذا استغضب.

* * *

واستعرض ما يتصل بالمرأة من الآداب والفنون، فماذا ترى؟ ترى الغزل في الأدب مملوءًا باستعطاف الرجل للمرأة، وشكواه الدائمة من صدها ومللها، وبكائه من هجرانها

ووصفه لقسوتها، فإن هو نعم برضاها فلحظات في جحيم سنوات.

وترى الأغاني والموسيقى ملئت بالنغمات الحزينة مما أصيب به الرجال من النساء، من لوعة وضنى وعذاب وشقاء، فإن رأيت من النساء من تشكو سأم الرجل وملله فالقليل النادر.

ويتجلى هذا الخلق في المرأة في مظاهر كثيرة، فهي أكثر من الرجل في طلب التسلية، من سينما وتمثيل وحفلات وما إلى ذلك؛ فإن وجدت فيها كثيرًا من الرجال فبإيعازها وإلحاحها وتشجيعها، فهي تحب أن تقتل سأمها بهذه الأشياء كلها، ثم هي تكره الوحدة أكثر من الرجل؛ وتكثر من الزيارات والمقابلات؛ لأنها تشعر أن الوحدة مع السأم والملل سمٌّ قاتل.

* * *

ومن مظاهر هذا الخلق رغبتها المستمرة في تغيير الزي وابتكار البدع «المودة»، ففي كلِّ سنة بدع جديدة في الألوان والأشكال، وفي شكل الشعر، والقبعات، والأحذية ونحوها، على حين أن الرجل قد مرت عليه عشرات السنين لم يغير فيها شكل بذلته وقبعته أو طربوشه؛ تريد المرأة أن تقهر الرجل وترغمه على أن يزيل سأمها بملقه لها وتدليلها، وأن يبتكر لها دائمًا ما يجدد حياتها، فإن قصّر في ذلك فالويل له كل الويل. ثم إذا ترأست عملًا فمستبدة قاسية، هي كذلك في البيت إذا تحكمت وفي المدرسة إذا كانت ناظرة وفي المصنع إذا كانت مديرة، وهكذا، كأنها تريد أن تبعد مللها بتحكمها واستبدادها، وهي على بنات جنسها أقسى منها على بنات آدم؛ لأنها في داخل نفسها وفي وعيها الباطن تشعر أن الرجل مظنة أن يزيل سأمها، وليست كذلك المرأة أختها.

وبعد، فما السبب في سأمها هذا ومللها وضجرها!

يخيل إليّ أن أكبر سبب لذلك انطواؤها الدائم على نفسها وتفكيرها المستمر في شخصها، وقلة تفكيرها فيما هو خارج عن نفسها، إلا أن يكون ذلك في خدمتها.

والإنطواء على النفس وطول التفكير فيها مدعاة للسأم دائمًا، ولذلك نرى من فقد بصره أو سمعه أو رجله أكثر سأمًا ومللًا؛ لأنه بعاهته أصبح أقل اتصالًا بالعالم الخارجي وتفاهمًا معه واستمتاعًا به.

فالمرأة من أول عهدها بالحياة كثيرة التفكير في جمالها وقبحها، كثيرة النظر في المرآة لتطمئن على شكلها، دائبة على تصفيف شعرها وتحلية منظرها، متطلعة دائمًا لمعرفة

مستقبلها، كثيرة الحديث عن زواجها، متخيلة الخيالات العديدة لمن تتزوجه قبل أن تتزوج، متقصية كل حركة من حركاته بعد أن تتزوج، وإذا قرأت في كتاب فأحب شيء إليها فيما تقرأ ما يغذي عاطفتها الشخصية، ويصور حالاتها وحالات مثيلاتها؛ أما العالم الخارجي الذي لا يتصل بها من قريب، وأما المعاني المجردة وأما الفلسفة النظرية فأشياء لا تأبه بها، وقلّما تمهر فيها لأنها بعيدة عن شخصها.

فلما أكثرت من التفكير في نفسها، وجعلت شخصها مركز الدائرة التي حولها، وفسرت ما يحيط بها بمزاجها وميولها، ضجرت وملّت وسئمت، خضوعًا للقانون الطبيعي الذي ذكرنا.

هذه ناحية من نواحي حواء، وما أكثر نواحيها وما أعجب شؤونها.

* * *

البطولة والأبطال

إن لكثير من الكلمات سحرًا لا نستطيع اللغة أن تقبض عليه أو تحدده. فكلمة «بطل» و«حرية» و«جمال» و«ديموقراطية» ونحو ذلك، كلمات قد أحيطت بهالات من نور تؤثر في النفس ولا يستطيع اللغوي أن يحددها. فإذا هو حاول ذلك ظهرت عليه علامات العجز والضعف والكلال.

وشيء آخر، وهو أن لكل لفظة تاريخًا كتاريخ الأشخاص والأمم. فقد توضع الكلمة لمعنى، ثم يتطور المعنى بتطور العصور، فيضيف إليها كل عصر معنى جديدًا، فيبقى اللفظ على حاله ويتغير المعنى تغيرًا قريبًا أو بعيدًا. فمساكين هم أصحاب المعاجم الذين ينقل خَلَفُهم ما ذكره سلَفُهم من غير مراعاة لما طرأ على اللفظ من تغير.

هذه كلمة بطل وبطولة... ماذا يُعْنَى بها؟ وما الفرق بين البطل والعظيم والنابغة؟ وماذا كان يُعْنى بالبطل في العصور القديمة وماذا يُعْنى بها الآن؟ أسئلة محيّرة لا تسعفك المعاجم في توضيحها.

إن البطل في كل عصر وعند كل أمة يستمد معناه من حالة الأمة والجماعة، ومن عقليتها، ومن عقيدتها. فاليونان في عصورهم الأولى كانت حياتهم مملوءة بالآلهة وأنصاف الآلهة، لكل قوة طبيعية إلٰه. فخعلوا على البطل نوعًا من التقديس، ونسبوا إليه كل ما يتخيلون من وجوه الكمال، وقدّسوه تقديس الآلهة، وعبدوه عبادة الآلهة.

والغرب في جاهليتهم لما كانت حياتهم حياة حرب، وكانت أكبر فضائلهم الشجاعة، وكان أفضل رجل في نظرهم مَنْ حمى العشيرة وذاد عنها ونكّل بالقبائل الأخرى وغنم منها، كان البطل في نظرهم هو الشجاع الفتَّاك بالخصوم، العليم بالحروب، السافك للدماء، الذي يتمثل في عنترة العبسي وأمثاله.

ولما سادت العقيدة الدينية، في القرون الوسطى، في الشرق والغرب، وزاد بؤس الناس من ظلم الحكام وعسف الأغنياء والأمراء، ورأوا أن الدنيا لا تحقق مطالبهم ولا تضمد جراحهم، وجهوا كل همهم إلى الأخرى يتطلعون إليها، ويطمحون إلى النعيم فيها،

ويحتملون العذاب في الدنيا للسعادة في الأخرى، ويصبرون على ظلم الحكام لما سيكون من عدل السماء. فكان المثل الأعلى للرجل هو الرجل المتدين الذي انقطع للدين واقترب إلى الله من طول عبادته وتطهير نفسه. فكان الأبطال إذ ذاك هم الأولياء والقديسون. وأقيمت لهم الأضرحة في كل مكان، والمساجد الفخمة والكنائس الضخمة، وهُرِع الناس إليها يتقربون بها ويتمسحون بها ويستنزلون الرحمة والبركة بها.

ثم لما جاء دور العلم في المدنية الحاضرة، واهتم الناس بإصلاح دنياهم، وقدروا الرجال بما يظهر من آثارهم، وما ينالون من الخير في الدنيا على أيديهم، تغير مقياس البطولة؛ فكان البطل هو رئيس الحكومة البارع الحكيم الحازم، أو المخترع الكبير، أو الفنان القدير، أو الفيلسوف العظيم، أو المحرر لوطنه، أو مؤسس الصناعات في قومه، أو نحو ذلك.

* * *

وهكذا تطورت البطولة بتطور الزمان، وتطور العقول وتطور الأنظار، ومن هذا نرى أن البطولة تكاد تكون مطمح أنظار كل أمة في كل موقف من مواقفها، فإذا تغير موقف الأمة تغير تقويمها للبطل والبطولة. فالبطل هو الذي تتبلور فيه آمال الأمة، وتتحقق فيه مطامحها، وتتخلص به من آلامها. والأبطال في الأمة يتفاعلون معها، فهي توجدهم وهم يوجدونها، وهي تكوّنهم وهم يكوّنونها، وهي هم وهم يسمون بها. ومحال أن تجد بطلًا لا يتناسب مع قومه، فمن الممكن أن تجد عنترة ينبغ من قبيلة عبس، ولكن من المستحيل أن ينبع فيها فنان كبير أو فيلسوف كبير. ومن الممكن أن تجد في أمريكا الحديثة ولسن وروزفلت، ولكن ليس من الممكن أن تجد فيها جنكيزخان وتيمورلنك، فكل إناء ينضح بما فيه، والبطل ثمر لا بد أن ينتج من جنس شجرته، ولا ينتج من شجرة غير شجرته. فلا بد أن تتهيأ الأمة للبطل، ولا بد أن يكون البطل صورة قريبة للكمال من جنس صورتها. ثم إذا نبغ البطل فيها كان نورًا يضيء حياتها، وكوكبًا يلمع في ليلها، ومنهلًا يستقي منه كل شعبه، وروحًا يستمد القوة منه كل قومه.

* * *

فإن سألتني عن العناصر التي يتكون منها البطل على حسب ما نفهمه في عصرنا الحاضر، قلت: إننا إن ضربنا صفحًا عما ابتدلت فيه كلمة البطل من مثل قولنا: «بطل الملاكمة، وبطل الشيش، وبطل المصارعة، وبطل كرة القدم» أقول: إن تجاوزنا هذا الابتدال فعناصر البطولة

ثلاثة لا بد منها في عدها بطولة، فإن فقد عنصر من عناصرها لم تتحقق، ولم يعد صاحبها بطلًا.

الأول – أن يكون مصدر خير كبير لقومه، فإن اتسعت بطولته وزادت قيمته كان مصدر خير للإنسانية كلها. يستوي في ذلك أن يكون نوع بطولته سياسيًا كتحرير أمته، أو اقتصاديًا كإغنائها، أو علميًا كأن ينبغ في علم من العلوم نبوغًا ظاهرًا، أو يتغلب على داء يفتك بالإنسانية، أو فنانًا كبيرًا يسعد الناس بفنه من شعر أو أدب أو موسيقى أو تصوير، أو فيلسوفًا كبيرًا يكشف من حقائق الكون ما كان مجهولًا، أو نحو ذلك، فكل هذه الأشياء منابع للبطولة.

الثاني – قوة الشخصية... فقد يصدر الخير الكثير من شخص ولكن لا يكون بطلًا لضعف شخصيته؛ لأنه ملحوظ في البطل أن يكون قويًا يحمل الناس على إجلاله وإعظامه والإقتداء به، إنه إذا كان مصدر خير وليس له شخصية قوية صحَّ أن نسميه عظيمًا، ولكن لم يصحَّ أن نسميه بطلًا. فكل بطل عظيم وليس كل عظيم بطلًا.

الثالث – ألا يأتي من الأعمال في حياته ما يفسد عظمته أو بطولته! فالنابغة إذا كان وطنيًا كبيرًا، أو اقتصاديًا كبيرًا، أو عالمًا كبيرًا، أو فيلسوفًا كبيرًا، ثم أتى بما يدل على خسته أو نذالته لم يصح أن يسمى بطلًا. و«بيكون» الذي قيل إنه: «أكبر فيلسوف وأخس إنسان» يصح أن يسمى فيلسوفًا وأن يسمى نابغة! ولكن لا يصح أن يسمى بطلًا؛ لأنه فقد منزلة القدوة وفقد الاحترام والإجلال. ولا بد للبطل أن يكون مثلًا يحتذى ونورًا به يهتدى.

أما متى ينتج البطل وكيف يولد في الأمة؟ فشيء ما زال سرًّا غامضًا ولما يكشفه العلم والبحث. قالوا: «إنه يتبع الصحة الحسنة وجودة الغذاء»! فجاء البطل أحيانًا مريض الحسم تربى على سيئ الغذاء. وقالوا: «إنه ينتج من الأسرة الصالحة والأسرة المشهورة بالنبل والذكاء»، فجاء أحيانًا من أسرة وضيعة لم تعرف بالنبل ولا بالذكاء. وقالوا: «إنه يمكننا حدسه بما اخترعنا من مقاييس الذكاء»، فنجح البطل بعد أن سقط في امتحان مقياس الذكاء. وقالوا: «إنه لا بد أن يكون ذا طلعة بهية ووجاهة جلية»، فظهر البطل كما ظهر سقراط في قبح زري ومنظر غير بهي، ولكن غطَّى جلال بطولته على زراية هيئته. فالحق أن قوانين البطولة لم تتكشف بعد، ولله في خلقه شؤون.

* * *

صراع الماضي والحاضر

من طبيعة هذا العالم التغير المستمر، سواء في ذلك شؤونه المادية والمعنوية، فمن حين إلى حين تعتور الأرض الزلازل والبراكين، والفيضان، والمد والجزر، والعواصف والأمطار ونحو ذلك، فتكون عاملًا كبيرًا من عوامل التغير المستمر في سطح الأرض.

وكذلك حياة الناس على وجه الأرض في تغير مستمر كتغير سطحها، فكم من الفرق بين بيت الرجل البدوي في سذاجته وبساطة أدواته، وبيت الرجل المتمدن على أحدث طراز، المزود بالراديو والتليفون وتكييف الماء وتكييف الهواء، المؤثَّث أثاثًا فخمًا فيه كل أسباب الترف والنعيم. وهكذا الشأن في كل مرفق من مرافق الحياة وكل نظام من نظم المعيشة، في وسائل النقل والبريد، وفي المعاملات الاقتصادية، وفي أساليب التسلية، وفي معاهد التربية، وفي نظم الحكومة، وفي كل شيء، ولو قارنت بين شأن الإنسان في أول عهده وشأنه اليوم لرأيت العجب فيما دخل عليه من تغير مطرد.

وقلما يستطيع الإنسان التدخل في أعمال الطبيعة، وإن تدخل فليس تدخله لمنعها ولكن لاستخدامها في منفعته، فهو لا يستطيع أن يمنع زلزالًا أو ثوران بركان، ولكنه يستطيع أن ينظم الفيضان لخدمته، وأن ينتفع بالمطر في شؤونه، أما التغيرات التي تحدث من أعمال الإنسان في تنظيم حياته، وتنسيق مرافقه، وما يلحقها من صلاح وفساد فإن له دخلًا كبيرًا فيها، وأثر الإنسان فيها يختلف باختلاف الرجال قوة وضعفًا، فقادة الحروب العظام غيروا مجرى التاريخ، وكان العالم يسير غير سيرته لو لم يوجدوا. وحسبنا أن نضرب مثلًا في عصرنا الحديث بنابوليون وهتلر وكيف غيّرا سير العالم، وأحدثا من الأحداث ما لم يكن يحدث لو لم يوجدا.

وكذلك الشأن في كبار المصلحين الروحيين والاجتماعيين والاقتصاديين، فإنهم أسرعوا في تغيير العالم وتقدمه، ولولاهم لسار سيرًا بطيئًا، ولَمَّا وصل إلى ما وصل إليه من رقي.

* * *

وقد دلنا التاريخ على أن الجماعات والأمم تسير على أنماط متشابهة في تغيرها وتطورها وانتقالها من القديم إلى الجديد.

فكل جماعة سرعان ما تتكون لها تقاليد وعادات وأوضاع ومعتقدات، تقدسها وتلتزمها، وتجعل العمل على وفقها فرضًا مختومًا، وتكره الخارج عليها والعاصي لها، ولكن بمرور الزمان تنشأ عوامل مختلفة تجعل ما كان صالحًا من العادات والتقاليد والأوضاع غير صالح، ويبدأ الشعور بنقصها وعدم صلاحيتها ووجوب تغييرها، وتمر الجماعة أو الأمة في هذه الفترة بنوع من الشعور بالقلق والحيرة والغموض، وسبب هذه الحيرة وهذا الغموض يرجع إلى الإحساس بعدم صلاحية القديم الموجود، مع عدم تحديد الجديد المطلوب وما يجب أن يكون.

في هذه الفترة يظهر أفراد في المجتمع من طبيعتهم أنهم أكثر شعورًا بالألم من النظام الموجود! وأكثر علمًا بعيوبه وما يجلب من مضار، وأوسع خيالًا في تصور الأوضاع المستقبلة الجديدة التي يجب أن تحل محل القديم، وعندهم من الشجاعة ما يدفعهم للجهر بهذه الدعوة الجديدة وتصويرها وتلوينها باللون الجذاب، ولكنهم لا يلبثون أن يدعوا دعوتهم حتى يهب في وجوههم المحافظون وأنصار القديم، وهؤلاء أصناف. منهم من حمله على الانتصار للقديم غلظ شعوره وتبلده، فهو لا يألم من النظام المألوف وعيوبه، لأنه ألفه كما يألف الإنسان المكيفات فلا يشعر بضررها. ومنهم من أصيب بالخمول والكسل العقلي؛ فليس له من النشاط ما يحمله على النظر في الدعوة الجديدة وحججها - وكل دعوة جديدة تحتاج إلى نشاط جديد في التفكير وبحث في البراهين - وهو ليس قادرًا على ذلك، والقديم مألوف معتاد مريح لا يكلف اعتناقه عناء البحث فيركن إليه ويطمئن به. ومنهم من يحمله على الانتصار للقديم منفعته المادية إذا كانت الدعوة الجديدة تضيعها كرجال العقيدة وموظفي النظام القديم، وهكذا.

إذ ذاك تنشأ معارك بين أنصار القديم وأنصار الجديد، قد تقتصر على الحرب الكلامية، وقد تشتد حتى تكون ثورة دموية كالثورة الفرنسية والروسية والأمريكية في العصور الحديثة، وكالثورة النصرانية على الوثنية، وثورة الإسلام على عبادة الأصنام.

ثم تنجلي هذه المعارك إما عن نصرة القديم وقمع دعوة الإصلاح والتجديد، وعند ذلك يتأجل الإصلاح والتجديد حتى تتهيأ له ظروف أنسب وجو أصلح. وإما أن ينتصر الجديد ويهزم القديم ويتحول المحافظون إلى أحرار ينصرون الجديد بعد أن تتجلى فائدته. ولكن

حتى في هذه الحالة لا يمكن انتصار الجديد الصرف، بل لا بد أن يكون مشوبًا بشيء من القديم حتى يستطيع أفراد الشعب أن يتذوقوه، إذ ليس في استطاعة سواد الناس أن يتذوقوا الجديد الصرف. وقد يتجاهل دعاة التجديد هذه الحقيقة فتصاب دعوتهم بالنكسة، وهكذا يتحرك «بندول» الأمة بين حركة إلى الأمام وحركة إلى الخلف تبعًا لنشاط المجددين وطبيعة المحافظين.

* * *

ونحن لو نظرنا إلى تاريخ العالم لوجدنا أنه لم يَسِرْ نحو التقدم والتجدد بخطى ثابتة مستمرة، بل كان أحيانًا يرجع إلى الوراء، وأحيانًا يتقدم تقدمًا بطيئًا، وأحيانًا يقفز إلى الأمام قفزًا، ولعل ما أدركه من التقدم في القرنين الأخيرين يعادل تقدمه في الأجيال القديمة كلها، ولذلك التقدم أسباب كثيرة، أهمها: أن الإنسان في القرون الوسطى كانت تسوده عقيدة أن عصره الذهبي إنما كان في ماضيه لا في حاضره ولا في مستقبله، وإذا أمل شيئًا في المستقبل ففي الحياة بعد الموت لا في الحياة الحاضرة، وأن ما يشقى به في حاضره من ظلم حكام، واستبداد أغنياء بفقراء ونحو ذلك، شيء مقدور فرضه القدر عليه فرضًا لا يستطيع أن يدفعه ولا أن يرفعه، وإذًا فليرضَ بالحاضر، وليؤملْ في الحياة الأخرى ليس إلا.

وكان على هذه العقيدة اليهود والنصارى والمسلمون في عصورهم المظلمة، ثم زاد الظلم وزادت الحال سوءًا، ووجد في العصور الحديثة أفراد أدركوا سوء الحال أكثر مما أدركه سواد الشعوب، وجربوا تجارب زادتهم إيمانًا بأن الحاضر السيئ يمكن تغييره، وأن الظلم يمكن دفعه، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالثورة على النظام الحاضر والنظرة القديمة إلى الحياة، وإحلال النظام الصالح الجديد محل النظام الفاسد القديم، ودعوا إلى أن النظام القائم والفساد الحاضر ليس قدرًا مقدورًا! ولكنه نسيج من صنع الإنسان يستطيع أن ينقض غزله ويغزل بدله غزلًا قويًّا متينًا صالحًا، وأن الحكومة الفاسدة، وظلم الأغنياء، والعادات السيئة والتقاليد الرثة، في إمكان الإنسان أن يثور عليها، ويغيرها، ويحلَّ محلها خيرًا منها.

فعمل المصلحون على ذلك، وتحملوا العذاب في سبيل دعوتهم، وألحّوا فيها، فإذا قتلوا أو شردوا خلفهم من يدعو دعوتهم، إلى أن نجحوا فتحقق أملهم، ودلت التجربة على أن الحاضر من صنع أيديهم، وأنهم يستطيعون تغييره، وأنهم غيروه فعلًا، فتبعهم المصلحون وتشجعوا على الإصلاح، وغيروا وجه العالم سواء في الماديات أو في المعنويات: في

الصناعات، في أسس المعيشة الاقتصادية، في نظام الحكم، في الشؤون الاجتماعية، إلى غير ذلك. وكان رائدهم الأعلى الإيمان بقدرتهم، وأن الفساد من صنع أيديهم، وأن الناس قادرون على الإصلاح كما هم قادرون على الإفساد، وأن السلطات التي تكبلهم وتقيد حريتهم وتسومهم سوء العذاب ليست إلا أوهامًا يستطيعون التغلب عليها.

وزادهم نجاحًا فهمهم للقوى الطبيعية في العالم، وإدراكهم كثيرًا من أسرارها واتخاذهم منها صديقًا من الأصدقاء يمكن استغلاله في مصلحتهم بعد أن كان ينظر إليها على أنها عدو مخيف مرعب.

ثم زادهم نجاحًا أنهم أسسوا إصلاحهم على العلم لا على الخيال: العلم بالطبيعة التي حولهم، والعلم بالبيئة التي تحيط بهم، والعلم بالناس وطبائعهم، فكانوا إذا دعوا إلى نوع من الإصلاح درسوا واكتشفوا الحقائق، وجربوا وبنوا إصلاحهم على الدرس والإحصاء والتجربة. فكان النجاح مكفولًا، ودلهم البحث في مجتمعهم على إدراك نقط الضعف في حياتهم ونقط القوة، ثم وجهوا همهم نحو نقط الضعف فقووها، ونقط القوة فزادوها قوة، حتى سادت الروح العلمية في كل مناحي الحياة الاجتماعية وأنظمتها ومحاولة إصلاحها.

وقد علمتنا الحياة أن النجاح يبعث على النجاح، والفشل يبعث على الفشل، فلما نجحوا في تجاربهم الأولى دعاهم النجاح إلى متابعة النجاح بل مضاعفته، فانتقل العالم في هذين القرنين إلى ما كان يعد حلمًا من الأحلام أو ضربًا من الأوهام.

والشرق لا يزال في حاجة إلى هذه الخطوة الأخيرة التي خطاها العالم الغربي، فيتجه نحو حاضره كما هو متجه نحو ماضيه، ويتجه إلى إصلاح دنياه كما هو متجه إلى أخراه، ويعتقد أن في مقدوره أن يصلح ما فسد، ويجدد ما يلي، ويدرك مواضع قوته ومواضع ضعفه، ثم يعالج مواضع ضعفه بالعلم، وإذ ذاك يسير في ركب الحياة مع السائرين، ويبني مع البانين.

* * *

آفة الشرق التقاليد

لعل أهم سبب في تقدم الغرب وتخلّف الشرق هو أن الأول يبني حياته على العلم، والثاني يبني حياته على التقاليد والأوضاع الموروثة وحيثما اتفق.

ويظهر هذا الفرق بين الأسلوبين في كل ناحية من نواحي الحياة.

فالزراعة في الشرق -وهي عماد حياته- تجري على التقاليد الموروثة عن آبائنا الأولين، سواء في ذلك الآلات الزراعية التي عرفت من عهد قدماء المصريين والبابليين والأشوريين، ومنهج الزراعة وأساليبها. وليس يستعمل في الشرق الآلات الحديثة والمناهج الزراعية الحديثة إلا أفراد قليلون لا يمثلون أممهم. والعلم الآن قد قلب كل هذه الأوضاع، وأصبح يستطيع بآلاته ومناهجه أن ينتج أضعاف أضعاف ما تنتجه الأساليب القديمة. ولو اتبع الشرق الوسائل العلمية الحديثة في زراعته لأنتج ما يغنيه عن الاستيراد من الخارج، بل لكان مصدرًا كبيرًا للتصدير بعد ما يستكفي حاجته.

إن العلم الحديث يستطيع أن يصلح الأراضي البور في أقرب زمن وبأقل تكاليف، ويستطيع أن يضاعف الإنتاج من الأراضي المزروعة، ويستطيع أن يدخل في الزراعة أصنافًا جديدة لا عهد للشرقيين بزراعتها، ونحو ذلك. وبهذا كله تنقلب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، لأن الفقر ينهزم أمام هذا العلم، ويجد الناس حاجتهم من الطعام في سهولة ويسر. والفقر أساس الجهل والمرض، فإذا انهزم.. انهزم معه الجهل والمرض.

ويتصل بالزراعة تربية الماشية، فكم من ألوف منها تنفق كل عام؛ لأننا لا نستخدم العلم في تغذيتها ووقايتها، ولو فعلنا لقل موتها وقوي جسمها، فانتفعنا بلحومها ونتاجها وقوتها وألبانها انتفاعًا مضاعفًا لا يمنعنا منه إلا أننا نربيها على أساليب العصور القديمة.

بل إن العلم كفيل بقلب الصحراء جنة يانعة، وكفيل بأن يحول الماء المتدفق من الأنهار في البحار سدى إلى ما يمكث في الأرض فيخرج حبًا ونباتًا وجنات ألفافًا.

* * *

وما قلنا في الزراعة نقوله في الصناعة. . فصناعتنا في الشرق إلى الآن صناعة بدائية وإن تقدمت قليلًا، وأكثرها جارٍ على الأساليب العتقة التي يسخر منها العلم الحديث. فكم في أرض الشرق من منابع ثروة تحتاج إلى صناعة في إخراجها كمناجم الصحراء والقوى الكهربائية من مساقط المياه. وكم فيها من مادة خامة لا ينقصها إلا العلم ليعرف كيف يضع الخطط لاستخراجها واستغلالها، وليس يمكن هذا كله إلا بالمال. والمال كذلك يحتاج إلى علم عميق. . . فمعاملتنا المالية إلى الآن معاملة ساذجة، وتدبير المال وتوزيعه واستغلاله والإشراف عليه من أكبر ما ينقص الشرق. وعلم الاقتصاد إلى الآن علم لم يتقنه الشرق، وليس يعرف أغنياؤنا من المال إلا أنه وسيلة لشراء العقارات، فإن فهموا قليلًا فشراء السندات! أما استغلاله في الشركات لكشف منابع الثروة وتقدم الصناعات فشيء لم نألفه إلا قليلًا.

* * *

فإذا نحن جاوزنا الماديات إلى المعنويات، وجدنا المشكلة هي بعينها، والحل هو عينه، أي أننا نسير حيثما اتفق فنتعثر، وينقصنا العلم لنسير على الجادة.

صحتنا العامة في خطر؛ لأننا لا نستخدم العلم في طرق الوقاية وطرق العلاج.

وقد تسلط العلم الطبيّ في الأمم الحية على الحالة الصحية فيها وأخضعها لنظامه ووقاها من كثير من الأوبئة والأمراض، ولا يزال الشرق في حاجة إلى الاستكثار منه وإحلاله محل طب الركة وطب التقاليد.

فإذا نحن نظرنا من هذه الزاوية إلى الحالة الاجتماعية والسياسية في الشرق، رأينا عجبًا أي عجب. . . حتى دعوات الإصلاح تبنى على العواطف والمشاعر لا على أساس العلم، فندعو إلى إصلاح المساكن، وإلى توفير الماء الصالح للفلاح وإلى مكافحة الأمية، وإلى القضاء على الحفاء. . . ونحو ذلك، بمجرد العاطفة لا عن درس عميق. فإن الدرس العميق يتطلب تشخيص الداء والاعتماد على الإحصاء، ووجه العلاج، وما يتطلب من مال، وخطوات التنفيذ، وما قد يعترضها من صعوبات، وتهيئة الرأي العام لقبول الإصلاح ونحو ذلك. كل هذا هو الدرس العلمي للمرض الاجتماعي وعلاجه، أما الاكتفاء بالأمل ووضع خطط شعرية للموضوع يهزأ بها الواقع فلا تغني شيئًا، ولذلك فشلت كل ضروب الإصلاح المبنية على الخيال لا على العلم.

وكذلك الشأن في السياسة، فقد أصبحت السياسة علمًا بأصول وقوانين مستمدة من التاريخ والتجارب. وقد كشفت الأحداث القريبة في الشرق أن رجالنا ينقصهم علم السياسة، فهم يقابلون الآراء السياسية المبنية على العلم والدرس ووضع الخطط المحكمة، بالآراء المرتجلة التي تعتمد على الآمال لا على الدرس والتحليل والتعمق، فيخسرون قضاياهم.

وشأن السياسة الداخلية شأن السياسة الخارجية، كلتاهما علم وفن ما لم يحذقا فالفشل المحقق والاضطراب الدائم.

* * *

وهكذا غزا العلم كل ميدان، وصار - في الغرب- الأساس لكل حياة، حياة الزراعة والتجارة والصناعة والاقتصاد والسياسة والتربية وكل شيء. ولا بد لنا ما دمنا اعتنقنا المدنية الغربية وسرنا على طريقها أن نسلك خطتها، فنبني حياتنا على العلم.

* * *

إن ما يحتاج إليه الشرق هو بثُّ الروح العلمية في الأفراد والجماعات، فإذا تمَّ ذلك رأينا انقلابًا خطيرًا في جميع مرافق الحياة... الأم تربي ابنها على أساس علمي، والزارع يزرع أرضه على أساس علمي، وكذلك المالي والسياسي والمصلح الاجتماعي وهكذا، ولم يعد هناك مجال للخرافات والأوهام والأوضاع العتيقة والتقاليد القديمة، بل إني أرى أن الفوضى في مجالسنا وطول جدلنا وعدم وصولنا -بعد الجدل الطويل- إلى نتيجة، سببها في الأعم الأغلب انعدام الروح العلمية؛ لأن هذه الروح من أهم صفاتها خضوعها للمنطق واستعدادها للتفاهم.

وليست تتم سيادة هذه الروح العلمية في أمة إلا إذا عممت المنهج العلمي في دراستها، ونال كل طالب قسطًا وافرًا من العلوم كالطبيعة والكيمياء، وأدخل العلم في المدارس الصناعية والزراعية والتجارية، ونشرت بين الجمهور الثقافة العلمية الشعبية، وأجريت أمامهم التجارب العلمية حتى يروا نتائجها بأعينهم ويؤمنوا بها، فتحل العقائد العلمية محل العقائد الوهمية. ثم يكون على رأس ذلك معهد قوي عظيم للأبحاث يكون مرجعًا لكل المشتغلين في الصناعة والزراعة والمهن، يستهدونه في أمورهم ويستفتونه في مشكلاتهم. وعلى كل فلا أمل في أمم الشرق إلا إذا بنت حضارتها على هذا الأساس.

موسيقى الحياة

حياة كل فرد موسيقى تصدر من أوتار مختلفة وآلات متعددة، فإذا تناسقت وتناغمت أنتجت صوتًا جميلًا وكانت السعادة وإن تنافرت وتخالفت أنتجت صوتًا قبيحًا وكان الشقاء.

في جسم الإنسان كثير من الأعضاء، وعدد عديد من الغدد، وما لا يحصى من الأعصاب، لكل منها وظيفة، وكل وظيفة لعضو أو غدة أو عصب يجب أن تتناغم وتتناسق مع وظائف الأعضاء والغدد والأعصاب الأخرى حتى تتوافر الصحة في البدن. فإذا قصّر أحدها في أداء وظيفته كان المرض، وليس المرض إلا «نشازًا» في النغم، وتنافرًا في موسيقى الجسم.

كذلك هذا الجسم يحوي عناصر مختلفة من جير وفوسفور وحديد وفحم وهيدروجين وأوكسيجين ونتروجين ونحو ذلك، ويجب أن تكون هذه العناصر موزعة على الجسم بنسب معينة، إن زادت اختل، وإن نقصت اعتل، وكل خلية في الجسم وكل ذرة من ذراته يجب أن تؤدّي واجبها وتأخذ -بقدر- غداءها، وجميعها محكومة بقانون واحد لا تستطيع أن تثور عليه، ولا أن تخرج عنه، وإلا كان المرض وكان الهلاك.

وربما كان أعجب شيء في هذا الباب عمل القلب والرئة. فالقلب قوة كهربائية هائلة بل هو قوة فوق الكهربائية تعمل في استقبال الدم وتوزيعه، وتساعد الرئة بالتنفس في إصلاح الدم وتطهيره.

وفوق ما للقلب والرئة من عمل فيسيولوجي، لهما أيضًا قوة روحية عجيبة أعظم من قوة الكهرباء تكون بها الحياة، وإلا كان تحريك القلب والرئة بالوسائل الصناعية وسيلة من وسائل مد الحياة، مع أن الحياة لا يمكن أن تمد بهذا العمل المادي الصناعي، لفقدان القوة الروحية العجيبة، وأيًّا ما كان، فالنظر في أعضاء الجسم ومكوناته العديدة يشعرنا بأنه يقوم بحركة موسيقية معقدة أتمَّ التعقيد، لا تنسجم ولا ينبعث عنها الصوت الجميل إلا بشروط كثيرة قلما تتحقق؛ لأنها لا تتحقق إلا بتأدية آلاف مؤلفة من الخلايا وظائفها، أو بعبارة أخرى بتوقيع نغماتها على أكمل وجه وأتمّ تناسق.

وكما يجب التناسق بين أجزاء الجسم بعضها وبعض يجب التناسق بينها وبين بيئتها الخارجية من حرّ وبرد، ورطوبة وجفاف، وغذاء وملبس، ونحو ذلك، فإذا اختل هذا التناسق والتناغم اعتلت الصحة. وكل علمنا بوظائف الأعضاء وتكوين الجسم وما يحيط به من بيئة ليس له غرض إلا إيجاد هذا التناسق والانسجام.

فإذا نحن انتقلنا إلى بيان ضرورة التناسق بين الجسم والعقل والنفس فالأمر أصعب وأدق. فكثير من شقاء الناس يرجع إلى أن عقلهم لا يتناسق وجسمهم، أو أن نفسهم لا تتناغم مع أجسامهم؛ فكل من العقل والنفس والجسم تتفاعل وتكوِّن موسيقى، قليلها منسجم وكثيرها نشاز. والخلق الفاضل والغرائز المحكومة والشهوات المعتدلة ليست إلا نتاجًا لتناسق القوى وتناغم الملكات، والرذائل والغرائز الجامحة والشهوات العارمة ليست إلا نشازًا في النغمات نشأ من فقدان التناسق؛ قد يُعْنى الإنسان كل العناية بجسمه ويهمل عقله ونفسه، فتعلو نغمة الجسم وتهبط نغمة العقل والنفس، فتفسد الموسيقى، ويكون الشكل شكل إنسان، والحقيقة حقيقة حيوان، وينعدم التناسق ويختل التوازن. وقد تعلو نغمة العقل وتضعف نغمة الجسم فيكون العكس. وفي كلتا الحالتين لا تناسق.

وبعد، فالعالم كله موسيقى ضخمة كبيرة هي أكثر تعقيدًا من حياة الفرد؛ لأنها أكثر آلات وأوتارًا، آلات تمثل البدن وآلات تمثل العقل والروح، نغمات اقتصادية ونغمات اجتماعية وسياسية ونغمات فلسفية ونغمات روحية وما لا يحصى من عوامل منبثة في جميع أنحاء العالم، وكلها تعمل في تكوين الموسيقى العالمية، وتؤلف نغمات مختلفة تتجاوب وتتفاعل.

ومع الأسف لم تكن هذه الموسيقى يومًا من الأيام متناسقة منسجمة، ولو حدث هذا يومًا لكان أسعد الأيام وأمتعها. لو حدث هذا ما كان جوع بجانب تخمة، ولا نعيم بجانب شقاء، ولا استعمار، ولا رق، ولا إجرام دولي، ولا أمم كبيرة تنتهك حرمة أمم صغيرة، ولا سلاح، ولا حرب، ولا دسائس دولية، ولا مؤامرات أممية؛ لأن هذه الأمور كلها وأمثالها «نشاز» في موسيقى العالم.

إن هذا «النشاز» نشأ من طغيان بعض عناصر الحياة على البعض الآخر، كما يطغى في الموسيقى صوت الرق على صوت العود أو القانون. إن عناصر الحياة ثلاثة: عنصر مادي يخدم الأبدان، وعنصر عقلي يخدم التفكير، وعنصر روحي يحيي النفس. وجمال الموسيقى في تعادلها وتناسقها. فلما طغى عنصر المادة في المدنية الحديثة على العنصرين الآخرين أفسد الحياة.

إن موسيقى المدنية الحديثة طنانة رنانة مقلقة للراحة مفسدة للذوق، ترتفع بعض آلاتها حتى تكاد تصم، وتخفت بعض آلاتها حتى لا تكاد تسمع، ومن أجل هذا فقدت تناغمها فضاع جمالها.

تقدمت في الصناعة، ولكن صناعتها ومخترعاتها كانت لخدمة البدن وما إليه فحسب.

والتعليم في أساسه موجّه إلى النجاح المادي في الحياة. ومناهجه في الجغرافيا والتاريخ والرياضة واللغات وسائر مناهج الدراسة تهدف إلى النجاح في الوظيفة أو النجاح في العمل. والعقل ارتقى كثيرًا عما كان عليه في القرون السابقة، ولكنه وضع لخدمة الحياة المادية أيضًا لا لخدمة التعاون ولا لخدمة الإنسانية. والأخلاق؛ وجهت هذه الوجهة نفسها، فالصدق والمحافظة على المواعيد وتقويم الزمن والثقة بالنفس ونحو ذلك وضعت في أعلى قائمة الأخلاق لأنها أخلاق تجارية، أعني أنها تنفع في عالم التجارة وعالم الأعمال. أما الرحمة والإنسانية والعطف والتعاون، فوضعت في أسفل القائمة بعد أن فسرت تفسيرًا ماديًّا. وحسبك أن المدنية الحديثة إذا ربت طيارًا مثلًا علمته الشجاعة والإقدام والاستعداد لتضحية النفس في الحرب، ولكنها لا تعلمه تقدير حالة من يطلق عليهم القنابل، ومن تصيبهم من غير المحاربين. ولا تعلمه أن يرعى الإنسانية كما يرعى القومية.

وهكذا اتجه العلم فنظر إلى المادة ولم ينظر إلى روحها، واستخدم فيما يفيد جسم الإنسان لا ما يفيد قلبه.

أصبح العالم في وضعه الحاضر كجسم اختل توازنه وانعدم تناسقه، فاتسعت إحدى عينيه وضاقت الأخرى، وطالت إحدى يديه وقصرت الأخرى، واستقامت إحدى رجليه وعرجت الأخرى. فكان مشوهًا يستخرج من الناظر النفور والاشمئزاز، وهذا هو سر ما يعانيه العالم من شقاء: خوف شامل، واستعداد لقتال هائل، واضطراب في نظم الحكم ليس له من قرار، وانقسام العالم إلى معسكرين أو معسكرات، تتهاجى وتتراشق بالتهم ويفرُّ كل من تحمل المسؤولية ليلقيها على غيره، وهكذا وهكذا من أنواع الشرور التي تهدد بالفناء، وتكاد تجعل موسيقى العالم كلها «نشازًا».

ولا أمل -مطلقًا- في صلاحه إلا إذا أصلحت من جديد آلاته، ونظمت أصواته ونسقت نغماته.

* * *

عالم كذّاب

ظلم الناس أبريل، إذ أضافوا إليه الكذب، فقالوا: «كذبة أبريل»، كأنه الكاذب وحده، أو كأن الكذب يقال في يوم من أيامه وحده، وكأن ما عداه من الأيام مظنة الصدق وقول الحق، مع أن كل الأيام في الكذب سواء، فكل الأيام كاذبة، وكل الأشهر كاذبة، لا يختلف فيها يوم عن يوم ولا شهر عن شهر، بل إن العالم كله كذب في كذب، أسس على الكذب وبني على الكذب. وكيف لا يكون هذا العالم كذابًا، وقد خرج إلى الوجود بكذبة كذبها إبليس على آدم وحواء، إذ قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: 120 ـ 121]، ثم ظهر أنها لا هي شجرة الخلد، ولا هو ملك لا يبلى، وإنما هي شجرة الكذب، وإنما هو الملك الفاني الزائل؟

كل شيء في العالم كذّاب، الدنيا نفسها خدّاعة كذابة، تتبهرج أمام الناس كما تتبهرج المرأة الخليعة، فتفتنهم عن مسلك الحق وعيشة الصدق، تغريهم بمفاتنها ومباهجها، حتى يركنوا إليها ويطمئنوا لها، كأنها خالدة وهم خالدون، وتصرفهم عن التفكير في المستقبل والمآل، فهؤلاء فتنوا بالمال ووجهوا كل حياتهم إليه، ينفقون في جمعه أعمارهم، يكسبونه ويدخرونه، أو يكسبونه وينفقونه، وهم يتحاربون من أجله، ويتخاصمون من أجله، ويتعادون من أجله، كأنه غاية الغايات في الحياة، وكأنهم خلقوا له، وعاشوا من أجله، هو تفكيرهم في الليل وهمهم بالنهار، يبيعون من أجله الحق والشرف والخلق والصداقة، وكل هذا من خداع الدنيا لهم وكذبها عليهم. ثم ينتهي الأمر أخيرًا إلى عجز أو شيخوخة أو مرض أو موت، حيث تنكشف الخديعة بعد فوات الأوان.

وهؤلاء آخرون يخدعون بالجاه، فيتكالبون عليه، ويتنازعون من أجله، ويضيعون مصالح الناس لكسبه، ويبذلون في سبيله الخلق والعزة والنبالة. ثم يستخدمونه في ذل الناس وإهانتهم واحتقارهم، وبعد ذلك كله ينجلي الأمر عن كذبة من كذب الدنيا وخدعة من خدعها، فإذا كل ذلك هباء.

ومثل الذي قلنا في المال والجاه، نقول في مباهج المرأة وفتنتها، والخمر وشعشعتها،

والميسر واستغوائه واستهوائه، فكل هذه لذائذ عارضة، تتزين بها الدنيا لتفتن بها العقول، وتخدع بها النفوس، ثم ينجلي الأمر بعد ذلك كله عن كذبة فادحة، أين منها كل أكاذيب أبريل!

* * *

فإذا نحن انتقلنا من الدنيا إلى أبناء الدنيا، وجدناهم كأمهم، رضعوا الكذب ونشأوا في الكذب وعاشوا في الكذب. هم كاذبون حتى بما يتزينون من ملابس، وإلا فلماذا زر الطربوش؟ ولماذا رباط الرقبة؟ ولماذا ثنية البنطلون؟ ولماذا الأزرار في جانب اليدين؟ وهم كاذبون في مأكلهم، فلماذا مظهر الكرم - وهو فوق المستطاع - والتباهي بالموائد، تقدم للأغنياء وتمنع عن ذوي الحاجات؟ ولماذا الإفراط في تعدد الأصناف، وهي فوق حاجة الجسم؟

ثم ما هذا الكذب في كل مجتمع صغر أو كبر؟ فالبيت مملوء كذبًا، يكذب الرجل على زوجته، والزوجة على زوجها، والأولاد على آبائهم في كل يوم وفي كل ساعة، إما كذبًا بالقول أو كذبًا بالفعل - ومصالح الحكومة مملوءة كذبًا، رئيس يكذب على مرؤوسيه، ومرؤوسون يكذبون على رئيسهم، ورئيس ومرؤوسون يكذبون على من اتصل بهم من أصحاب الحاجات، فكل مصلحة كأنها مصنع كذب - والمتاجر والمصانع كلها كذب في كذب، فمن أساس التجارة الإعلان الكاذب، والعرض الكاذب، والإبهام الكاذب، والأيمان الكاذبة، ويتبادل سوء الظن في المصانع والعمال وأصحاب رؤوس الأموال، كل فيها خادع ومخدوع.

ثم كل طائفة من الطوائف، وكل طبقة من طبقات الناس، لها كذبها في حرفتها ومهنتها، وسلوكها ومعاملاتها، حتى أصحاب الفضيلة رجال الدين ووعاظ الأخلاق ومن نصبوا أنفسهم لمحاربة الرذيلة، إن أنت كشفت عن مظهرهم البرّاق، رأيت العجب العجاب، وما يحيِّر الألباب كالذي يقول المعري [من الوافر]:

رُوَيْدَكَ قد غررتَ وأنتَ حرٌّ
بصاحبِ حيلةٍ يعظُ النِّساءَ
يُحَرِّمُ فيكُمُ الصَّهباءَ صبحًا
ويشربُها على عَمْدٍ مساءَ

يـقـولُ لَـكُـمْ غـدوتَ بـلا كـسـاءٍ   وفـي لـذّاتـهـا رَهَـنَ الـكـسـاءَ[1]

وإن أنت نظرت إلى رجال السياسة. فالطامة الكبرى والمصيبة العظمى، فاللغة كاذبة، لا بأس عندهم أن يسموا الاحتلال انتدابًا، بل لا بأس أن يسمّوه استقلالًا، وأن يسموا القوة القاهرة المتغلبة «معاهدة على قدم المساواة»، ويسموا التوجيه بالقوة والقهر مجرد نصح وإشارة، والمستبد المالك للسلطان مستشارًا، ولا بأس أن يضعوا المبادئ لتحكُّم القوي في الضعيف، ويسموها المبادئ العشرة أو ميثاق الأطلنطي، وأن يقولوا في الحرب ما ينقضونه في السلم. ولا بأس عندهم أن يضعوا المبادئ الجذّابة والقوانين العادلة، فإذا هم طبقوها نسوا عدالتهم وذكروا ظلمهم، ولسنا ننسى في هذا المقام أفاعيل الأحزاب، وأكاذيب الزعماء والتكالب على الحكم، بدعوى إقامة العدل، وتضحية الجمّ الغفير من الناس لمصلحة زعيم من الزعماء، تحت ستار رفع الظلم ونصرة الحق، وتلوين الحق بلون الباطل، والباطل بلون الحق، والنظر إلى الأشياء نظرة ضيقة متعصبة، حتى إن الشيء الواحد حق كل الحق إذا صدر من الحزب، وباطل كل البطلان إذا صدر من خصومه. كما لا ننسى كذب التاريخ السياسي مثل ما تكذب السياسة، فمؤرخو الألمان ينسبون سبب الحرب إلى خصومهم، وخصومهم ينسبونه إليهم، ثم هؤلاء، وهؤلاء لا يتورعون عن أي كذب في سبيل الدعاية، وهم قادرون على أن يلوّنوا كل ما يخدمهم باللون الزاهي الجميل وكل ما يضرهم باللون القاتم الأسود.

* * *

وما بالنا نذهب بعيدًا والإنسان لا يكتفي بأن يكذب على غيره، بل هو شرّ ما يكون حين يكذب على نفسه، وكثيرًا ما يكون ذلك، فهو يظلم الناس، ويظن أنه عادل، ويأتي بالشر، ويظن أنه يفعل الخير، ويفعل الفعل تدفعه إلى عمله مصلحة شخصية، ويظن أنه إنما يفعله للمصلحة العامة، وتصدر عنه أسوأ الأعمال فيلوّنها أمام نفسه بأنها خير الأعمال، فإن تنازل عن ذلك قليلًا، واعترف بفعلته أنها جريمة، خلق لنفسه المعاذير أشكالًا وألوانًا، وقلّما ترى في هذا العالم شريرًا يعتقد أنه شرير، أو مجرمًا يرى أنه مجرم، وهو إلى ذلك يحاول أن يسمّي الأشياء، بغير أسمائها، فيسمّي الرشوة هدية، ويسمّي التحايل مهارة، ويسمّي ظلم الناس لمصلحة أقاربه أو أصدقائه قدرة على النفع. حتى الأدباء سموا كذب الشعراء خيالًا والمغالاة في التشبيه مبالغة. وهكذا مما لا يحصى ولا يعد.

---

(1) لزوم ما لا يلزم 1/ 60.

إن كانت الدنيا تكذب، وكل طائفة تكذب، وكل إنسان يكذب، والعالم كله يكذب، فأين الصدق!؟ إن هذا العالم عالم كذّاب، بني ما فيه على الكذب. حتى لو استطاع إنسان أن يصدق في كل شؤونه مع الناس ومع نفسه لعاش غريبًا ومات غريبًا. ولو تصوّرنا عالمًا صادقًا كل الصدق لكان عالمًا مخالفًا لعالمنا كل المخالفة، لا يمت إلى عالمنا هذا بسبب، فليست المسألة مسألة كذبة أبريل، بل العالم كله أبريل.

* * *

كن سيّدًا ولا تكن عبدًا

أما العربي الأول فقال [من مجزوء الكامل المرفل]:

الـــعَـــبْـــدُ يُـــقْـــرَعُ بـــالـــعـــصـــا
والـــحُـــرُّ تَـــكْـــفِـــيـــهِ الإشـــارهْ

يريد أن العبد جامد الحسّ غليظ الطبع لا يعمل ما يعمل أو يترك ما يترك إلا خوفًا من العصا، أما الحر أو السيد فرقيق الحسّ لطيف الطبع يكفيه وحي الضمير أو اللمحة الخاطفة أو الإشارة العابرة.

ولو ترجمنا هذا إلى التعبير الحديث لقلنا إن العبد يعبد القوة ولا يعبد إلا القوة، وإن السيّد يخضع للواجب ولا يخضع إلا للواجب.

قد يكون كل يقدّس القوة ويخضع لها، ولكن العبد لا يفهم إلا القوة المادية المرموز لها بالعصا، والسيد يخضع لقوة المعاني وقوة الضمير المرموز إليها بالإشارة.

* * *

يروون أن أبا محجن الثقفي كان يهدد بالجلد إذا شرب الخمر فشربها، فلما عفي عنه تركها؛ لأنه أبى أن يطيع العصا كما يطيع العبد، فلمّا أمّن العصا أنصت لصوت الضمير؛ لأنه سيّد.

احتفظْ بهذا المعنى، وتعالَ معي نَجُلْ في الأمم لنعلم أيها يتخلق بأخلاق السادة؛ وأيها بأخلاق العبيد... فإن رأيت الموظف تكدس أمامه الأوراق تشتمل على مصالح الناس، فإن علم أن ورقة منها تتصل بغني من الأغنياء، أو باشا من الباشوات، أو رئيس من الرؤساء، أو زميل له يبادله الرجاء نفذها في سرعة البرق، وإن كان لفقير من الفقراء أو ضعيف من الضعفاء أو لمن لا حسب له ولا نسب أهملها وتركها تتراكم عليها الأتربة... وتنسى في الأدراج حتى يمل صاحبها فييأس، ويفوض أمره إلى المنتقم الجبار... فهذه أخلاق عبيد لا أخلاق سادة.

وإن رأيت النبيل يسمو فوق القانون فلا تعدًّ مخالفته مخالفةً، ولا إجرامه إجرامًا، وإذا جرؤ أحد على سؤاله عما ارتكب، عد قليل الأدب فاقد الذوق، وقد يهان أو يعاقب لأنه تجاوز حدّه، فتجرأ أن سأل النبيل كيف خالف القانون؟

أو رأيت الغني أو الوجيه يسكن بيتًا في شارع فسرعان ما يرصف له الشارع ويضاء بالكهرباء ويمد بيته بالتليفون، وتقوم له الدنيا وتقعد، وتسكن أسر وأسر من الفقراء في حي من الأحياء، فلا يعنى بحاراتهم ولا تكنس ولا ترش ولا تضاء، وتفتك بهم الأمراض فلا يلتفت أحد إليهم.

وإذا رأيت الغني يتبرع بالألف أو الألوف من ماله للمدير أو الأمير ولا يتبرع بالدرهم الواحد للفقير إذا لم يتدخل بينهما عظيم، فهو لا يؤمن بخير مستشفى أو ملجأ أو مدرسة أو جمعية خيرية أو مسجد لله، ولكنه يؤمن فقط بسلطة المدير أو الوزير أو الوجيه.

أو رأيت الموظف الصغير يذلّ ذلًا لأحد له أمام الموظف الكبير، ثم هو يطغى أشد طغيان على ذوي المصالح من الجماهير، كالشرطي أذل ما يكون أمام ضابطه وأقسى ما يكون على الباعة في دائرته، أو كالموظف تدخل عليه تسأله في شأن من شؤونك الموكولة إليه، فإن لم يعرفك تجهم لك ونأى بجانبه عنك، وردّ -إن ردّ- في غلظة وجفاء، فإن عرف أنك ذو جاه بلقب أو وظيفة أو ثروة تحول من النقيض إلى النقيض، فبشَّ في وجهك وتظرف في حديثه وقدم لك سيجارة وقهوة، واعتذر لك لأنه لم يكن يعرفك، كأنه ليس واجبًا عليه أن يؤدي عمله إلا لمن يعرفه.

أو رأيت البيت تحت سيطرة مستبد، وسائر من في البيت لا إرادة لهم؛ فإما أن يقوى الرجل فيطغى ولا أمر ولا نهي إلا نهيه، وإما أن تقوى المرأة فمعاذ الله من سلطانها.

أو رأيت أهلها تخيفهم وتهينهم فيخضعون، وتكرمهم فيتمردون والناس فيها أحد رجلين، رجل لم يتمكن فيتمكن فهو ذليل مراء منافق متملق، ورجل تمكن فتجبر فلا قول إلا قوله ولا رأي إلا رأيه.

أو رأيت مجالسها وهيآتها تتخذ شكل الشورى ولا شورى، فأغلبية وأقلية وأخذ أصوات وسماع بيانات وذلك في الظاهر لا الباطن، وإنما تعمل ما تعمل بالوحي الخارجي لا بالوحي الذاتي.

أو رأيت ميزانيتها تؤسس إيراداتها ومصروفاتها على رعاية ذوي الجاه دون عديمي الجاه، وعلى الإسراف في الكماليات قبل استيفاء الحاجيات.

إن رأيت هذا في أمة فاعلم أن أخلاقها أخلاق عبيد لا أخلاق سادة.

* * *

أما إن رأيت الأمة يسود فيها اعتقاد كل فرد بأنه مثل كل فرد آخر له حقوقه وعليه واجباته، إن اختلفوا في الفقر والغنى، أو اختلفوا بين مرؤوس وَرئيس، أو اختلفوا في الحرَف والمهن، أو اختلفوا في الألقاب فلم يختلفوا في أنهم ناس؛ لكل حريته، ولكل حقه في الحياة، ولكل حقه في ضروريات العيش، ولكل حقه في أن يحترم، وكلهم أمام القانون سواء وأمام الموظفين سواء، وكلهم في نظر العدالة سواء، مصالحهم المعقولة مقضية وأوراقهم أمام الموظف مرتبة حسب دورها لا حسب وجاهة أصحابها؛ فهم في الحياة كفرقة التمثيل، قد يمثل أحدها فقيرًا، وقد يمثل أحدها أميرًا، ولكن كل يقدر في التمثيل حسبما أجاد لا حسب الموقف الذي مثله، وكلهم أمام رئيس الفرقة إنسان له حقوقه وعليه واجباته.

ورأيت الناس فيها يُقدِّرون بأعمالهم لا بمظاهرهم، وبكفاياتهم لا بأقاربهم ولا بأنسبائهم، وبحقيقتهم لا بتهويشهم، والرأي فيها يُوزَن بحقيقته لا بمن قاله، والقوي الذي أجرم ضعيف أمام القانون حتى يُنتَصف منه، والضعيف الذي اعتدي عليه قوي حتى يعطى حقه.

ورأيت الناس فيها يؤدّون واجبهم لضميرهم لا لخوفهم أو طعمهم، يتبرع الأغنياء للمستشفيات أو الملاجئ أو الجمعيات الخيرية إرضاء لشعورهم لا لمديرهم ورفقًا بالناس لا خوفًا من أولي البأس.

ورأيت حب الشورى ونظام الشورى يجري في دمائهم؛ فالبيت برلمان صغير لا يستأثر بالسلطة فيه رجل ولا امرأة، والمجالس والهيئات كذلك لا يستبد بها الرئيس ولا تُوحَى فيها الآراء والقرارات من وراء ستار، والبرلمان برلمان حتى تصدر فيه الآراء عن بحث ودرس واقتناع، أسخط التنفيذية أو أرضاها، نقم عليه الرأي العام أو صفّق له.

إن رأيت هذا في الأمة فأخلاقها أخلاق سادة لا أخلاق عبيد.

* * *

العبد لا يعمل إلا بالخوف والسيد لا يعمل إلا بالرغبة، العبد لا يتحمل المسؤولية لأنها

تتطلب الشجاعة، والسيِّد يتحمل المسؤولية ويسعى لتحملها لأنها توافق رجولته. الحكومة في نظر العبد جبروت وفي نظر السيد مشرفة. السلطات في نظر العبد مفزعة مرهبة وفي نظر السيد موجهة مرشدة، فإن عدت طورها استحقت عزلها.

* * *

ولكن هل من الإمكان تحويل العبيد إلى سادة؟ وأخلاق العبيد إلى أخلاق سادة؟

هذا السؤال هو بعينه سؤال هل تتغير الأخلاق؟ ونحن إذا غضضنا النظر عن النظريات الفلسفية في ذلك، ونظرنا إلى الواقع المحسوس، وجدنا الإجابة عن هذا السؤال واضحة جلية؛ فالأخلاق في تغير مستمر سواء في ذلك أخلاق الأفراد أو الأسر أو الأمم، فكم رأينا من أفراد كانوا سادة ثم صاروا عبيدًا وبالعكس، وكم من أسر كانت نبيلة ثم صارت خسيسة وضيعة والعكس، وكانت الرومان -مثلًا- سيدة عزيزة يوم كانت تعمل للمجد وتخلق الزعماء وقادة الجيوش والقانون ونحو ذلك، ثم أخلدوا إلى الراحة وأسرفوا في الترف وتركوا الأعمال للأرقاء، فذلوا وغلبت عليهم أخلاق العبيد، وهكذا نرى كل يوم أمثالًا من سادة ذلوا أو أذلة عزوا.

وشواهد التاريخ تدلنا على أن أكبر ما تُمْني به السيادة الفقر والجهل؛ فهما إذا سلِّطا على فرد أو أسرة أو أمة -من ظلم حكامها- هدّما سيادتها وحوّلاها إلى كلب ذليل، حتى إذا أيسرت بعد الفقر وعلمت بعد الجهل أخذت الحياة تدبّ فيها والعزة تتمشى في مفاصلها، ومخايل السيادة تبدو عليها؛ فمن أراد السيادة فليسلك طريقها.

* * *

لو عاد موسى وعيسى ومحمد

يحكى أن موسى وعيسى ومحمدًا عليهم السلام تواعدوا أن ينزلوا إلى الأرض ليروا أممهم ماذا صنعوا بتعاليمهم، وكيف اتبعوا أوامرهم ونواهيهم، وكيف أثر فيها الزمان وأحداث الأيام، ورسموا خطة: أن يختار كل منهم دليلًا يطوف معه في أهم الأصقاع التي يسكنها قومه، ويوضح له خصائصهم ومسالكهم في الحياة، وتقلبهم في شؤونها حتى إذا أتموا رحلتهم اجتمعوا في «بيت المقدس» ليقرروا ما يعملون فيما سيعلمون.

فأما موسى عليه السلام فصحبه دليل يهودي عليم خبير، يطوف به في أوروبا وأمريكا وأطلعه على براعة قومه في المال وجمعه واستغلاله، كيف يقرضون، وكيف يرابون وكيف يؤسسون البنوك، وكيف يستولون بواسطتها على الصناعة والتجارة، وكيف يقبضون على زمام الأمور في الأمم عن طريق المال؛ لأنه عصب الحياة، وكيف أن لهم في كل شركة إصبعًا وفي كل مؤسسة مالية أو تجارية أو صناعية يدًا، حتى إن لهم في كل الشعوب التي يحتلونها أطايب الكسب وأعاظم الربح، وليس للشعوب إلا ما يتبقى بعد شبعهم، وما يفيض بعد أن تمتلئ أيديهم وقال: إن قومي متواضعون لم يترفعوا عن أي مهنة، ولم يتكبروا على أي صناعة، فأي شيء يدر المال مجال نشاطنا ومبعث همنا، وبذلك سدنا وسيطرنا، حتى كان لنا في أمريكا شارع تجاري يسيطر على أمريكا الشمالية والجنوبية كلها، وحتى كان منا ستة ملايين فيها يسيطرون على مئة وأربعين مليونًا، وقد وجهنا عناية خاصة إلى الصحافة والسيطرة على كثير منها حتى يكون الرأي العام في قبضة أيدينا ما أمكننا، وأعددنا سجلًا في كل مملكة لعظماء الرجال ندوّن فيه موضع قوتهم وموضع ضعفهم لتستغل ذلك أحسن استغلال إذا دعت الحال. فمن كانت أمنيته الانتخاب هددناه ومنّيناه، ومن كانت أمنيته غير ذلك فغير ذلك، سيرًا على مبدأ «إن الغاية تبرر الوسيلة»، ومن أجل ذلك عظم سلطاننا في الدول؛ فمنهم من غار مِنَّا فانتقم، ومنهم من كرهنا وكتم، ونحن لا نعبأ بحبهم أو كرههم ما دمنا نحسن استغلالهم.

قال «الدليل» ذلك كله لموسى عليه السلام بلهجة المزهو المفتخر الذي يستخرج إعجاب

سامعه، فسكت موسى ولم يقل شيئًا ولم يبدِ سخطًا ولا إعجابًا. وكل ما يذكره الراوي أن الدليل مرة أرى موسى بنكًا؛ فسأله موسى: أين المعبد؟ وشرح الدليل مرة نجاحهم في أساليب السياسة، فسأله موسى عن وجه الحق فيها، وعلى الجملة فقد تكلم الدليل عن الأرض فسأله موسى عن السماء.

وطار إلى فلسطين، فأراه الدليل نشاط اليهود في إعادة دولة سليمان، وكيف استخدم قومه نفوذهم وجاههم ومالهم لتأسيس هذه الدولة، وكيف حاولوا حمل الدول على الاعتراف بالتقسيم، وسيتلوه الامتداد شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا حتى يعود لنا ملكنا القديم ونسيطر على العالم أجمع، وهنا لم يستطع موسى أن يكتم اشمئزازه وغيظه، فيدوي اسمكم -يا سيدي- في كل مكان، وأراه مدينة تل أبيب وشرح له كيف سيدت، ثم ختم رحلته معه ببيت المقدس، ولم يزد موسى على أن قال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62].

* * *

وأما عيسى عليه السلام فقد حار دليله قبل مجيئه ماذا يريه، فعقد لذلك مؤتمرًا من أقطاب النصارى ظلَّ منعقدًا أسبوعًا، وأخيرًا قرّ الرأي على أن يكون البرنامج إطلاعه عليه السلام على المدنية الغربية ممثلة في نواحيها المختلفة؛ لأنها وليدة النصرانية كما أن النصرانية وليدة عيسى، فأراه الدليل المدنية بعنصريها المادي والمعنوي من آلات وصناعات ومخترعات،ومن علوم وفلسفات، ومن نظم الحكم في شتَّى أشكالها، وأساليب التربية في مختلف وسائلها، وأراه المدارس والجامعات والبرلمانات، وشرح له كيف أن النصرانية الآن تتوزعها الشيوعية الديمقراطية بعد أن قضت على النصرانية النازية، وأن الخلاف بين النصرانية الشيوعية والنصرانية الديمقراطية قد بلغ في هذه الأيام أقصى حدّه حتى ليوشك أن تقع بينهما حرب تقضي على العالم. وبهذه المناسبة أراه معرضًا للآلات الحربية من القرون الوسطى إلى اليوم... من السيف والخنجر والدرع وما إليها، إلى المدافع والقنابل وما إليها، إلى الطيارات والغواصات والدبابات والصاروخات وما إليها، إلى القنابل الذرية وما إليها، فقال عيسى عليه السلام عند خروجه من المعرض: «مرحى مرحى» ولم يتبين الدليل جيدًا، أقالها معجبًا أم قالها متهكمًا؟ لأن نغمتها كانت بين بين، ثم قال الدليل: إنا يا مولاي بفضل هذه المدينة سدنا العالم وحكمنا الشرق والغرب، فكل الأمم أتباعنا وكل الأديان خاضعة لنا، «وأخيرًا طار به إلى «بيت القدس» فأحب أن يزور أماكنه الأولى أيام كان على الأرض حتى يأتي موعد الاجتماع».

أما محمد عليه السلام فأطلعه دليله على العالم الإسلامي، من تركيا وفارس والهند والعراق والشام ومصر والحجاز... إلخ، وأراه خريطة تدل على اتساع رقعة الممالك الإسلامية في أزهى عصورها، كما أطلعه على المدنية الإسلامية في أوج عزتها من أبنية فخمة، وآثار ضخمة، وفنون رائعة، وعلوم واسعة، وأزاره المكتبات وأراه ما أنتجته عقول المسلمين من أراء وأفكار، وكيف سادوا العالم في أيام عزهم، وكيف تقدموا الغرب إذ ذاك، فكانوا أساتذته في العلوم والفنون والصناعات حتى كانت حضارتهم أساسًا لما بني عليها من حضارات غيرهم. وكان ماهرًا، إذا اختار شخصًا يعد -بحق- نموذجًا للمسلم في العصر الحاضر، وأخذ يحلله لمحمد -عليه السلام- ويشرح له أخلاقه وعقائده ونفسيته شرحًا واسعًا مستفيضًا، حتى كأنه في شرحه له وتحليله لعقائده قد شرح له حال المسلمين جميعًا.

ثم طار به إلى فلسطين حيث أراه النزاع الدائر بين العرب والصهيونيين، وموقف أوروبا وأمريكا إزاء هؤلاء وهؤلاء، وأخيرًا وصلا إلى بيت المقدس.

* * *

قال الراوي: «إن الثلاثة عليهم السلام اجتمعوا عند الصخرة في بيت المقدس يتداولون بينهم فيما شاهدوا، وما يجب أن يعملوا».

محمد: «لقد رأيت عيب أمّتي: إنهم ينظرون إلى ماضيهم أكثر مما ينظرون إلى حاضرهم».

عيسى: «ورأيت عيب أُمتي: إنهم ينظرون إلى حاضرهم أكثر مما ينظرون إلى ماضيهم، حيث منبع ديانتهم».

موسى: «ورأيت عيب أمتي: إنهم ينظرون إلى جيوبهم أكثر مما ينظرون إلى قلوبهم».

* * *

محمد: «ورأيت عيب قومي، إنهم بالغوا في الروحانيات حتى مزجوها بالأوهام والخرافات».

عيسى: «أما عيب قومي فإنهم أفرطوا في الماديات وأهملوا الروحانيات».

موسى: «وعيب قومي أنهم أخضعوا الروحانيات للماديات وأخضعوا الماديات للشيكات».

محمد: «وعيب قومي أنهم نسوا، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

عيسى: «وعيب قومي أنهم بالغوا في الإعداد للقوة حتى صارت موضع الضعف في الحضارة النصرانية».

موسى: «وعيب قومي أنهم فسروا القوة التي يعدونها بكل الوسائل، حتى ما كان منها خسيسًا وضيعًا».

* * *

محمد: «وعيب قومي أنهم عددوا الآلهة من جاه وسلطان وحكام، ونسوا أساس الدين وهو لا إله إلا الله».

عيسى وموسى: «ذلك شأن أممنا جميعًا».

* * *

عيسى: «وهل نعود إلى الأرض نجاهد من جديد لنملأها عدلًا كما ملئت جورًا؟».

محمد: «قد كان ذلك والناس في غفلة من أمرهم، الحق يعمي عليهم. أما وقد بينّا الحق، وتكفّل الله أن يحفظه إلى اليوم وبعد اليوم، ونضج عقل الناس ولكن أعمتهم شهواتهم، فلا سبيل إلا أن يتركوا وشأنهم، يتعلمون السعادة من الشقاء، ويعرفون فضل الجنة بعذاب النار. إن للناس قلوبًا ولكن لا يفقهون بها، وعيونًا ولكن لا يبصرون بها، وآذانًا ولكن لا يسمعون بها، فليجنوا ثمرة عماهم وصممهم وجحود قلوبهم، حتى يستفيقوا من غفلتهم. وماذا نعمل أكثر مما عملنا، وكُتُب الله بينهم، وعقولهم في رؤوسهم، وأفئدتهم بين جنوبهم؟ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: الآية 3].

وأمَّن موسى وعيسى على هذا الرأي، وقالوا جميعًا: «إلى السماء».

* * *

السينما والشباب

أصبحت السينما في المدنية الحديثة إحدى الدعائم الثلاث التي تكوّن الرأي العام وتوجهه، وتثقف الشعوب وتغذي عواطفها وتسليها، وهي الصحافة والإذاعة والسينما.

وقد أحصى بعض علماء الأمريكيين -وهم المولعون بالإحصاء- دور السينما في العالم سنة 1940 فكانت نحو سبعين ألف دار، منها 29% في أمريكا وحدها، وجاء في الإحصاء أن الأمريكيين الذين يغشَون هذه الدور بين ستين مليونًا وثمانين مليونًا في الأسبوع. ومن هؤلاء من يغشَونها أكثر من مرة. وأمعنوا في الإحصاء فأحصوا من كان منهم في سن الطفولة والمراهقة، ومن كان في سن الشباب ومن هم فوق ذلك. وحسبنا هذا دليلًا على أثر السينما في الشعوب وأهميتها في حياة الناس. وقد زاد أثرها بتحولها من سينما صامتة إلى سينما ناطقة، فقد كانت وهي صامتة تقصر عن عرض بعض العواطف والمعاني الدقيقة فيستعاض عن ذلك بالمبالغات في التمثيل، فلما تحولت إلى ناطقة استكملت هذا النقص. وكانت وهي صامتة تؤدي المعاني وتغذي العواطف عن طريق النظر وحده، فأصبحت تفعل ذلك عن طريق السمع والبصر جميعًا.

* * *

فإذا نحن نظرنا إلى السينما من حيث موضوعاتها وجدناها تنقسم إلى قسمين كبيرين: قسم يقصد منه التسلية على اختلاف ألوانها وأشكالها. وقسم ثقافي ويشمل الأنباء والأخبار والموضوعات العلمية من زراعية واقتصادية والموضوعات التاريخية لعرض الحوادث والأبطال وهكذا.

ولو عدنا إلى الإحصاء أيضًا لوجدنا أن الأغلبية الساحقة هي من القسم الأول، فقد زادت عن 90%، منها 25% فيلمًا لعرض الجرائم، و25% للعلاقات الجنسية، و16% كوميديا مضحكة، وباقيها أفلام حرب وموضوعات أطفال.

ومن الإنصاف أن نقرر أن هذا الإحصاء وهذه النسب كانت قبل الحرب الأخيرة. والزمن يعمل في السينما عملًا سريعًا كسرعته، عجيبًا كطبيعته، فالموضوعات التي يقبل عليها

الجمهور اليوم يعرض عنها غدًا، وعواطف الناس تختلف أيام السلم عنها أيام الحرب، وهي في البيئة الديمقراطية، غيرها في البيئة النازية أو الشيوعية وهكذا. ولعل الموضوع المستقر الخالد الذي لا يعتري الناسَ منه ملل أو ضجر في كل الأزمنة وكل الأمكنة، هو موضوع «الحب». فشاب قابل شابة، وشابة قابلت شابًا فكان بينهما من العلاقات ما يسمّى حبًّا، وتكونت حول هذه العلاقة هالة من خيالات وأوهام ووصل وهجر وانتقام. فهذا هو الموضوع الخالد من عهد آدم وحواء إلى عهد الأفلام الصامتة والناطقة، والإقبال عليه لا ينقطع. ومناظره لا تمل، في سلم أو حرب، وفي نظام ديمقراطي أو شيوعي.

والنقطة الهامة التي يتوقعها القارئ هي أثر السينما في أخلاق الشباب، وهل نشجع السينما أو نقاومها؟

لقد وجه كثير من مدارس علم النفس بحثه إلى هذا الموضوع يدرسه علميًّا كما تدرس المواد في معامل الطبيعة والكيمياء. وأتبعت كل مدرسة منهجها الخاص بها -درست مدرسة أثر السينما في نوم النظارة مع اختلاف أسنانهم أطفالًا وشبانًا وكهولًا. ولاحظتهم في نومهم عقب رؤيتهم روايات مختلفة الموضوع. فشاهدت حركات غير عادية من بعض، وأرَقًا من بعض، وتأثر البعض بموضوعات دون بعض.

واعتمدت مدرسة أخرى على استكتاب بعض طلبة الجامعات تقارير عن حالتهم عقب رؤية الأفلام. وهكذا مما يطول شرحه.

ودرست مدرسة أخرى أثر السينما في أخلاق الشبان في بعض الجامعات وقارنت بين الطلبة الذي يذهبون إلى السينما ثلاثة مرات في الأسبوع والطلبة الذين يذهبون مرتين في الشهر أو أقل، فرأت أن الأولين أميل إلى مشاهدة الرقص ودور الملاهي، والآخرين أميل إلى الجدّ في دروسهم، وأن الأولين أميل إلى أن يكونوا مغامرين ورجال أمال، والآخرين أميل إلى أن يكونوا أطبّاء ومدرّسين ونحو ذلك.

وقد اتخذ بعض رجال الأخلاق ورجال الدين -في كل الأمم- ذلك ذريعة إلى الطعن في السينما والتشهير بها، وذكروا أمثلة كثيرة من شبان تعلموا الإجرام من قصص السينما الإجرامية، وشبان تعلموا المغازلة من روايات السينما الغرامية، وأن السينما كانت مدرسة سيئة لكثير من الشبان والشابات، تعلم فيها كل صنوف الشرور، فهي تثير الغرائز الكامنة

وتفجّر الغرائز المكبوتة، وتعلم وسائل الشر لمن يريد الشر ولا يعرف وسائله، ونحو ذلك.

ولكن ما هكذا توزن الأمور وتقدر ويحكم عليها، إن مثل من يقول هذا كمثل من يقترح إلغاء السكك الحديدية؛ لأن القاطارات تدوس بعض الناس، ويغلق الجرائد والمجلات؛ لأن منها ما يتهجم على الأعراض ويقذف الأبرياء، أو يقترح أن يسلب الناس حريتهم؛ لأن بعضهم منح الحرية فأساء استعمالها، وهكذا، وإنما يقوَّم الشيء بخيره وشره معًا ومنافعه ومضاره جميعًا، وأي شيء في الدنيا خلا من عيب؟

* * *

لا يصح أن ننسى السينما مدرسة ثقافية بما تنشر من أفلام اقتصادية وزراعية وصحيّة ونحو ذلك، حتى أفلام التسلية والترفيه لا تخلو من ثقافة فنية وأدبية، أو على الأقل معرفة بما يجري في العالم من شؤون اجتماعية، وربما فعل فيلم اقتصادي، أو زراعي، أو صحّي، ما لم تفعله المدارس، فإن أساءت الأفلام أحيانًا فكما تسيء المدارس ببعض تعاليمها أحيانًا.

والمقاييس الأخلاقية التي قام بها بعض علماء النفس ـ والتي أشرنا إليها من قبل ـ ليست دقيقة ولا متناولة جميع النواحي. قد يكون حقًّا أن الطلبة الذين يذهبون إلى السينما ثلاث مرات في الأسبوع أسوأ خلقًا وأقل في الحياة جدًّا، ولكن هل هذا بتأثير ذهابهم إلى السينما ثلاث مرات أو أنهم يذهبون ثلاث مرات إلى السينما لأنهم أسوأ خلقًا وأميل إلى اللهو؟ فالحق أن السينما تعكس ما عند الإنسان من غرائز وميول وشذوذ واتجاهات أكثر مما تكون خالقة لها ومصدرًا لتكوينها، بدليل أن الفيلم الواحد قد يؤثر في متفرج أثرًا سيئًا جدًّا، ويؤثر في زميله الذي يجلس بجانبه أثرًا صالحًا جدًّا [من الوافر]:

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الزُّلالا[1]

والمغني يغني وكل يبكي على ليلاه.

ولسنا ننكر مع هذا ما للسينما من أثر صالح أو فاسد. فكم رسمت للشبان مثلهم الأعلى في الطموح إلى حياة البذخ والترف والنعيم، ورسمت لآخرين حياة الجدّ والنجاح في العمل، وللمستعدين للإجرام مغامرات المجرمين، وكم رسمت الفتاة صورة جميلة لحياة زوجية سعيدة وخففت عن نفسها ألم العزلة والفراغ، أو صوَّرت لها أن تكون يومًا من الأيام بطلة لقصة غرام، وهكذا، ولكن مثل السينما في ذلك مثل الجرائد والمجلات، تقول الحق والباطل،

(1) البيت للمتنبي في ديوانه 3/ 344.

وتوجه التوجيه الصالح والفاسد، ومثل الإذاعة تقص القصة النافعة والضارة، وتذيع الأغاني الحلوة والمرة.

* * *

إن الإذاعة والسينما والصحافة في كل أمّة انعكاس لثقافتها وعقليتها وأخلاقها وذوقها الفني، وهي كلها نتيجة لأحداث الأمة، ونتيجة للمخترعات والمكتشفات ونتيجة لما يحدث للأمة من تطورات اجتماعية، فهي أقرب أن تعد نتيجة لعوامل من أن تعد عاملًا من العوامل، أو هي كما يقول الفلاسفة قابلة أكثر منها فاعلة، ولكنها لا تخلو من أثر فعّال وتوجيه قوي.

من أجل هذا -أعني لما لها من أثر فعال- يجب على الحكومة مراقبتها، فقد تصلح أفلام لسنٍّ دون سنٍّ، وقد تصلح في ظروف دون أخرى، وقد تدعو إلى التهتك وقد تدعو إلى هدم ما هو عزيز على الأمة من دين وقومية... إلخ.

ثم إن كانت الحكومة يقظة راقبتها من ناحية أخرى، وهي ناحية تعادل موضوعات الأفلام، فلا تكون كلها غرامًا بحتًا أو غرامًا وإجرامًا، بل لا بد أن تغذي بمقدار معقول من الثقافة؛ وبعض البلاد الراقية اشترطت على كل دار من دور السينما أن تعرض في كل مرة فيلمًا ثقافيًا يستغرق عشر دقائق على الأقل.

إننا نراقبها كما نراقب الفاكهة تأتي من الخارج، فقد تكون متعفنة أو ملوثة، ونراقبها كما نراقب النقود في الداخل فقد تكون مزيفة.

* * *

هل يشيخ الأديب؟

نعم، كل شيء -متى عاش- يشيخ، حتى الجبال في صلابتها، والأشجار في ضخامتها، والفيلة في جسامتها، والأسود في قوتها.

ولكن يختلف الأفراد في لبس ثياب الشيخوخة، فمن الشباب من يسرع به ضعفه فيرتديها، ومن الشيوخ من يحتفظ بنضارته وفتوته فيصارع الشيخوخة زمانًا يطول أو يقصر، ثم يضطر إلى لبسها رَغم أنفه - وفي ذلك يقول الشاعر [من البسيط]:

يـا عـزُّ هـل لـكَ فـي شـيـخٍ فـتًـى أبـدًا
وَقَـدْ يـكـونُ شـبـابٌ غـيـرُ فـتـيـانِ؟

ومن أظهر صفات الشيخوخة ضعف الحيوية. وهذا الضعف يُعرِّض لكثير من الألم والضجر والقلق، واستعظام المشاكل ولو كانت صغيرة، واستكبار الأمور ولو كانت تافهة. قد لا يجد الشاب مالًا ينفعه، ولا ثوبًا يتجمل به، ولا مسكنًا يريحه، ثم قد يجد من مشاكل الحياة ما يتعب أو يضني، ولكن حيويته تهزأ بذلك كله، وتسعد في الشقاء، وتنعم في الجحيم، وتضحك الضحكة العالية من أعماق القلب ولو لم يجد صاحبها ما يسد رمقه، ويحجز له محلًا في «مغنى» ولو لم يكن يملك إلا ثمن التذكرة. أما الشيخ فليس عنده هذا التعويض من الحيوية، ومن أجل هذا يؤلمه الحرمان ويقدر المال أكثر مما يقدره الشاب، ويزيد حرصه عليه، لشعوره بحاجته الشديدة إلى ما يوفر عليه الراحة، وظنه أن المال يحقق له هذه المطالب حاضرًا أو مسقبلًا. وحيوية الشباب تجعله مرنًا، يواجه الأحداث المختلفة، ويلون نفسه بالألوان المناسبة لها. يستطيع أن يتقلب مع الغنى والفقر، والوصل والهجر، والأمل واليأس، والصحة والمرض، من غير أن يذلّ لها أو يستكين لسلطانها. فهو رافع الرأس ما دامت حيويته، متفتح النفس ما احتفظ بشبابه.

أما الشيخ فقد تحجّرت عاداته وتقاليده، وأصبح يعيش على تجارب الماضي من غير أن تؤثر فيه تجارب جديدة، وتحجرت آراؤه وأفكاره ومذاهبه الدينية والسياسية والاجتماعية، فهو لا يقبل تشكلًا جديدًا، كالطينة جفَّ ماؤها فتصلّبت مادتها، فإن حاولت تجديد شكلها وتغيير

صورتها كسرت في يدك ولم تعد تصلح لقديم أو جديد.

وأخيرًا، إن حيوية الشباب تقاوم الخوف وتصدّه. ومن أجل هذا كان كثير المغامرة والمخاطرة، يغامر بنفسه في الألعاب الرياضية والرحلات الشاقة الخطيرة، ويقدم على الأعمال التي قد تودي بحياته، ويغامر بماله فيدخل في الصفقات التجارية التي قد ترفعه إلى أعلى عليين أو تهبط به أسفل سافلين؛ على حين أن الشيخ -لضعف حيويته- ينهزم أمام الخوف، لا يغامر ولا يخاطر، كثير الحذر، يخاف الفقر لأنه ليس له من الحيوية ما يستطيع به أن يعوضه، وهو يحسب ألف حساب للمستقبل، ويخالف الموت لإحساسه قرب أجله، ولشعوره بغموض مآله، ويخاف كل مشكلة لأنه لا يأنس من نفسه القوة على حلّها. وعلى الجملة، فالخوف يهاجمه من كل جانب، وكثيرًا ما يفترسه.

* * *

ومن حسن الحظّ أن الشيخوخة لا تنال قوى الإنسان وملكاته وحواسه في زمن واحد ولا دفعة واحدة، ولا بنسب واحدة، ولا تحرم الإنسان لذائذه في الحياة جملة. فبعض الحواس والقوى أسرع إلى الشيخوخة من بعض، وبعض اللذائذ أسرع إلى الاختفاء والزوال من بعض. لقد صدق «معاوية بن أبي سفيان» إذ وصف نفسه -بعد أن استمتع بكثير من لذائذ الحياة- بأنه لم يبقَ له في شيخوخته منها إلّا الاستمتاع بالحديث الطيب.

ومن المشاهد أن اللذائذ العقلية والروحية والفنية أبقى زمنًا، وصاحبها أطول استمتاعًا، وقواها وملكاتها أبطأ شيخوخة. كل لذة مادية -إن صح هذا التعبير- لها حدٌّ ضئيل، إذا تجاوزته تقزّزت منه النفس وانقلب ألمًا... كلذّة الأكل والشرب وما إلى ذلك. وقد يتطلب الإنسان أقل منها شأنًا فرارًا من تكرارها، كما تطلب اليهود العدس والبصل فرارًا من المن والسلوى، وكما يطلب بعض المسرفين على أنفسهم في لذائذ المدنية الحديثة الفرار منها إلى المعيشة البسيطة في الصحراء أو الأديرة أو الأماكن المهجورة.. وهذه اللذائذ هي أقرب ما تعدو عليه الشيخوخة. وليست كذلك اللذائذ العقلية والروحية والفنية؛ فالفيلسوف والرجل الروحي والفنان من أديب أو موسيقي أو مصور أو نحات، يستطيع أن يستوعب من هذه اللذائذ المعنوية أكثر مما يستوعبه المتلذذ المادي، ثم إن ملكاتهم كثيرًا ما تستعصي على الشيخوخة، فلا تنالها إلا بعد جهد.

* * *

كم من الفلاسفة والمصلحين والفنانين طالت حياتهم وشاخت أجسادهم، وبقيت فتيةً ملكاتهم!

وأحيا مثل ذلك برناردشو وهو في الثالث والتسعين من عمره، شيخ هرم في جسمه، محروم من أكثر لذائذه المادية، ولكنه شاب فتي في ملكاته الفنية ولذاته المعنوية، وإنتاجه الأدبي. لقد شاهدنا «حافظًا» و«شوقي» و«خليل مطران» تهدمت بنيتهم الجسمية وتحطمت قواهم البدنية، وبقيت لهم وللناس حياتهم الأدبية.

قد يحسن الأديب الشاب ما لا يحسن الأديب الشيخ، ولكن من نعم الله أن تنوع الأدب وعناصره بما يناسب الشباب والشيوخ، إن الغزل الحار الرقيق لا ينتج -في صدق- إلا عن عواطف مشبوبة لا يحسها إلا الشباب، فهم الذين يدركون تمام الإدراك لذة الوصل وألم الهجر وعذاب الحب وضناه، فيصوغون كل ذلك في أدب صافٍ راقٍ صادقٍ، فإن تعرض لذلك الشيخ، كان أدبه أدبًا تقليديًّا، أو على حساب الذكريات، ولكن ليس هذا كل الأدب؛ فهناك أدب القصة الفسيح المتعدد النواحي المستمد من التجارب؛ وهذا قد يحسنه الشيخ أكثر مما يحسنه الشاب. وهناك أدب المقال الرزين الذي يسود فيه عنصر العقل عنصر العاطفة، وهذا ميدان قد يجلي فيه الشيخ أكثر مما يجلي فيه الشاب وهكذا. ولكل عنصر في الأدب مزاياه، ولكل نوع من الأدب فضله... والأدب مائدة شهية لذيذة لا تجمل إلا بتعدد الألوان، أو جوقة موسيقية تبعث الشَّجَا بما تنتج من مختلف النغمات والألحان.

* * *

السيف والمدفع

هما اللغة التي يفهمها الغرب...

ما أحوج الشرق الآن إلى أن يفكر تفكيرًا طويلًا عميقًا في تربيته الحربية، ووضع خططها ومناهجها ووسائل تنفيذها، فقد تبين له بوضوح أنه -بدونها- حَمَلٌ بين ذئاب، وغنيمة أمام لصوص، ولا تزال طبيعة الناس كما وصفها الشاعر العربي القديم [من البسيط]:

تعدو الذئابُ على من لا كلابَ لهُ ... ونَتَّقي صَوْلَةَ المُسْتَأْسِدِ العادي

كما ظلَّ صادقًا قول الشاعر [من الطويل]:

متى تَجْمَعِ القَلْبَ الذَّكِيَّ وصارمًا ... وأنفًا حميًّا تَجْتَنِبْكَ المظالمُ[1]

وكما يصدق هذا على الأفراد يصدق على الأمم، فالأمة إذا لم تكن ذكية القلب -أو كما نعبر اليوم- عارفة بأساليب الأمم السياسية والاجتماعية، وبالتيارات والاتجاهات العالمية، وما لم تكن تحمل سيفًا أو -على حدّ تعبيرنا اليوم- ما لم تكن مسلحة التسليح التام، وما لم يكن لها أنف حمي -أو كما نعبر اليوم- ما لم تكن عزيزة مرهوبة الجانب، ما لم تكن كذلك فإنها تكون طعمة الطاعم، ونهبة الظالم، وفريسة المعتدي، ولا ينفعها -قدر أنملة- ما تنادي به من طلب مراعاة العدل، والاستغاثة بالإنسانية، والضمير العالمي، والاستصراخ بالمبادئ. فالعدالة الإنسانية والمبادئ، إنما تطبق -إذا طبّقت- على الأقوياء لا على الضعفاء، وعلى من استند في دعواه إلى السلاح، لا إلى الصياح.

والتربية الحربية التي يجب أن يترباها الشرقي، يجب أن تكون على أحدث منهج وآخر طراز، فلا نحاربُ القنبلة بالسيف، ولا الغواصة بالسفينة الشراعية، ولا الدبابات المصفَّحة بالطوابير الراجلة، فهذا لا يسمى حربًا، ولكن إلقاء بالأيدي إلى التهلكة، وكذلك الشأن في النظم الحربية.

---

(1) البيت لعمرو بن براقة في أمالي القالي 2/ 122.

لقد تطورت هذه النظم في كل شيء تطورًا كبيرًا يفوق ما تطوره أي نظام اجتماعي آخر، حتى إن كل حرب في العصور الحديثة كانت تقلب الأوضاع الحربية رأسًا على عقب، وتحل الجديد فيها محل القديم، والأمم تتسابق في التجديد علمًا منها بأن النصر مكفول لمن وفق إلى التجديد النافع.

لقد كانت الجندية تعتمد كل الاعتماد على سلامة الحواس، وقوة الجسم، وانفتال العضلات، وما إلى ذلك، فأصبحت تعتمد أيضًا -بتغير آلات الحروب وأساليبها- على الحالة العقلية والنفسية للجنود. وعلى هذا الأساس أنشئت مكاتب الامتحان لمن يهيأ للجندية، فيمر المرشح لها بمكتب الامتحان الجسمي -أولًا- فيمتحن قلبه وصدره وقوة عضلاته وسمعه وبصره وسائر أعضائه، ثم يحلل بوله... إلخ؛ فمن لم ينجح في هذا الامتحان استبعد، ومن نجح فلا بد أن يمرّ بامتحان آخر عقلي، فيختبر في مقدار استعداده للتعلم، ومدى حلّه للمشكلات والصعوبات التي تعرض له، ثم يمتحن امتحانًا نفسيًّا في مزاجه وعواطفه وقوة احتماله للصعاب؛ فمن نجح في هذه الاختبارات كلها قسم إلى أقسام مختلفة حسب هذه الكفايات، وعهد إلى كل مجموعة من الأعمال الحربية ما يتناسب ومدى كفايته.

ومن ناحية أخرى، كانت الأمم في حروبها القديمة تعتمد على الجيش كأنه وحدة قائمة بذاتها، عليه أن يحرز النصر بمجهوده وحده، ثم تطورت المسألة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر من فكرة «جيش محارب» إلى فكرة «أمة محاربة»، وأصبح الجيش من الأمة بمنزلة عقارب الساعة من الساعة، فما لم تنتظم آلات الساعة الداخلية لا يمكن أن تدل العقارب على الوقت الصحيح. فالجيش إذا انتصر، فبفضل الأمة أولًا، وأعماله هو ثانيًا؛ وإذا انهزم، فبإهمال الأمة أولًا، والجيش ثانيًا.

وللأمة في الحروب وظائف مادية ووظائف نفسية وخلقية، فلا بد أن تكون لها مصانع وحقول ووسائل مواصلات ونحو ذلك، تمون الجيش حتى يؤدي عمله على خير وجه، وتمون الشعب حتى يطمئن إلى موقفه، وبذلك تأمن الحكومة داخلها وخارجها. كذلك يجب تقوية الروح المعنوية في الشعب؛ وبغيرها لا يمكن أن ينجح جيش في الحروب الحديثة؛ وعماد هذه الروح المعنوية القدرة على التضحية في سبيل نصرة الجيش، وتعاون الهيئات والأحزاب والطبقات من موظفين وصنّاع وتجّار وزرّاع، فتؤدي كل طبقة واجبها حسب خطة عامة مرسومة، وذلك كله لا يتم إلا ببرنامج للتربية الشعبية يشمل الأسرة وإصلاحها، وتغذية آبائها

وأبنائها بالروح الحربية والنزعة الوطنية. ثم نشر الثقافة الشعبية بين أفراد الشعب، وبخاصة معرفة تاريخه في نزاعه الخارجي، وما يريده خصومه منه وما يريد هو أن يكون، وتوضيح الغرض المنشود توضيحًا يملأ العقيدة والقلب والنفس حتى يختلط بدمه، ثم تعويده الثقة بنفسه، والثقة بمواطنه، والثقة بحكومته.

أما إن ظلّت الأمّة مبعثرة، عيّابة، ظنّانة، فاقدة الأمل في مستقبلها، معتمدة على المطالبة بقوانين العدل وما وضعته أوروبا وأمريكا في ساعات الحرج من مبادئ، تقولها ولا تؤمن بها، قانعة بموقفها الذليل، جاهلة بشؤونها وشؤون العالم حولها وما يدبر لها في الخفاء، باردة العواطف نحو مستقبلها وتحقيق عزتها، يعادي بعضها بعضًا ولا تعادي أعداءها... إن ظلت الأمة على هذه الحال، فلا يمكن أن تظفر مهما يكن عدد جيشها وسلاحه وقوته.

* * *

وهذه التربية الحربية إذا فشت في أمة غيّرت أخلاقها ونفوسها ومشاعرها، ونقلتها من حال إلى حال؛ فهي تعلمها النظام والطاعة بما اكتسبت أيام التمرن على حياة الجندية، وهي تعلمها التضحية بما ترى من جنود وقادة يبذلون دماءهم وأرواحهم للمحافظة على كيانها وإعلاء شأنها، وهي تعلمها احتمال الشدائد والصبر على المكاره بما تلاقي من عذاب وتواجه من أزمات أيام الحرب والاستعداد لها، وهي تعلمها الاستهانة بالموت وعدم الحرص على الحياة لكثرة ما ترى من ضحايا وما تسمع من أخبار الكوارث، وهي تغسل الأدران التي تعلق بالأمة بسبب ركودها وحياتها السلمية الناعمة، فتقضي على الخلافات الحزبية التافهة والنظر إلى صغائر الأمور دون عظائمها، وتحتقر الزعماء الذين ينظرون إلى أنفسهم لا إلى أمتهم، وهي تزيد من روابط المحبة بين طبقات الأمة المختلفة، إذ يرون أنهم كلهم أكتووا بنيران الأحداث، وتعاونوا جميعًا على الشدائد، وضحّوا جميعًا لبلوغ الغاية التي ينشدونها، وهكذا مما يطول شرحه. وعلى الجملة، فالأمة الحربية أقوى نفسًا، وأقوم خلقًا، وأصحّ جسمًا وأصلح للبقاء.

لقد مرّ زمن طويل على الشرق لم يهيأ فيه لحرب ولم يربَّ تربية حربية، وذلك منذ أن استعمره الغرب؛ لأن المستعمر -بطبيعة الحال- يكره ممن يستعمره أن يظهر بأي مظهر من مظاهر القوة، خشية أن ينقلب عليه يومًا ما، فإن سمح يومًا بتكوين جيش من الأمة المستعمرة فجيش صوري: ملابس جميلة، حركات رشيقة، ونظام دقيق يبهر الناظر يوم العرض ولا يبهره يوم الحرب؛ فأما روحه الحربية، وأما تعليمه أحدث الأساليب، وكيف يستخدم أحدث

الآلات، فحرمته تحريمًا باتًّا. تريد الدولة المستعمرة من الجندي الشرقي أن يصلح للسير في حفلة «محمل أو احتفال في مولد» ولا نريده صالحًا لميدان قتال، هذا شأنها مع الجندي وكذلك شأنها مع الشعب، لا تريده موحدًا منسجمًا بعضه مع بعض، ولا تريده يشعر بعزة ولا يطمح لاستقلال، وإنما تريده منحلًا متفرقًا ذليلًا.

فلما بدأت الشعوب الشرقية تحمل عبئها وتشعر بكيانها، كان لا بد لها أن تولي عنايتها للتربية الحربية في جنودها وشعوبها، في أجسامها وعقولها وشعورها، وهو مطلب عسير شاقّ. ولكن لا بدّ مما ليس منه بُدٌّ، فالحمَل الوديع لا يصلح للعيش وسط الذئاب، والمستصرخ بالعدالة لا يسمع له إلا إذا حمته الغواصات والدبابات والطيارات، ونحن في عصر خير لك فيه أن يقال: إنك ظالم من أن يقال إنك مظلوم، «والمؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف».

* * *

في الهواء الطلق

التعصب

كانت ثلاثة أيام لطيفة قضيناها على شاطئ البحر، الجو معتدل يميل إلى البرودة، والسماء صافية، والشمس ساطعة، وبحر هادئ، وكل شيء حولنا جميل، ونزلت أنا وصاحب في فندق على البحر في رمل الإسكندرية، ننعم فيه بالهدوء وجمال المنظر... والأناقة تبدو في كل ما حولنا.

ها نحن في الصباح في حديقة الفندق، بعد أن تناولنا فطورنا، نقرأ الجرائد، وبعد أن فرغ صاحبي من قراءتها، وضعها وإذا هو يقول: «شر ما يُبْلى به اليوم التعصب»، ولا أدري ماذا بعثه على هذا القول مما قرأ... فقلت: إن التعصب كلمة مصطنعة أطلقها الإفرنج علينا ظلمًا وعدوانًا ليصرفونا عن التمسك بديننا والاحتفاظ بقوميتنا، فإذا قاومنا أعمال المبشرين قالوا تعصب، وما هو إلا حماية ديننا من الاعتداء عليه، وإذا وقفنا في وجه الاستعمار، وثُرنا من أجل استغلالنا واستبعادنا قالوا تعصب.. وما هو إلا المحافظة على كياننا والرغبة في التمتع بحرياتنا، وهم يتمسكون في بلادهم بأشد مما نتمسك به في المحافظة على دينهم وقوميتهم، ولا يخطر ببالهم أن يسمّوا هذا تعصبًا. وإذا صحّ إطلاق القول، فهم أولى به منا.. إذ يدعوهم تعصبهم لدينهم إلى نشره بيننا وحماية التبشير بالقوة، ويدعوهم تعصبهم لقوميتهم إلى فرض الاستعمار علينا بالسلاح.. فهل نحن المتعصبون؟

هو: قد يكون هذا القول صحيحًا، ولكن ليس هذا الذي أريد، إنما أريد التعصب الداخلي فيما بيننا، ويظهر ذلك في الجمعيات الدينية، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية، فكل جمعية دينية ترى أنها هي التي على الحق، ومن عداها فعلى الباطل.. وتخاصم من عداها، وقد ترميه بالكفر والإلحاد، وقد تنفذ آراءها بقوة السلاح، وكل حزب سياسي يتعصب لحزبه، ويرى كل ما يصدر عنه حقًا، ولا يرى أي حق فيما يصدر عن الأحزاب الأخرى؛ ويتمثل ذلك في قول قائلهم: «الحماية على يدنا خير من الاستقلال على

يد غيرنا»، وكل هيئة اجتماعية ترى أنها الوحيدة في فعل الخير وفي الإصلاح. . أما ما عداها من الهيئات فأداة فساد، هذا هو التعصب الذي أعنيه وأكرهه وأمقته، وأدعي أنه كارثة من أكبر كوارثنا.

أنا: ولكن علّمني أستاذي سقراط أننا قبل أن ندخل في الحوار نحدّد الموضوع، فما الذي تعني بالتعصب؟

هو: إنما أعني به الغيرة العمياء، وأعني بالعمياء أنها غيرة لا تصدر عن تفكير هادئ، ولا منطق سليم. . وإنما تصدر عن تقليد من غير نظر، أو عقيدة من غير تفكير، أو تلقين من غير بحث، وهذا مرض نفسي له أعراض ككل الأمراض، وأهم هذه الأعراض ثلاثة تظهر مجتمعة لا متفرقة:

أولها: ضيق النظر، فليس يرى المتعصب إلا ما اعتقده أو لقنه أو ألقي في روعه. . أما ما عداه فهو يكرهه من غير تفكير، ويمقته من غير أن يصغي إلى حججه، قد وضع أمام عينيه ما اعتقد، وأبى أن يروي أي شيء عداه، فمهما قال مخالفه فهو باطل قبل أن يدلي بحججه، ومهما قال مؤيده فهو حق ولو لم يأتِ ببرهان، قد عكس الوضع الطبيعي، فوضع العربة أمام الحصان، فهو يرى الرأي أولًا، ثم يتلمس البراهين لتأييده ثانيًا؛ وهو يحب كل شيء يقوّي رأيه، ويكره من صميم قلبه كل شيء يعاكسه. وقد يغلو في ذلك حتى يصبح أشبه ما يكون بالمجنون.

وثاني الأعراض: حبه القوي لغلبة فكرته أو عقيدته وهزيمة لآراء المعارضة واندحارها، ليس عنده أي شيء من التسامح فيما يخالفه من آراء، حتى كأن مخالفه قد قتل قتيلًا له، فهو يريد الأخذ بالثأر منه، فهو متحمس هائج يريد أن يقضي على من يخالفه بكل ما لديه من قوة، ويكون هذا في المعتقدات الدينية وفي الأحزاب السياسية وفي النظريات الاجتماعية على السواء؛ فالمتعصب الديني كاره لمن خالفه، متحمس للقضاء عليه أو على فكرته، والمتعصب الحزبي لا يرى خيرًا إلا ما أتى من حزبه، وأما ما أتى على يد الأحزاب الأخرى فشرٌّ محضٌ يجب أن يقاوم بكل ما استطاع من قوة. . ولو بإفساد النظام وإشاعة القلق والاضطراب، وهكذا الشأن في النظريات السياسية، كالنزاع بين الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية والنازية وأمثالها، يتحمس معتنقوها حتى يصل التحمس إلى سفك الدماء.

وثالث الأعراض: أن هذه الغيرة العمياء والحماسة الخرقاء تجعل صاحبها لا يقدر ما ينزل بالآخرين من آلام، ولا ما يحل بهم من كوارث، فلا يرى إلا تحقيق فكرته مهما أَلِمَ

الناس؛ تطغى رغبته في الفكرة على كل ما لديه من عواطف، فهو قاس جبّار يتشفى بعذاب الناس وإيلامهم في سبيل تحقيق فكرته، ويظهر ذلك بأجلى مظهر من الناحية الدينية في محاكم التفتيش، ومن الناحية السياسية والاجتماعية في الثورة الفرنسية. ففي كل ذلك صار التعصب غيرة يلهبها الحقد.

* * *

وتركنا مقاعدنا، وسرنا على شاطئ البحر نتمم حديثنا.

أنا: ألست ترى أن هذا هو الجانب الأسود من التعصب وأن له جانبًا آخر جميلًا؟ فكثير من ضروب الإصلاح أتت على أيدي متعصبين، اعتنقوا فكرة وتعصبوا لها، ورأوا الخير فيها، وتحمسوا لها وتحملوا العذاب في تحقيقها، وكثر أشياعهم وأتباعهم حتى عمَّ الإصلاح. فالحكم على التعصب كما يؤخذ من كلامك بأنه شر محض، مبالغ فيه، والعقيدة ما لم تصهرها حرارة الإيمان لا قيمة لها، والفكرة ما لم يتحمس لها صاحبها وما لم تأخذه الحمية لها وما لم يدعُ إليها في غيرة واحتمال آلام لا تكون ذات قيمة.. وهذا ضرب من التعصب الذي تبغضه.

هو: قد يكون في هذا شيء من الحق، ولم أدَّعِ أن التعصب شر محض، فليس في الدنيا شر محض، وكل ما في الحياة -ماديًا كان أو معنويًا- مزيج من الخير والشر، ونتائجه كذلك.. وإنما نكره الشيء ونحكم عليه بالشر؛ لأن مضاره أكثر من منافعه والعكس. والتعصب شر ما منيت به الإنسانية، والمتعصب لا يرى خيرًا إلا ما لقنه من غير تفكير ولا برهان، وهو بذلك ينقلب وحشًا ضاريًا، ويصبح وليس أمامه إلا تحقيق نفسه. وينقلب أنانيًا بغيضًا يتحدّى الأفكار المخالفة في عنف، ويريد أن يفرض على الناس رأيه بالقوة لا بالإقناع، وأي ضرر بعد هذا. إن المتعصب أبعد ما يكون عن معنى الإنسانية، إنما المصلح الحقيقي من اعتنق الفكرة بعد بحث وتمحيص، وتحمس لها في عقل واعتدال، وحاول بث دعوته عن طريق الإقناع والبرهان لا عن طريق القهر والغلبة.

ويدلنا التاريخ على أن التعصب كثيرًا ما يسير سيرًا وبائيًا كالطاعون، فينشر المرض في سرعة عجيبة، وخاصة في الجماعات التي ليس لها رأي عام متنور، ويزيد في انتشار هذا الوباء أن يكون للجمعية الدينية أو الحزب السياسي شعائر ومظاهر تتفق وعقلية العامة في الشعوب الساذجة. وعندما تنتشر هذه الفكرة الناشئة عن التعصب، يفقد جمهور المعتنقين لها الشعور بالمسؤولية.. فيأتون من الأعمال ما لا يأتيه الفرد العادي منفردًا في حالة وعيه. وقد

ينضم إلى الفكرة أفراد مهذبون على درجة ما من الرقي العقلي بسبب قوة التيار وما في الفكرة أحيانًا من بريق ولمعان، وإذ ذاك يكون الخطر، ويصبح الناس في حالة هستيرية كالتي كانت في محاكم التفتيش وفي الحروب الصليبية، وأكرر القول بأن هذه هي الأعراض في الجمعيات الدينية والأحزاب السياسية على السواء.

أنا: هل تضع أمام عينك وأنت تتكلم هذا الكلام طوائف وأحزابًا خاصة تستلهم منها هذه الآراء؟

هو: قد يكون ذلك، وقد يكون مبعث هذا ما قرأته في جرائد اليوم.. ولكني قد ارتفعت في تفكيري عن الجزئيات وحلقت في سماء الكليات.

أنا: هذه هي عادتك دائمًا، تفلسف كل شيء حتى تجعل من الحبة قبة، ومن القطرة مطرًا، ولكن أترى أن هذا الأمر مقصور على الشرقيين؟

هو: كلّا.. إني أرى أن دور التعصب هذا دور طبيعي، تمرُّ فيه كل جماعة كما يمرُّ كل إنسان في دور الطفولة، فإذا اتسع أفقه، وزاد علمه، وتأصلت حريته، لم يعد التعصب يجد مجالًا لنموه، ولا ميدانًا يسبح فيه.

أنا: ما دمت تتفلسف فلْأتفلسف.. ويخيل إلي أن فلسفتك كانت فلسفة نفسية أو سيكولوجية، فلْأتفلسف أنا فلسفة اجتماعية، فأقول: إن هذا التعصب إنما يسير كما ذكرت سير الوباء في بيئة اجتماعية صالحة له، كأن يشيع فيها الفقر والبؤس وسوء الحال وكثرة الضغط وقوة الاستبداد، فتكون هذه الأشياء كلها مرعى خصيبًا تسود فيها الفكرة المتعصبة، ويدخل الناس فيها أفواجًا، وقد يكون كثير ممن يدخلونها لا يؤمنون بها.. ولكن لما رأوها تدعو إلى القلق والاضطراب، أحبوا القلق والاضطراب لأنهم يمنون أنفسهم بإصلاح الحال بعد زوال الاضطراب.. فيشتركون مع أصحاب الفكرة في النتيجة وإن لم يشتركوا في الأسباب والعقيدة. وإذا كان تشخيصك للمرض نفسيًّا وعلاجك له علاجًا نفسيًّا، فتشخيصي له اجتماعي، وعلاجي له علاج اجتماعي. فلنتَحَرَّ أسباب القلق والاضطراب ونزلها، يترتب على ذلك حتمًا حصر المرض في بقعة معينة وعدم سيره سير الوباء.

إن كان منهج فلسفته النفسية يرسم العلاج بنشر العلم الصحيح بين الأفراد وتأسيس منهج تربيتهم على البحث والتفكير والشك والتجريب وعدم سرعة التصديق، فليكن منهج فلسفتي الاجتماعية نشر العدالة الاجتماعية وتأمين الناس على مصالحهم وحرياتهم وتحقيق العدل

بينهم، فإذ ذاك يتعاون مع الإصلاح النفسي الذي تذكره والإصلاح الاجتماعي الذي أنشده على قطع دابر التعصب، وإحلال التسامح اللطيف محل التعصب السخيف.

* * *

وشعرت بأن هناك عدم انسجام بين هذا الجو وهذا الحديث، فالجو فرِح مرِح ونحن جادون، والبحر يضحك ونحن عابسون، والنسيم يداعبنا ونحن لا نجاوبه، وانتهزت فرصة رجوعنا إلى الفندق فحولت الحديث إلى غزل في الجو وصفائه، وابتهاج بالمنظر وجماله.

* * *

مظاهر الحياة العقلية للمسلمين اليوم

(1)

أول ما يتبادر إلى الذهن السؤال عن معنى الحياة العقلية، وأقرب جواب على ذلك أنها هي الثقافة. فالحياة العقلية لأمة هي ثقافتها، وهذه الثقافة تشمل الحياة العلمية والدينية والسياسية والفنية. فإذا أردنا أن نصف الحياة العقلية لأمة أو أمم وجب أن نصف هذه العناصر جميعًا.

وعلى حسب اشتراك أمة أو أمم في الثقافة يكون الترابط، فالذي يربط الأمة ربطًا محكمًا هو اشتراكها في دينها وعلمها وفنها وسياستها. وإذا ارتبطت أمم في هذه الأمور كلها فكذلك، فإن تخلَّف بعضها كان الارتباط بينها أضعف قليلًا أو كثيرًا حسب العناصر المشتركة أو المتخلفة. فارتباط الأمة المصرية بعضها ببعض أتم؛ لأنها تشترك في جميع هذه العناصر، والارتباط بين الأمم العربية قوي متين، ولكنه لا يبلغ ارتباط الأمة الواحدة، لاختلافها مثلًا في النظم السياسية وبعض التقاليد والأوضاع، والارتباط بين الأمم الإسلامية جميعًا لا يبلغ مبلغ هذين، للاختلاف في اللغة ونظم الحكم وهكذا.

الروابط العقلية:

ومع هذا فالأمم الإسلامية على العموم يربطها من الناحية العقلية رباط متين، لوحدة الدين، وهو عامل قوي في حياة المسلمين، وللارتباط الشديد الذي كان بين العلم والدين، ولمرور الأمم الإسلامية جميعًا في أدوار من التاريخ واحدة أو متقاربة.

فتاريخ الإسلام يدلّنا على أن العرب بعد إسلامهم خرجوا من بيئتهم، وانتشروا في البيئات الأخرى، وتفاعلوا مع هذه البيئات: أثروا فيها وتأثروا بها وهضموا كل الثقافات التي كانت شائعة في البلاد المفتوحة وكوّنوا منها وحدة؛ فتشرّب العرب في مصر الحضارة المصرية وما ذاب فيها من الحضارة اليونانية والرومانية، وتشرب عرب الشام ما كان فيها من

حضارة آرامية اتصلت بحضارة اليونان وفلسفتهم، وتشرب عرب العراق حضارة الفرس، وتشرب عرب الهند حضارة الهند، ومزجوا كل هذه الحضارات وما فيها من ثقافات وصبغوها بالصبغة الإسلامية، ونفوا عنها ما لم يقره الدين الإسلامي، وصنعوا في كل ذلك ثقافة تكاد تكون واحدة للعالم الإسلامي كله وإن اختلفت لغته واختلفت بيئته واختلفت تقاليده.

تقديم الدين والثقافة على الوطنية:

وسيطرت هذه الثقافة على الشعوب الإسلامية كلها حتى تقاربت في عقليتها، حتى كانوا يقدمون ثقافتهم ودينهم على وطنيتهم؛ فالمصريون مسلمون أولًا ومصريون ثانيًا، وكذلك السوريون والفرس والهنود والمغاربة والأندلسيون، كلهم يعدون الدين واحدًا، والثقافة، واحدة وأصول الحكم واحدة، وأما ما عدا ذلك من قومية ووطنية ولغة وبيئة في المرتبة الثانية، حتى كان الرجال كالمسعودي وابن جبير وابن بطوطة وأشباههم يتنقلون في المملكة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، كأنهم يتنقلون في وطنهم، لا يحسون شيئًا من الصعوبة إلا من ناحية اللغة، فإذا سهلت اللغة سهل كل شيء، يفهم بعضهم بعضًا في دينهم وحياتهم الاجتماعية المتأثرة بالدين ونظم الحكم المتأثر بالدين أيضًا وهكذا.

وتقاربت ثقافة المسلمين في أصولها، لأن أساسها الدين الإسلامي، والثقافات المختلفة التي صهرت كلها في بوتقة العالم الإسلامي وكوّن منها مزيج واحد وزع على المسلمين جميعًا، ولذلك نرى الفارسي إذا أحسن اللغة العربية ألف بالفارسية والعربية، والهندي إذا أحسن اللغة العربية ألف بالهندية والعربية، فكان التأليف مستساغًا مفهومًا، وكان موقع كتاب كليلة ودمنة أو الشاهنامة أو نحوها قريبًا إلى النفوس سائغًا في العقول، ليس شأنها شأن الإلياذة والأديسة والفردوس المفقود ونحوها إذا ترجمت إلى العربية؛ لأن روحها غير روح المسلمين، وصادرة عن ثقافة غير ثقافتهم.

نشأة الثقافة الإسلامية:

وهذه الثقافة التي يصح أن نسميها ثقافة إسلامية نشأت -ككل حي- بسيطة ساذجة، ونمت مع الزمان، وغلب عليها أول الأمر النقل والتقليد ثمَّ الهضم والتمثيل، ثم الطابع الخاص الذي يميزها عما عداها. وهذه الثقافة الإسلامية كان لها أثر متشابه في كل الشعوب التي تدين بها وتخضع لها؛ وقد طبعت هذه الثقافة على المرونة والبساطة وتطورها مع الزمان

في أول أمرها ثم جمودها وتحجرها وضعفها بسبب ضعف النظم السياسية وظلم الحكام وفساد الحكم وانتشار الجهل، ومع ذلك فقد ظلت ذات أثر كبير في عقلية الناس ومشاعرهم، وظل لها طابع خاص متميز، وحضارة خاصة تسمى «الحضارة الإسلامية»، تمييزًا لها عن الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية والحضارة الغربية.

ظل الحال على هذا المنوال حتى اختلط الشرق بالغرب على أثر فتوح الأتراك في أوروبا وحملة نابليون على مصر، وغزو أوروبا للشرق كله، واستعمار أكثره، وانقسام العالم الإسلامي إلى مستعمرات إنجليزية ومستعمرات فرنسية ونحو ذلك، وكان هؤلاء المستعمرون يحملون ثقافتهم كما يحملون مدافعهم وبنادقهم، فيغزون العقلية كما يغزون الحياة المادية، ونشأ عن هذا اختلاط واضطراب وارتباك بين الحضارتين والعقليتين: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، والعقلية الإسلامية والعقلية الغربية.

مصادر الحياة العقلية:

وعلى الجملة فقد أصبح للحياة العقلية للشعوب الإسلامية في عصرنا الحديث مصدران: الحياة الإسلامية القديمة بآدابها وعلومها وفلسفتها وفنها، والحياة الغربية الحديثة بآدابها وعلومها وفلسفتها وفنها. وأخذ المصلحون في كل البلاد الإسلامية يدعون دعوات متشابهة عمادها أن يأخذوا من المدنية الغربية ما يناسب، وأن يأخذوا من المدنية الإسلامية ما يناسب، والإشادة ببعض نواحي المدنية الغربية والإشادة ببعض ما في الحضارة الإسلامية.

فعل ذلك مدحت باشا في تركيا والسيد أحمد خان في الهند، والسيد جمال الدين الأفغاني في فارس ومصر، وخير الدين التونسي في المغرب وهكذا، حتى كأنهم كلهم شربوا من منهل، واحد وكأن مناهجهم صبّت في قالب واحد؛ إذ ذاك أخذت الحياة العقلية للمسلمين تتغير وتأخذ بطرف من هذا وطرف من ذاك؛ ولكن نظرًا للتطورات العالمية التي كسرت الحواجز بين الشعوب، وقاربت بين أجزاء العالم بعضها وبعض، واختصرت المسافات، وسهلت الانتقالات، كان من الطبيعي أن تصل أمواج المدنية الغربية إلى الشرق متتابعة قوية، إذ ذاك أخذت الحياة العقلية للمسلمين تتأثر تأثرًا كبيرًا بالحياة العقلية الغربية؛ فأنماط التربية والتعليم، والاعتماد في جميع مرافق الحياة على العلم لا على التقاليد، وطرق البحث العلمي الغربي، ونظام الحكومات الديمقراطية وغير الديمقراطية، وتقنين القوانين، وعيون الأدب الغربي وقصصه وتغنيه بالحرية، ومبادؤه في تحرير المرأة وهدم الاستعباد

وتحرر الفكر ونحو ذلك، كلها زحفت على الحياة العقلية الشرقية كما زحفت الصناعات الغربية والمدنية الحديثة المادية، وتأثر المسلمون بهذا وذاك، ولم يسلم من هذا التأثر إلا الدين واللغة، حتى هذان لم يسلما، فالدين الإسلامي كان قد دخله في العصور المتأخرة كثير من الخرافات والأوهام بدأت تزول بفضل ما انتشر من العلم، واللغة اضطرت إزاء المدنية الحديثة الواسعة إلى أن تتوسع في ألفاظها وتتجدد في أساليبها.

هذا هو الوضع الحاضر للحياة العقلية عند المسلمين: استمداد من الحياة العقلية الغربية الحديثة، واستمداد من الحضارة الإسلامية القديمة، فإن اختلفت الأمم الإسلامية بعضها عن بعض في ذلك فاختلاف في المقدار الذي يستمد من هذا أو ذاك بحسب القرب من الغرب أو البعد، وبحسب سعة العقل أو ضيقه، أما المنهج فواحد في الجميع.

التقارب بين العقليات نتيجة حتمية:

هذا وصف للواقع، وإذا قسنا المستقبل بالحاضر توقعنا أن يزيد الاقتباس من الحديث نظرًا لما عند الغرب من قوة والقوة معبودة أبدًا منذ كان الإنسان، ولأن الحضارة الإسلامية قد تعفنت في كثير من نواحيها بسبب ركودها وعدم تجددها، ولأن العالم لما وصفنا من تقارب أجزائه وانعدام مسافاته وكثرة اختلاطه وامتزاجه أصبح من النتائج الحتمية له أن تتقارب عقلياته حتى تتحد، وأن تتنازع مقوماته، ثم لا يبقى إلا الأصلح. هذا هو الواقع، أما ما ينبغي أن يكون، فأن للمدنية الغربية الحديثة مزاياها وللحضارة الإسلامية مزاياها.

من مزايا الحضارة الغربية الاعتماد في كل مرافق الحياة على العلم: في التربية، في الزراعة، في الصناعة، في السياسة، في الإصلاح... إلخ، لا على الخرافات والأوهام والتقاليد، وهذا جميل؛ ومن مزاياها الجد في اكتشاف قوانين الطبيعة واستخدامها في الصناعات ونحوها؛ ومن مزاياها تفتح العقل ومرونته واستعداده لقبول كل ما يرى خيره ونبذ كل ما يرى شره؛ ومن مزايا الحضارة الإسلامية والتعاليم الإسلامية روحانيتها وتقويمها الإنسانية تقويمًا كبيرًا، والنظر إلى الإنسان على أنه أخو الإنسان، والاعتقاد بأن الله فوق الجميع والكل مخلوقاته، وكل مخلوق للمخلوق قريب ونسيب؛ فلو استطاع المصلحون من المسلمين أن يضعوا أسسًا للحياة العقلية للشعوب الإسلامية، قوامها أخذ ما في المدنية الغربية من محاسن مادية وأخذ ما للحضارة الإسلامية من محاسن روحية، وتكوين عقليات إسلامية تأخذ من هذا وذاك خير ما عندهما، وتعمل للدنيا كأنها تعيش أبدًا، وتعمل للآخرة

كأنها تموت غدًا، كان هذا خير ما يسدي إلى الشعوب الإسلامية بل إلى العالم أجمع.

بقي أن نعرض لكل عنصر من عناصر الحياة العقلية، مبينين موقفه الحاضر والإتجاه الذي يسير فيه، وهو موضوع المقال التالي إن شاء الله.

* * *

(2)

وصلنا في مقالنا السابق إلى أن عقدة العقد في موقف المسلمين اليوم هي التوفيق بين المدنية والمبادئ الإسلامية. ولنبدأ الآن بالسؤال الآتي: هل هذا التوفيق ممكن أو غير ممكن؟ إن كانت المدنية الغربية مؤسسة على دين يخالف الدين الإسلامي ويناقضه لم يكن التوفيق في الإمكان، بل كان المسلمون مخيرين بين التمسك بدينهم وبين اعتناق الحضارة الغربية، ولكن من حسن الحظ أن ليس الأمر كذلك، فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين، وإنما هي مؤسسة على العلم والتجربة والاختبار، ومحدودة بحدود المادة، فليس هناك مانع من أخذ المدنية الغربية المادية وصبغها صبغة روحانية إسلامية.

لو تصورنا الحياة الروحانية الإسلامية هرمًا لكانت قاعدته حب الله والاتصال به والاعتقاد بأنه خالق الكون ومسيّره ومدبّره، ثم كانت قمة هذا الهرم هي النبوة. ولو تصورنا المدنية الغربيَّة هرمًا أيضا لكانت قاعدته البحث عن قوانين الطبيعة واكتشافها وتجربتها واختبارها واستخدامها في الحياة، ثم كانت قمة هذا الهرم القنبلة الذرية.

وهنا نتساءل: هل من الضروري أن يكون كل هرم من هذين الهرمين حصنًا مسلحًا يحارب الهرم الآخر، ويلقي عليه بالقذائف من حين إلى حين، أو في الإمكان أن يصلح هذان الهرمان ويكونا بينهما حلفًا، ويعترف كل هرم بمزية الآخر ويستفيد منه ويفيده؟ الحق أن الهرمين ليسا متخاصمين بطبيعتهما، وإنما هما متخاصمان من سوء فهم سكانهما، وأن في الإمكان مدّ السلوك، وتوثيق العلاقة الودية بينهما، واستعانة كل بما عند الآخر من مزايا. إن الخصومة بينهما أشبه ما تكون بالخصومة بين من يقول إن الإنسان جسم فقط أو أنه روح فقط، والحق أنه جسم وروح معًا.

ولا بد للإنسان من أن يجد غذاء لروحه وغذاء لجسمه، والحياة السعيدة في الدنيا تتطلب الاعتماد على الروحانيات والماديات معًا. فمن عاش روحانيًا فقط كالرهبان والمتصوفة

وسكان التكايا والأديرة لم يعشْ في الدنيا، وإنما استعجل الآخرة؛ ومن عاش في الماديات فقط لم يعشْ في الدنيا الحقة أيضًا كإنسان، وإنما عاش فيها كحيوان أو نبات؛ وخطأ المدنية الحديثة أنها اعتمدت على العلم فقط، فتقدمت في كل مناهجه ومنتجاته، فرقّت الصناعة، وحسَّنت الزراعة، وقدَّمت التجارة، بل وقنَّنت القوانين ونظمت الحكم، غير أن نتاجها يشبه صورة فنية جميلة صنعها مثال ماهر ولكن ينقصها الروح.

لهذا كانت قمة الهرم في المدنية الغربية هي القنبلة الذرية، ولو كان لهذا الهرم روح لم ينتج القنبلة الذرية، ولكن كان ينتج اكتشاف قوانين الذرة واستخدامها في خير الإنسانية، فإن كان ينقص هذه المدنية الحديثة شيء فإنما ينقصها أن تقتبس قبسة من الهرم الثاني الروحاني.
أما وهي لم تفعل فخير للعالم الإسلامي اليوم أن يضع خطته على أساس متين، وهو أن يأخذ من المدنية الغربية كل علمها وكل تجاربها في الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم من غير قيد ولا شرط، ثم يحتفظ مع ذلك بروحانيته التي تلون هذا العلم بلون جميل وتجعله موجهًا لخير الإنسانية، لا لغلو في كسب مال، ولا لإفراط في نعيم، ولا للقوة والغلبة، ولكن للخير العام.

عيب العلم الغربي أنه خلا من الروح وخلا من النظرة الأخلاقية الإنسانية. فعلم الاقتصاد أسس على قوانين المال من غير أي نظر إلى الأخلاق، وعلم الطبيعة والكيمياء كذلك، ولو لونت كل هذه العلوم بالنزعة الخيرية الروحية لكان لها شأن أي شأن في نفع الإنسانية. وهذا خطأ يصح أن يتداركه المسلمون.

* * *

وهذا المبدأ هو الذي يضيء للمسلمين طريقهم، ويبدد حيرتهم، ويحل كثيرًا من مشاكلهم، وهو مبدأ يقضي بألا يترددوا مطلقًا في أن يأخذوا كل ما وصل إليه العلم الغربي يستخدموه في ترقية شؤونهم الدنيوية، وأن دينهم الإسلامي لا يمنعهم أي منع من ذلك، بل إن الإسلام حث على طلب العلم ولو في الصين، ولا يخص علمًا دون علم ولا معرفة دون معرفة. يجب على العالم الإسلامي أن يؤسس حياته الجديدة سواء كانت زراعية أو صناعية أو تجارية على أساليب المدنية الغربية، وإلا تخلف عن الركب العالمي. لا يصح أن يزرع أو يصنع أو يتاجر في القرن العشرين على أساليب القرن العاشر أو الحادي عشر، وإلا كان أضحوكة العالم، إن العلم الحديث وما أنتجه من مخترعات لم يصبح ملكًا للغرب، وإنما هو ملك للعالم أجمع يجب أن يستخدمه كل ركن من أركانه في مصلحته ومصلحة سكانه. بل

يجب على العالم الإسلامي أن يأخذ من ذلك ما وصل إليه الغرب، ويحسن فيه ويزيد عليه، فلم يحرم الله العالم الإسلامي من عقول كعقول الغرب وأيد كأيدي الغرب، ولا شيء يمنعه من ذلك إلا تمسّكه بالتقاليد الموروثة وتقديسه للعادات المألوفة، ودينه براء من كل ذلك.

نعم، أخذ العلم الإسلامي شيئًا من ذلك؛ فترى في كل قطر آلات صناعية جديدة وزراعة على النمط الجديد، وصناعة على نمط الصناعة الأوروبية، ولكن ليس هذا عامًّا ولا شاملًا، فآلات جديدة بجانبها آلاف من الآلات القديمة، وصناعة جديدة بجانبها صناعات وافرة قديمة، وهذا من أثر البلبلة والحيرة والارتباك الذي ساد سكان العالم الإسلامي، فإذا هم آمنوا بوجوب استخدام العلم الغربي على آخر طراز وجب على زعمائهم وقادتهم أن يقضوا على القديم في ذلك ويعمموا الأساليب الجديدة من غير تردد.

هذه ناحية، وناحية أخرى يجب أن يلفت إليها العالم الإسلامي، وهي ناحية المرأة المسلمة. فالمرأة الأوروبية تعد بحق أساسًا كبيرًا من أسس نهضتها، إذ هي التي تربّي الأبناء وتبعث الحياة في الجيل الجديد من الرجال والنساء، المرأة هي التي تنظم الحياة الاجتماعية وهي المشرفة على البيت، وهي بلسم الهموم، وهي عماد الثقافة؛ فما لم ترتقِ، وما لم تحرر، وما لم تتعلم، لم يكن هناك أمل كبير في جيل صالح جديد. فماذا على قادة المسلمين لو وجهوا مجهودًا كبيرًا للمرأة يعلمونها ويرقونها ويحررونها، والإسلام في صميم تعاليمه يساعد على ذلك ويحث عليه؛ وإنما وصلت المرأة المسلمة إلى ما وصلت إليه من ضعف وانحطاط برغم الإسلام لا بسبب الإسلام.

* * *

لو أخذ العالم الإسلامي كل العلم الغربي وكل ما وصل إليه الغرب من تجارب واعتبر هذا جسمًا من الأجسام يتقمص الروح الإسلامي الصافي النقي: من اعتقاد بإله واحد بثّ في هذا العالم قوانينه، وألّف بين سكانه، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأمر معتنقيه أن يكونوا رحماء فيما بينهم، لا عصبية لجنس ولا دم، ولا تفاضل بينهم بالنسب ولا بأي سبب آخر إلا العمل الصالح والنية الصادقة؛ لو مزجت هذه التعاليم الإسلامية الصحيحة بهذا العلم الصحيح لأنتجت من غير شك جيلًا من الناس من خير الأجيال، خلا من مادية الغرب وجفافه ومن خرافات الشرق وأوهامه، ولكان جيلًا يصح أن يكون جيلًا نموذجيًّا للشرق والغرب معًا، ولحقق هذا الجيل ما ذكرنا في صدر هذا المقال من اكتسابه خير ما في الهرمين، والتوفيق بين المعسكرين.

إن أهم مظهر للعالم الإسلامي اليوم هو مظهر استمداده من الغرب، ولكن عيب هذا الاستمداد أنه مصحوب بالتردد والبطء، فنأخذ بعض العلم وندع بعضًا ويقدم قوم على الأخذ ويحجم آخرون، فتجد الآلة الزراعية على آخر طراز أمريكي وبجانبها الساقية والشادوف، وتجد المدرسة على آخر طراز والكتاب على نمط القرون الوسطى، وتجد المرأة المسلمة تلبس الثياب الأوروبية كما وصل إليه آخر بدع والمرأة المسلمة المحجبة التي لا يظهر منها إلا عيناها، وهكذا من مظاهر الاضطراب والارتباك؛ وكثيرًا ما يكون استمداد العالم الإسلامي من العالم الغربي متجهًا إلى المظاهر لا إلى الأصول والجواهر، فتؤثث مدرسة على النمط الأوروبي ونضع منهجًا على النمط القديم وهكذا، كان الواجب يقضي بأن نكون في نقل العلم الأوروبي والتجارب الأوروبية حازمين مسرعين كما فعل اليابانيون، فننقل طرق الزراعة الحديثة بحذافيرها بمنتهى القوة حتى نقضي على كل الأساليب القديمة، وهكذا الشأن في الصناعة والتجارة وغيرهما.

ربما كان للمسلمين بعض العذر في تحفظهم في استقبال المدنية الغربية؛ لأن هذه المدنية من علم وأفكار وتجارب وصلت إلى العالم الإسلامي -للأسف- مع صوت المدافع والقنابل والفتح والاستعمار، فكان طبيعيًا أن ينفروا من كل ذلك جملة من غير تفكير طويل وأناة وتنقية لما يؤخذ وما يترك. أما وقد ذهب صوت المدافع وجاهد أكثر المسلمين حتى وصلوا إلى الاستقلال وهدأوا مما عراهم أول الأمر من دهشة فيجب أن يميزوا بين علم لا بد أن يؤخذ ومدفع ينبغي أن يقاوم.

وقد أصبح برنامج المسلمين اليوم واضحًا أمام المدنية الغربية وهو ما كررنا قوله من فتح صدورنا للعلم الغربي واستيعابه بكل قوة وبكل سرعة وَأن نجعله شاملًا نافذًا على الجميع، لا أن نؤسس مؤسسات جديدة على العلم الجديد بجانب مؤسسات على التقاليد القديمة، كما يجب أن نحتفظ بديننا الصافي فيكون لنا من ذلك كله علم ودين كما لنا جسم وروح، والله الموفق.

* * *

حول الإنسان

(1)

يحكى أن جماعة من الفلاسفة ضمهم مجلس ودار الحديث بينهم في مسائل كثيرة، انتهى بهم إلى التساؤل عن أعجب الأشياء، فقال أحدهم: إن أعجب الأشياء صفحة السماء بجمال لونها وسطوع نجومها وبهائها ولألائها. وقال أحدهم: إن أعجب الأشياء الشمس بما تبعث من حرارة وضياء وبأفاعيلها العجيبة وتصرفاتها الغريبة، وقال أحدهم: إنه الرزق كيف يأتي لكل حي وكيف يتوفّر للجاهل عديم الكفاية ويقل للعالم الكفء الذي توافرت فيه كل الأسباب للنجاح. وقال أحدهم: بل أعجب شيء هو الإنسان نفسه وتصرفاته وإرادته وعقليته في منتهى الغرابة، وكلما بحثه الباحثون ازدادوا إيمانًا بغرابته وعجبًا من ملكاته، وهذا حق فالإنسان إن لم يكن أعجب المخلوقات فهو من أشدها مثارًا للعجب، لقد توفرت في المدنية الحديثة العلوم والبحوث وكان من أكبر ميادين هذه العلوم الإنسان؛ هذا يبحث في حيويته وهذا يبحث في طبيعته، . وهذا يبحث في كيمياء جسمه، وهذا يبحث في عقله الباطن واللاواعي ونحو ذلك، ومع هذا كله ظل الإنسان لغزًا.

من خير الكتب الأمريكية التي ظهرت في السنين الأخيرة كتاب للأستاذ ألكسيس كارل عنوانه «الإنسان ذلك المجهول». ومؤلفه هذا عالم من العلماء يبحث بطريقته العلمية ويضع الإنسان في الأنابيب يسلط عليها آلات المعامل والمخابر كما يسلط على المواد الطبيعية، ويشتغل في معهد روكفلر في نيويورك، فيبحث في هذا المعهد في خلايا الإنسان وكيف تتكون وكيف تتغذى، لعله يستطيع هو وزملاؤه من الباحثين أن يعرفوا الإنسان؛ كيف يتكون جسمه، وكيف تختلف الأجسام، وكيف تختلف الشخصية باختلاف الجزيئات.

ولكن هل مجموع هذه الخلايا ومجموع هذه الغدد التي وضعت في الأنابيب وجرى عليها الاختبار هي الإنسان؟ هل هي تمثل عقله وتمثل روحه؟ لقد اضطر المؤلف أخيرًا إلى أن يعترف بأن خلايا المخ ليست هي العقل، وأن العقل مخبوء وراء هذه الخلايا المخيّة

المادية، وأن علماء الطبيعة وعلماء الاقتصاد أهملوا غالبًا هذه الناحية في الإنسان مع أهميتها وعظمتها وخفائها، وأنها أكبر قوة فعّالة في هذا العالم، والأنابيب والمعامل لا تستطيع أن تصل إلى سر كنههما.

فإذا نحن جاوزنا العقل إلى الروح فالأمر أصعب وأعسر، وحينئذ نسبح في مجال بعيد عن المادة كل البعد تبدو آثاره ولا تعرف حقيقته.

لقد اعترف كارل في كتابه هذا بشيء آخر غير العقل، وهو ما يسمى باللقانة أو الإلهام، وهو الذي يتجلّى عند العلماء إذ يخطر لهم خاطر لا يعرف سببه يدلهم على استكشاف ما يستكشفون وابتكار ما يبتكرون؛ ولو سألوا أنفسهم من أين أتاهم هذا الإلهام لم يستطيعوا الجواب. كما يظهر في عمل الفنانين من شعراء ومصورين كيف ألهموا ما أتوا به من غير مقدمات عقلية ولا نتائج منطقية، كما يظهر في تسلط الأرواح على الأرواح ومخاطبة الأرواح للأرواح وما يسميه الإفرنج Telepathy ونحو ذلك مما آمن به العلم الحديث؛ فهذه القوة الروحية في الإنسان لها عملها الكبير في هذا العالم وإن لم تخضع للنظام العلمي والبحث الذي يسود العلماء في درسهم أو في معاملهم؛ وقد اعترف بذلك المؤلف واعترف بعجزه عن تفسيره، وأبان أن المدنية الغربية مخطئة في تأسيس بنائها على ما للإنسان من مادة، وعلى ما له من جانب عقلي منطقي، مهملة ما للإنسان من جوانب عقلية أخرى، ومن جوانب روحية لا تحصى.

إن الإنسان عجيب في جسمه وعقله وروحه. عجيب في جسمه لأنه أعقد أنواع الحيوان تركيبًا، يعرف ذلك علماء الحياة وعلماء التاريخ الطبيعي وعلماء الطب، ويتجلى ذلك في قوته إذا عمل، وفي عجزه إذا مرض، وفي حيرة كبار الأطباء في تشخيص بعض الأمراض وعلاجها ونحو ذلك، وعجيب في عقله إذا استطاع أن ينتج هذه الفلسفات العميقة التي وصل إليها سقراط وأفلاطون وأرسطو قديمًا، وكانت وليبنتز حديثًا، والفارابي وابن سينا وابن رشد وأمثالهم في القرون الوسطى؛ وعجيب في روحه إذا استطاع أن يحلّق بها في السماء، فينتج أروع أنواع الحكم والمبادئ السامية، وأجمل القصائد، وأجمل القطع الموسيقية.

ومما يؤسف له في الإنسان أن هذه القوى الإنسانية الثلاث، وهي جسمه وعقله وروحه، كثيرًا ما تتعاكس وتتعاند، فقد يصح عقله ويصل إلى درجة كبرى من السمو ثم لا تصح روحه ولا يصح جسمه، وقد تصح روحه حتى تصل إلى أعلى درجة في السماء، ثم يضعف جسمه فينزل الروح التي تسكنه من السماء إلى الأرض، ومن أجل هذا لا تصلح فلسفة الفيلسوف

ولا تصلح أجمل النوازع الروحانية في الرجل الروحاني إذا أصيب جسمه وتلوّى من الألم؛ ولذلك نرى أن هذا العقل المزدهر. وهذه الروح السامية، يضعفان في آخر الأمر إذا ضعف الجسم، وينزلان من على عروشهما ولا يفكران إلا في عضو مَرِض، وكيف حاله كل يوم، وما الغذاء الصالح وما العلاج الناجع؟ إلى غير ذلك من مشاغل حقيرة تنسى الفلسفة العالية، وتنسى المنازع الروحية السامية؛ وإنما يبلغ الإنسان شأوه إذا صحت فيه هذه القوى الثلاث: جسمه وعقله وروحه، وتعاونت تعاونًا صحيحًا.

وما قلناه في الفرد نقوله في الجماعة ونقوله في المدنية. فالمدنية التي تؤسس على المادة وحدها، كالفرد يعتني بجسمه فقط، وكذلك المدنية المؤسسة على المادة والعقل وحدهما، إنها تكون مدنية جافة كالمنظر الجميل الجامد الذي لا روح فيه؛ ولعل هذا هو باب النقص في المدنية الحديثة، إذ جعلها ترقى ماديًا فتنتج من الصناعات ما تنتج، وترقى عقليًا فتنتج من العلوم والمعارف ما تنتج، ولكنها شقية معذبة بفقدان الروح، وإلا فما هذا العذاب في احتمال ويلات حرب وفزع من وقوع حرب؟ إنَّ النوازع إذا اضطربت صدر عنها انفعالات مضطربة.

ويعجبني أحد الفلاسفة المحدثين إذ وقعت في يده جريدة يومًا، فشاهد في الصفحة الأولى منها جدالًا طويلًا حول الأطفال الذين يولدون مشوّهين ولا أمل في شفائهم ولا رجاء في مستقبلهم، هل من الخير أن يعالجوا فيعيشوا عيشة سيئة قصيرة مآلها الموت السريع، أو من الخير ألا يعالجوا ليقضى عليهم سريعًا؟ وكانت أغلبية الآراء تقضي بمعالجتهم لأن الحياة في نفسها عزيزة ويجب أن نبذل أقصى جهدنا في المحافظة عليها حتى نستنفد قوانا، والأمر بعد ذلك لله. ثم كان في الصفحة الثانية من الجريدة أخبار عن استعداد أوروبا وأمريكا للقتال، وأن أكثر من مليون جنيه يصرف كل يوم للاستعداد، وما هذا الاستعداد إلا استعداد للإفناء وإزهاق الأرواح وتشويه للأجسام وعمي للأبصار؛ فالذين يتجادلون للمحافظة على الحياة المشوّهة هم الذين يرتبون الترتيبات القوية لإعدام الأجسام الصحيحة. وهكذا كثير من شؤون الحياة يلعب فيها الناس على حبلين بل على حبال، ويسيرون فيها تبعًا لنوازع متضاربة لا يجمعها أساس معقول، فما أسعد الإنسان لو استطاع أن يوفّق بين قواه! وما أسعد العالم لو استطاع أن يؤسس مدنيته حسبما منح من قوى متعددة، فعمل لجسمه ولعقله ولروحه، وعملت الحكومات للمادة والعقل والروح جميعًا.

(2)

للعالم الكبير بسكال قَوْلَةٌ مشهورة وهي:

«مهما كان عالم المادة في الحياة قويًا وعظيمًا، ومهما كان عقل الإنسان عاجزًا وضعيفًا، فإن عقل الإنسان شاعر بعجزه، وعالم المادة غير شاعر بقوته، ولذلك كان عقل الإنسان العاجز العالم بعجزه أرقى من الطبيعة القوية الجاهلة بقوتها».

إن شعور الإنسان بضعفه وعجزه وعيوبه هو الذي حفزه على أن يكمل نفسه ويرقيها ويسير بها إلى الكمال؛ ونحن إذا تتبَّعنا تاريخ الإنسان حتى في عصوره الحديثة فقط، وجدناه يقفز قفزات واسعة في سبيل الرقي. لقد شهد القرن التاسع عشر تقدم الإنسان العجيب في تغلبه على المادة، فاستخرج الفحم من أعماق الأرض، وصنع من الحديد والفولاذ آلات وأدوات لا عداد لها لتحقيق الأعراض الإنسانية، واكتشف قوة البخار والكهرباء واستخدمها في تحسين حياته، واستطاع بهما أن يسهل الانتقال، وينير البيوت والشوارع، ويكثر الإنتاجات الزراعية ويحسنها، واستتبع ذلك قلة في الجرائم؛ هذا إلى ما لا يحصى من اختراع أدوات الترف والترفيه.

وكان من نتائج استيلاء الإنسان على قوى الطبيعة وإخضاعها لإرادته ما نتج عن ذلك من تحسن صحته، فقد استطاع أن يتغلب على كثير من الأمراض؛ وقد تسابقت الأمم الحية بمراعاتها للأمور الصحية، فاستطاعت أن تقلل من نسبة وفيات الأطفال، وأن تزيد في متوسط أعمار السكان، وبنيت المساكن الصحية للفلاحين والعمال، وقلّ عددهم في هذه البيوت الجديدة، فاستطاعوا أن يعيشوا عيشة أسعد وأرغد، وشرع كثير من القوانين التي تحمي العمّال من أصحاب رؤوس الأموال، وقلّلت ساعات العمل حتى يستطيع العامل أن يجد فراغًا لتثقيف نفسه، أو للترفيه عنها، أو الاستمتاع بسائر متع الحياة.

وتغلب الطب على كثير من آلام الإنسان، فكم خفف البنج من آلام في حجر العمليات، وسهل على الأطباء والمرضى إجراء العمليات في يسر وسهولة بعد أن كان المرضى يلاقون أشق العذاب وأعظم البلاء.

وارتقى الإنسان في عقليته فاستطاع أن يصل في فهم حقائق العالم إلى ما لم يصل إليه من قبل، وتقدم في القرن الأخير في فهم الذرة وتكونها إلى حدٍّ لم يكن يحلم به الأقدمون، واكتشف من قوانين الطبيعة والكيمياء ما عجز عنه الأسبقون، وتقدم في فهم حقائق النفس

البشرية، وغطت مذاهبه الفلسفية الحديثة على الفلسفة اليونانية والرومانية؛ وعلى الجملة فقد نال حظًا وافرًا في ناحيته العقلية كما نال هذا الحظ الوافر في تسلطه على المادة الطبيعية.

وتقدم الإنسان كذلك في إنسانيته، فنراه قد ألغى عذاب السجون والضرب في المدارس وتعذيب المجرمين، وكان آباؤنا الأسبقون يتخذون من أصحاب العاهات والآفات موضعًا لسخريتهم وضحكهم. فأصبحت هذه الآفات والعاهات موضعًا لرحمتنا وعطفنا، وإذا ابتليت أمة بحادث من حوادث الزلزال أو الحريق أو العواصف أسرعت غيرها لنجدتها، إلى غير ذلك من ضروب الإنسانية، وإن كان هذا الشعور الإنساني لم يرقَ الرقي المادي ولا الرقي العقلي.

ويتساءل بعض الفلاسفة اليوم السؤال الآتي:

أما وقد رقي الإنسان هذا الرقي الباهر في هذا العصر الحديث، فما الذي ينتظر منه في مستقبله؟ وماذا يجب على القادة حتى يوجِّهوه نحو الرقي؟ وإلى أي جهة يوجهونه؟ إما برنارد شو فقد أجاب عن هذا السؤال بأنه يتمنى أن يتجه التفكير إلى إطالة العمر وخاصة عمر العقلاء والحكماء والفلاسفة، وتمنى أن يطول عمرهم أضعاف ما يعيشون، وأن يتعاون العلم والأطباء وغيرهم على اكتشاف ما يطيل أعمارهم؛ لأنه عز عليه أن يبذل الفيلسوف والعاقل والحكيم أعمارهم في التجارب، حتى إذا بدأت في النضج وأشرفت على نفع الإنسانية أتت المنية فاخترمتهم قبل أن ينتفع العالم بتجاربهم ونضجهم، فلو عمّر هؤلاء طويلًا لكانوا خيرًا عظيمًا للإنسانية.

وقال الأستاذ جود: إنه يتمنى أن يتجه العالم نحو ترقيته في أبحاثه الروحية من تنويم مغناطيسي وقراءة للأفكار والآراء بواسطة الإيحاء ونحو ذلك من العالم الروحي، فيقول: إنه بعد أن تقدم الإنسان في العالم المادي عليه أن يتجه هذا الإتجاه نحو العالم الروحي، وأنه سيكون لهذا نتائج باهرة، فنستطيع إذا تقدمنا في هذا العلم، أن نقرأ أفكار الناس وآراءهم من غير تلفيق، وإننا إذا تقدمنا في هذا بطل الكذب والنفاق والرياء ولم يعد لها مكان، وأسست الأخلاق على أسس جديدة، ويقول: إن بعض المعاهد في أمريكا تقدمت تقدمًا كبيرًا في هذا النوع من ناحية قراءة الأفكار، وقراءة المغيبات، والإيحاء الروحي ونحو ذلك. وأنا لا أرى رأي شو ولا رأي جود، فلو عاش الحكماء والفلاسفة والعقلاء عمرًا أطول لساعدوا حقيقة في تقدم العالم، ولكن في نفس الطريق الذي يسير فيه العالم وهو طريق المادة والعلم والعقل.

ولست أوافق جود على تفسير الروحانية بهذا المعنى الذي فسرها به من قراءة الأفكار والمشاعر الخفية. إنما يجب أن يوجه العالم إلى الروحانية بمعنى آخر، وإن شئت فقل إلى الإنسانية. لقد عجزت المدنية الحديثة إلى اليوم أن تجعل الإنسان ينظر إلى الإنسان على أنه أخوه، بقطع النظر عن فروق الجنسية والدم واللغة والدين وما إلى ذلك. إن الذي نوده في المستقبل أن يتجه العالم إلى الإنسانية مجردة عن اعتبار القومية والوطنية، فيأخذ القوي بيد الضعيف من أي جنس وبأي لون، ويعين من يحتاج إلى العون من أي دين كان ومن أي وطن كان، ويعلم العالم الجاهل ويطبِّب الصحيح المريض، ويسود الشعور العام في العالم بأن الإنسان أخو الإنسان فتنقطع الحروب ويحلّ الوئام محل الخصام، ويسود في العالم السلام.

هذا هو ما يجب أن يتجه إليه القادة في رسمهم صورة المستقبل، وإلا فما قيمة التقدم الماديّ والتقدم العقلي إذا كان الإنسان دائمًا بين حرب مضت وحرب ستأتي، وفناء في حرب واستعداد لحرب. ليست المدنية تقاس بكثرة المخترعات ولا بعمق الفلسفات، إنما تقاس بما تبعث في النفوس من طمأنينة وعطف عام وإنسانية شاملة.

لقد صوّر هذا المعنى تصويرًا باهرًا شاعر عربي صوفي قديم، هو الإمام محيي الدين بن عربي إذ يقول [من الطويل]:

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أنكرُ صاحبي
إذا لم يكنْ ديني إلى دينِهِ دانِ

فأصبحَ قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ
فمرعًى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

أدينُ بدينِ الحبِّ أنّى توجَّهَتْ
ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني

لقد ظفر محيي الدين بمعنى لم تظفر به المدنية، ولعلها لا تظفر به إلا بعد مئات من السنين، وبعد أجيال وأجيال.

* * *

في الهواء الطلق

لأن تكون الأمة المصرية خمسة ملايين راقين يعيشون عيشة سعيدة من أن يكون عددها عشرين مليونًا وهي كما هي: فقر وبؤس وجهل ومرض.

دق التليفون صباحًا فإذا هو صوت الصديق قال:

- الجو بارد، واليوم صحو، والشمس تؤذن بأنها ستبعث إلينا دفئًا لذيذًا، فهل لك أن أمرّ عليك بسيارتي، فنستمتع بالشمس في سفح الأهرام؟

قلت: وهو كذلك.

ها نحن في شمس مينا هاوس، وقد أخذت تدفئنا بأشعَّتها الذهبية، فلما سخنت رؤوسنا، أحسسنا بشهوة الكلام تنبعث من نفوسنا.

هو: لقد لفت نظري وأنا آت حركة الترام وامتلاؤه بالراكبين، كأنه علب السردين، بل لعل علب السردين أكثر منه نظامًا، فليس هناك محل لجالس ولا واقف، ولا يستطيع داخل أن يدخل، ولا خارج أن يخرج إلا بعناء. كما لفت نظري امتلاء الشوارع بالمارين وحركة المرور الفظيعة الشنيعة من سيارات وعربات ومشاة. ولقد زرت لندن وباريس وجنيف، فلم أجد مثل هذا الازدحام، ولا صعوبة الانتقال. فقلت في نفسي: ماذا يكون المصير بعد عشر سنين أو عشرين؟ وكيف إذ ذاك يستطيع الناس أن يمشوا على أرجلهم أو يركبوا سياراتهم، أو يقضوا حوائجهم؟ لقد آن الأوان لأن نفكر جديًّا في تقليل عدد السكان.

أنا: أتقول إذًا بضبط النسل؟

هو: نعم، بكل قوة وإيمان. إن القول بضبط النسل عندي بديهة من البديهيات، وإذا كان ضبط النسل جائزًا في إنجلترا وأمريكا، وهما ما هما في ارتفاع مستوى المعيشة، ورقي الحالة الصحية والاجتماعية، فهو في مصر والشرق واجب لا جائز. إن ضبط النسل يزيد في سعادة الفرد والمجموع، ويقلل من بؤس البائس، وشكوى الفقير، ويحرر المرأة من كثير من

أغلالها، ويريح رب العائلة من كثير من أعبائه. إن الرجل إذا كان دخله الشهري ستة جنيهات أو ثمانية أو عشرة، استطاع -إذا كان له ولد أو ولدان فقط- أن يعيش عيشة أرقى بدخله هذا مما إذا كان له ستة أولاد أو ثمانية أو عشرة. واستطاع أن يعلم الولد أو الولدين خيرًا مما يعلم الأولاد الكثيرين، واستطاع أن يعنى بصحة الولد أو الولدين، وأن يلبسهما لباسًا معقولًا، ويطعمهما طعامًا معقولًا، واستطاعت الأم أن تشرف عليهما، وأن تجد بعض الوقت لراحتها. أما إذا كان البيت مملوءًا بالأولاد، والأم تحمل ولدًا، وتفطم ولدًا، وتجر بيدها ولدًا، فالويل كل الويل لهذه الأسرة، والويل كل الويل للمجتمع من أمثال هذه الأسرة.

ولو كانت مرافق الحياة ومنابع الثروة في الأمة تزداد بنسبة عدد السكان لتقبلنا حجج القائلين بإباحة النسل في شيء من سعة الصدر. أما السكان يتضاعفون، ومنابع الثروة لا تنمو بهذه النسبة، ولا بقريب منها، فضبط النسل واجب لا شك فيه. إن محاربتنا للأعداء الثلاثة من فقر ومرض وجهل عديمة الجدوى ما دام باب النسل مفتوحًا من غير حساب؛ فكل جهودنا -إذًا- ضائعة أو قليلة المنفعة؛ ومثلنا إذًا مثل من يرمي قنطار سكر في النيل ليحليه. أما إذا قلّ النسل استطعنا أن نعلّم النسل الجديد القليل، وأن ننظم حالته الصحية، وأن نعالج فقره وفقر أسرته في الحدود المعقولة.

وإلى جانب هذا وذاك، هناك الحالة النفسية التي تصحب قلة النسل؛ فالأم تهدأ أعصابها إذا اقتصرت على تربية ولد أو ولدين وتجد مجالًا لراحتها، والأب تطمئن نفسه ـ ولو كان فقيرًا ـ بعض الاطمئنان، ويجد فيما يكسبه ـ ولو قليلًا ـ قدرة على سدّ الحاجات الضرورية له ولأولاده. هذا من ناحية الفرد، أما من ناحية المجموع فالأمة مجموع أسر، فإذا حسنت حالة الأسرة حسنت حالة الأمة؛ وإذا كانت الأسرة يتعلم أبناؤها ويجدون غذاءهم الصحي وملبسهم النظيف وتعلمهم الضروري ارتقت الأمة تبعًا لذلك؛ وليست الأمة تقدر قيمتها بعدد أفرادها، ولكن تقدر بنوع أفرادها، ولا تقدر بكميتها، ولكن بكيفيتها. والنظر الساذج المنحط هو الذي يقدر الكمية، فإذا رقي قدر الكيفية.

ولأن تكون الأمة المصرية خمسة ملايين راقين يعيشون عيشة سعيدة خير من أن يكون عددها عشرين مليونًا وهي كما هي: فقر وبؤس وجهل ومرض وشقاء. لقد كانت الطبيعة تقوم بما يقوم به ضبط النسل، فتبعث من حين إلى الحين كوليرا أو مرضًا وبائيًا يهز الناس ويغربلهم، ويقلل من عددهم، فتعيش بعد ذلك عيشة معقولة؛ أما وقد تقدمت شؤون الصحة، فالأمر من كثرة السكان سيكون مخيفًا مرعبًا. قد كان يكون معقولًا بعض الشيء ألا نحدد

النسل لو كانت الأمة المصرية ترحل من بيئتها المزدحمة إلى بيئتها غير المزدحمة، ومن قطر إلى قطر. أما وهي لا يحب أهلها أن يرحلوا من القاهرة إلى طنطا، ولا من المنوفية إلى البحيرة، ولا من أي بلد إلى بلد قريب، فالمسألة أدهى وأمرّ.

أنا: ولكن أليس هذا العمل محاربة للطبيعة؟

هو: محاربة للطبيعة! كيف ذلك؟ إنه تنظيم للطبيعة، لا محاربة للطبيعة؛ فليست المدنية في جميع أشكالها إلا تنظيمًا للطبيعة. انظر إلى فيضان النيل؛ هذه هي الطبيعة، ولكن نقيم عليه سدودًا تنظمه، والبخار ينبعث من الماء الحار، وهذه هي الطبيعة، ولكن تنظمه فتسير به القطارات وأمثالها والجو مملوء بالكهرباء، وهذه هي الطبيعة، ولكن نأخذها فننظمها، فلماذا يكون هذا وحده هو الذي تقف عنده وتقول إنه ضد الطبيعة؟

أنا: فليكن كذلك، ولكن أليس هذا عصيانًا لإرادة الله!

هو: ولا هذا، فإذا تركنا النسل من غير أن نحدده فهذه إرادة الله، وإذا حددناه فهذه إرادة الله أيضًا. أو لسنا نفعل هذا في كل شيء؟ ألسنا في الزراعة نخفف الزرع إذا وجدناه قد كثر كثرة تضر بالغلة؟ أو لسنا ننقّي الزرع من الحشائش التي تضره؟ أو لسنا في كل ما نعمله في الزراعة نسترشد بالعلم وبالتجارب حتى نأتي بأجود محصول لا بأكثر محصول؟ ولو سرنا على قولك في إرادة الله بالمعنى الذي تتصوره لتركنا كل زرع على طبيعته، وتركنا كل مرض يفتك على طبيعته، وتركنا كل مجرم وكل فقير وكل جاهل يسير على طبيعته من غير أن نتدخل في شأنه. إن تعاليم الله تقضي بأن نستخدم عقولنا، وننظر فيما هو الأصلح لحياتنا، ثم نعمل وفق ما تهدينا إليه عقولنا، وهذه هي إرادة الله.

* * *

وهنا أحسسنا الشمس قد اشتدت حرارتها، وأخذنا منها بنصيب وافر، فاقترحت عليه أن ننتقل إلى مكان آخر بين الظل والشمس فتظللنا فروع الشجر ظلًّا متموجًا يذهب ويجيء، فنكون بين برودة الظل ودفء الشمس.

هو: أليس هذا تدخلًا في الطبيعة وفي إرادة الله على قولك؟ لا لا. إن النظر إلى الطبيعة وإرادة الله بهذا المعنى نظر غير صحيح، وما نفعله الآن في مراعاة مصلحتنا من انتقالنا من شمس إلى ظل ومن ظل إلى شمس، هو القانون العام الذي أراده الله في اختيار المصلحة والعمل على وفقها بحسب عقولنا.

وأحسسنا بالجوع فأكلنا، وبالظمأ فشربنا، وبالتعب فاسترحنا. وتحدثنا حديثًا خفيفًا في الجو والصحة والسياسة، ولم أشأ أن ينقطع الحديث عن ضبط النسل فقلت:

- وما رأيك في الأضرار الصحية التي تحدث من ضبط النسل؟

هو: لقد أحس الناس من قديم حاجتهم إلى ضبط النسل؛ فما يروى عن العرب من وأد البنات، وما يروى عن غيرهم من قتل الأولاد صغارًا، مما كان يجري في الصين والهند ونحو ذلك ليس إلا ضربًا من ضروب تحديد النسل، وإن لم ينطبق عليه اللفظ انطباقًا تامًا. وقد سار العمل في تحديد النسل وفقًا لنشوء الإنسان وارتقائه، فقد كان عملًا ساذجًا في الأمم البدائية، من استعانة على منع الحمل بالطرق السحرية أو «طب الركة» أو الإجهاض على شكل شنيع، أو استعمال بعض العقاقير ونحو ذلك مما كان يسبب أضرارًا بليغة؛ ولكن بتقدم المدنية والحضارة جعل هذا في يد الأطباء لا في يد الأفراد، وقد كانت أوروبا وأمريكا على مثل قولك الآن في محاربة الطبيعة ومحاربة إرادة الله، فكانت تحرم ضبط النسل وتحاكم من قام بهذه الدعوة، ولكن كانت هذه المحاكمة سببًا في انتشار الفكرة لا في إماتتها، واضطرت الحكومات أخيرًا إلى الاعتراف بهذا العمل وإباحته؛ فأنشأت المستشفيات الطبية للقيام بهذه المهمة متى وجد أن لا ضرر منها، وألفت الكتب الكثيرة لإرشاد الأمهات إلى ما يجب عليهن عمله، إن أردن تحديد النسل؛ وأذكر أني قرأت أنه كان في إنجلترا في سنة 1929 أربعون مستشفى لهذا الغرض، وَأن الجمعية الطبية من المجلس القومي البريطاني المؤسس للنظر في الأخلاق العامة أعلنت بالإجماع أن لا توجد عقبات في سبيل زوجين أرادا أن يعرفا الوسائل لمنع النسل لأسباب صحية أو لكثرة أولادهما أو لفقرهما.

أنا: أشعر أن كلامك -كعادتك- مستقيم مقنع من الناحية العقلية، ولكني أشعر أنه ينقصه شيء من العواطف.

هو: ومتى كان الإصلاح يبنى على العواطف والمشاعر؟ إن الإصلاح في كثير من الأحيان يلجأ إلى محاربة العواطف والمشاعر. وهل حرمة الإلف والتقاليد إلا عواطف ومشاعر؟ دع عنك هذا واصغ لحكم العقل.

وجاء موعدنا فركبنا السيارة وعدنا، وكان من حظه أن وجدنا الترام في الجيزة أسوأ مما وصفنا، فنظر إلي وقال: اسمع، ادع إلى ضبط النسل.

* * *

البيوت الثلاثة

لقد اطللت من هذه البيوت الثلاثة على بيوت القاهرة كلها في إجمال.

أتيح لي في هذه الأيام أن أزور بيوتًا ثلاثة في القاهرة، وأتقصّى أحوالها ومظاهرها ومعيشة أهلها.

فأما أوّلها فبيت لغني كبير، ورث ثروة عن آبائه، وحسّنها ونمّاها؛ قصر فخم بني على أحسن طراز، وله حديقة غناء سعدت بأحسن الأشجار، وأجمل الأزهار، أفرد منها مربع للعبة «التنس». وتدخل القصر فيبهرك جماله وأثاثه، كل حجرة فيه فرشت بعناية على طراز خاص، وروعي في أثاثها أن يكون منسجمًا مع لون الورق الذي كسيت به حيطانها، ومع اللون الذي ينبعث من مصابيحها، وقد فرشت أرضها بالسجاد العجمي الذي تغوص فيه قدم السائر عليه، وإذا أضيئت مصابيحها رأيت النور ولم تَرَ مصدره. وأعد الدور الأول للاستقبال، والدور الثاني للنوم، وأعدت غرف النوم بأجمل الأسرة وأفخمها، وأثمن الفراش وأنظفه، وشغلت ملاءات الأسرّة بأجمل أنواع التطريز، وبجانب كل غرفة نوم حمّام يجري فيه الماء الساخن والبارد، وجهزت بعض الحجر بتكييف الهواء، وبالمدافئ المعدة في الحوائط يستخدم فيها الفحم والمدافئ المتنقلة بالكهرباء، وبه التليفون الثابت والمتنقل، والراديو الثابت والمتنقل، وقد علقت في الحوائط لوحات من أجمل ما صنع الفنانون، ووضعت في الحجرات والغرف طرف كثيرة على شكل أنيق ووضع جميل. أما المطبخ فأعجوبة الأعاجيب: نظافة وأدوات كهربائية وغير كهربائية وأفران، وقوالب مما يسهل للطهاة إعداد كل ما تشتهيه الأنفس، وبالطابق الأسفل حجرة أعدت للمشروبات إعدادًا فاخرًا، وملئت دواليبها بمختلف الأنواع، وصففت تصفيفًا فنيًّا يهيم به أمثال أبي نوّاس.

لا تشعر بفرق بين هذا القصر وبين أمثاله من القصور العظام في أوروبا، إلا بما ترى أحيانًا من خدم سود، أو تسمع آونة من لغة عربية.

هذا هو المكان. أما السكان، فالباشا عميد البيت، والسيِّدة ربة القصر، وابن واحد،

وبنت واحدة، ثم عدد من الخدم: رجال ونساء، كبار وصغار، مصريون وأجانب، هذا طاه، وهذا مساعده، وهذا لإعداد المائدة، وهذه للشراب، وهذا لتنظيف الدور، وهذه لإعداد ملابس الباشا الأول، وهذه لإعداد ملابس السيدة، وهذه تمسك مفاتيح الخزائن من مأكول ومشروب، وهذه لخدمة البيت، وهذه لخدمة الآنسة، وهذه الأوروبية للإشراف على جميع خدمة البيت.

أما الباشا فحينًا في الوزارة، وأحيانًا خارجها، فأما حين يكون في الوزارة فهو لا يعرف ليله من نهاره، بين مقابلات لا تنتهي، وأعمال ليس لها أول ولا آخر، ودعوات تتزاحم في الوقت الواحد. وأما حين يكون خارج الحكم فصباحه في نادي محمد علي، ومساؤه المبكر في زيارات وواجبات اجتماعية، ومساؤه غير المبكر في المنزل مع زواره، وأحيانًا يأتي بعض الزائرين والزائرات فيشتركون مع ربة البيت في لعب «الكونكان» إلى الساعة الواحدة أو بعد ذلك. ومن حين لآخر يقرأ في كتاب، وفي الفترة بعد الفترة يذهب إلى العزبة ليشرف على شؤون زراعته.

وأما السيدة ربة البيت فتصحو في الضحى، وتنتهي من إفطارها في العاشرة، ثم تخرج لزيارة بعض صواحبها، وفي بعض الأيام تساهم في بعض الأعمال الاجتماعية، وفي العصر تقابل بعض الزوار، وأحيانًا تحيي الليلة في سمر ظريف، وأحيانًا في سماع غناء لطيف، وأحيانًا تشترك في لعب «الكونكان».

وأما الفتى الشاب ففي كلية من كليات الجامعة، يقضي في كل فرقة سنتين أو أكثر لقلة إقباله على المذاكرة وضعف استعداده، وهو مشترك في نادي الصيد ونادي التجديف، وفي المساء له «غطسات» لا يعرفها أهله ولا «أنا»، وله سيارة خاصة، يسوقها بنفسه، كما للباشا سيارة، وللسيدة سيارة.

وأما الآنسة ففي مدرسة الليسه، تعرف من الفرنسية أكثر مما تعرف من العربية، وتكثر من قراءة الكتب الفرنسية، ولا تقرأ -أو هي تحتقر أن تقرأ- كتابًا عربيًا، وتقضي بعض أوقات فراغها في التطريز والتصوير، وتصرف الزمن الطويل هي ووالدتها في اختيار ما يناسب من الملابس وتفصيلها على أحدث «بدع»، وفي ابتياع أدوات الترف والزينة من المحال الارستقراطية التي لا يضع فيها الجمهور قدمه. وإذا أتت مصر الفرقة التمثيلية الفرنسية لم تفتها أية رواية.

تحرّيت طويلًا عن ميزانية هذا القصر فعلمت بعد أنها لا تقل عن ثمانيمئة جنيه في الشهر، فمصروف المطبخ اليومي بين ستة جنيهات وثمانية، والطاهي وحده يأخذ ثمانية عشر جنيهًا، وعلى هذه النسبة سائر الخدم، ولا تسل عما يصرف على الملابس والكماليات.

وأخلاق الأسرة على نمط الأخلاق الأوروبية، فهم يتحرون الصدق في القول والوفاء بالوعد، وتنفيذ الكلمة تصدر منهم كأنها صك، ويؤدون الواجبات الاجتماعية والمالية خير أداء، ويعتزون بالمال والجاه والنسب أكبر اعتزاز، أما الرحمة والشفقة والإحسان والتواضع فأخلاق شرقية لا يعبأون بها.

وأما الدين فليس له مجال في البيت. فلا صلاة ولا صيام. وإنما يذكرون الله في المناسبات كدعوة لمريض أو ترحم على قريب أو صديق. والحجرة الوحيدة التي تقام فيها الصلاة لأوقاتها هي حجرة البواب النوبي بجوار الباب.

* * *

وشاء القدر أن أزور أيضًا بيتًا لفرّاش مدرسة، ولزيارة بيته قصة طويلة حريَّة أن أفرد لها مقالًا، مرتّبه ستة جنيهات وفيها العلاوة، ولم تستطع سيارتي أن تدخل في زقاقه فترجلت، واضطررت بعد قليل من المشي أن أضع منديلي المعطر على أنفي.

وجدته وأهله يسكنون حجرتين في الدور الأرضي من الدار، قليل ضوؤهما، فاسد هواؤهما، قد رزق ستة من الأولاد، أربعة أبناء وبنتين، يأكلون من الخبز فقط بجنيهين ونصف. وقد لا يكفيهم؛ قد استعان على معيشته بابنه الأكبر، فهو صبي في مطبعة بثمانية قروش في اليوم، يفطرون كل يوم بقرشين فولًا مدمسًا بزيت، ويعيشون أكثر أيام الأسبوع على الطعمية والعدس والجبن والفجل، ولا يأكلون اللحم إلا ليلة في الأسبوع، لكل واحد منهم ثوب واحد لا يغيّره حتى يبلى. يتدفأون في الشتاء «بدفاية» يشعلونها بقليل من الخشب والحطب، وإذا أسعفهم الحال فقليل من الفحم البلدي. أثاث بيتهم حصير في كل حجرة، ومراتب وألحفة تطوى نهارًا وتفرش على الحصير ليلًا، إضاءتهم بمصباح يوقد «بالجاز»، ولا مطبخ لهم، إنما في ركن من أركان إحدى الحجرتين بعض الحلل وبعض الأطباق، و«وابور بريموس» قديم لا يرى نحاسه من كثرة صدئه.

يتسلون أحيانًا بسماع الراديو من بيت الجيران، علاقة الأبوين بالأولاد متأثرة بضيق النفس من سوء العيش؛ فضرب كثير، وسباب كثير، وأحد الأبناء رضيع، والثاني فطيم، والثالث في مدرسة أولية، والبنتان تربيهما الحارة، لا يهم الأسرة من الحكومة ونظامها ومن يتولاها إلا إعانة غلاء المعيشة ومسائل التموين؛ إذا مرض مريضهم طبوا له بالوصفات البلدية، فإذا اشتد الأمر لجأوا إلى المستشفى في حيّهم، فيلقون أشد من المرض، حتى يكشف على مرضهم، ويصرف له الدواء.

أخلاقهم خاضعة للعرف والتقاليد والرأي العام لأهل الحارة أكثر من خضوعها للعقل والتربية الصحيحة، يسيرهم في كثير من شؤونهم ما يدور بينهم من خرافات وأوهام وجن وعفاريت، في الطبّ وفي السعادة والشقاء وما يؤكل في المواسم وما يقال من تعاويذ؛ وسمرهم بالليل إنما هو ما يحدّث به الرجل مما جرى في المدرسة، وما حدث من زملائه الفراشين، وما تحدث به المرأة مما جرى في الحارة وما سمعته عن بيوت الجيران، وقد يتحدث الأطفال عما جرى أثناء لعبهم مع أولاد الحارة.

وللدين مجال في البيت، فالرجل لا يحافظ على صلواته كلها في أوقاتها، ولكنه يحرص على صلاة الجمعة، والمرأة لا تصلّي، ولكنها وزوجها وكبير أولادها يصومون رمضان، وهم جميعًا يذكرون الله، وخصوصًا في تصرفاته في الغنى والفقر والإسعاد والإشقاء، وقدرته التامة على أن يعز من يشاء ويذل من يشاء.

* * *

وتمت فصول الرواية بزيارة بيت ربّه موظف في الوزارة الداخلية في الدرجة الثالثة، يتقاضى خمسين جنيهًا في الشهر، قد رزق ثلاثة بنين وبنتين، يسكن شقة بخمسة جنيهات (إيجار ما قبل الحرب)، أعد ثلاث غرف للنوم، وغرفة للاستقبال، وغرفة للأكل، وبغرف النوم مكاتب لمذاكرة الأولاد، والبيت مؤثث أثاثًا وسطًا أكثره قد قدم به العهد، فهو يصحبهم من أيام الزواج، وقد أدخلت عليه التجديدات الضرورية، وبه راديو ونور كهربائي، وعندهم خادمة واحدة تساعد السيدة في شؤون البيت من طبخ وغسل، والمطبخ لا بأس به، ففيه «وابور جاز» وأدوات الطبخ الضرورية، وأكلهم في الصباح فول وبيض ولبن، ومن حين لآخر يزيدون جبنًا ومربى، وغذاؤهم طبق لحم، وطبق خضار، وطبق أرز، وبرتقالة في الشتاء، وبطيخ أو شمام في الصيف، ويومان في الأسبوع لا لحم فيهما، والعشاء من باقي الغداء أو حيثما اتفق.

والبنون أحدهم في كلية التجارة، والثاني في مدرسة ثانوية، والثالث في مدرسة ابتدائية، والبنتان إحداهما في مدرسة ثانوية، والأخرى في الثقافة النسوية، وجميعهم بمصاريف، إلا الأخيرة فقد قبلت مجانًا.

ولكل من الوالدين والأولاد «بدلتان» شتويتان وأخريان صيفيتان، وهذه الملابس للآباء والأبناء والبنات تفصل وتخيط عند خياط وخياطة ولا تشترى جاهزة.

والأبوان يشكوان مرَّ الشكوى من قلة الدخل وكثرة الصرف، وخاصة في أشهر الأقساط المدرسية، ولا يأتي آخر الشهر حتى يكونا قد لهثا من طول الشوط مع ثقل الحمل.

والسيدة تقضي صباحها في شؤون البيت، وعصرها في استقبال زائرة أو رد زيارة، والأب يقضي صباحه في وظيفته، وعصره في مقهى، ومساءه بين أسرته.

والأولاد إذا حضروا من مدارسهم ذاكروا دروسهم، ويوم الخميس يذهبون إلى سينما أو مشاهدة رواية، وسمرهم في المساء يدور حول ما سمعت السيدة من صواحبها، وكثيرًا ما يتحدث الرجل في العلاوات والترقيات وفصوله مع رؤسائه ومرؤوسيه. وأحيانًا يتحدث مع أولاده في تجاربه في حياته، ويقصُّ عليهم ما كان منه من جدّ ونشاط وتفوق وذكاء أيام دراسته.

وقد لاحظت في هذه الأسرة شيئين لم أرهما في الأسرتين السابقتين: أحدهما طموحها الشديد لأن تتشبه بالأغنياء وخاصة في المظاهر، فهم يقلدون ما أمكنهم معيشة الأغنياء في بيوتهم، وإن لم تكن لهم مقدرتهم، وإذا لم يستطيعوا ذلك عملًا فلا أقل من أن يقولوه قولًا أو يصطنعوه طلاء. والثاني الخلاف الشديد بين الأولاد وأبويهم في عقليتهم ومشاربهم، فالبنت تريد أن تذهب إلى السينما وحدها، والأب لا يرضى، والابن يريد أن يشترك في حزب سياسي وفي نادي ألعاب، والأب لا يرضى، والبنت الثانية تريد أن تتعلم «الكمان» على معلم خاص، والأب لا يرضى، والابن الثاني يريد أن يشترك في فرق التمثيل في المدرسة والأب لا يرضى، وأثقل شيء على الأبناء أن يحدثهم أبوهم عن ماضيه، وأثقل شيء على البنات أن تحدثهن أمهن عن ماضيها.

والأم في البيت متدينة، والأب بين بين، والأولاد لا يأبهون بالدين.

* * *

وقد حمدتُ المناسبات التي أَطلعتني على هذه البيوت؛ لأني أطللت منها على بيوت القاهرة كلها في إجمال.

وتسألني: كيف عرفت دخائل هذه البيوت كلها؟ فأقول: إن المقادير تيسر أحيانًا ما لا تيسره التدابير.

* * *

اليهود في أمريكا

قد كتب الله على نفسه ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 105] ، وليس الصالحون من صلوا وصاموا ثم ناموا، إنما الصالحون من ضموا إلى عبادة ربهم رعاية حقوقهم وواجباتهم.

لعل من الخير أن يعرف قرّاء العربية تفاصيل كثيرة عن مركز اليهود في العالم؛ لأن ذلك يلقي ضوءًا على الحوادث التي تقع بين العرب والصهيونيين في فلسطين، وتوضح موقف الدول منهم ولِمَ تناصرهم؛ ولعل الكتاب يكثرون من بحث هذا الموضوع والكتابة فيه؛ لأن مسألته مسألة اليوم وأزمته أزمة الساعة. ولنبدأ اليوم باستعراض لموقف اليهود في أمريكا؛ لأنها أكبر دولة تؤيدهم في السر والجهر وفي السياسة والمال.

وتاريخ اليهود في كل أمة تاريخ طويل، في بلاد العرب وبين المسلمين، وفي إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وروسيا وألمانيا وإيطاليا، وأخيرًا في أمريكا؛ فهم حيثما وجدوا سببوا حركة حولهم، وشعور تخوف منهم وحذر من أعمالهم، وأكبر سبب في ذلك أنهم لا يذوبون في الأمم التي يعيشون فيها، فاليهودي الإنجليزي يهودي أولًا، وثانيًا، وثالثًا، وربما كان إنجليزيًّا رابعًا، وكذلك اليهودي الألماني والأمريكي... إلخ. وهم لا يقتصرون على المحافظة على شخصيتهم وجنسيتهم من ناحية الدين، بل هم كذلك في ناحيتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فهم دائمًا يكونون أمة داخل كل أمة.

هذا تاريخهم قبل النصرانية وبعدها -قبل الإسلام وبعده -في عالم الشرق وعالم الغرب. وقد وضعوا فلسفتهم الاجتماعية والدينية على أساس هذه الفكرة، فكرة الانفراد والانفصال وعدم الذوبان في الأمم التي يعيشون فيها، وتكوينهم نواة منفردة وسط المحيط الذي يعيشون فيه، على نمط لم يعرفه التاريخ لأي مذهب ديني أو اجتماعي آخر، وقد فسر بعضهم هذا بأنه «مركب نقص» دعا إليه شعورهم بقلة عددهم. ولكن هذا تفسير لا يكفي؛ لأن كثيرًا من المذاهب الدينية والاجتماعية كان معتنقوها أقل عددًا، ومع ذلك لم ينفصلوا هذا الانفصال،

ويعتزلوا هذه العزلة، ويستقلوا بأنفسهم هذا الاستقلال.

ومن أجل هذا الانفصال وجد عند الأمم التي يعيشون فيها نوع من الكراهية لهم، كما يكره من الجماعة الرجل النَّفور الذي يعيش لنفسه فقط، وكان هذا الكره متبادلًا، يقتصر أحيانًا على ما في النفس، ويتحول أحيانًا إلى عسف وعنف. فلما تحولت الدولة الرومانية إلى دولة نصرانية، وسادت هذه الديانة كان اليهود فيها موضع الكره والعسف في كل أقطار المملكة الرومانية. ولما جاء الإسلام عاملهم الرسول أول الأمر معاملة إحسان وإكرام، ولكن سرعان ما تبين ميلهم إلى الوحدة والانفصال وتدبير المؤامرات لبذر بذور الشقاق بين المسلمين، فكان الخصام وكان القتال بين المسلمين وبني قريظة وبني النضير من اليهود. ونزلت ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: الآية 82] .

وهكذا كان الحال بعد بين اليهود والنصارى واليهود والمسلمين، وإن كان المسلمون أحسن معاملة وأوسع صدرًا وأكثر احتمالًا، فطالما عانى اليهود أشد العناء من معاملة النصارى لهم، وكثيرًا ما حرموا عليهم الملكية واضطروهم أن يسكنوا في أحياء خاصة، ومنعوهم من استعمال حقوقهم المدنية.

واشتهر اليهود حيثما حلوا بحب المال وما يتبع ذلك من مهارة في التجارة والمعاملات المالية من غير رحمة، فإذا أقرضوا استخدموا كل الوسائل لإيقاع المقترض منهم في الشباك، ثم امتصوا دمه من غير رأفة. كانوا كذلك في المدينة بين العرب، بيدهم الذهب، وبيدهم صناعة الحلي الذهبية، وهم الذين يقرضون بالربا أضعافًا مضاعفة، وكذلك كانوا في أوروبا، ولسنا ننسى التصوير البديع الذي صورهم به شكسبير في رواية «تاجر البندقية». من أجل ذلك قوبلوا من الأمم التي يعيشون فيها بالكراهية والنفور والحذر، وهذا ما زاد اليهود حبًّا في تكتلهم وانطوائهم على أنفسهم وتكوينهم وحدة خاصة بهم. ولم يستطع اليهود أن يستردوا كثيرًا من حريتهم إلا عند الانقلاب الصناعي الذي حدث في أوروبا وسيادة الروح الديمقراطية، والنظام الديمقراطي، وانتشار الدعوة إلى الحرية والإخاء والمساواة، ومع ذلك بقي كثير من الجفاء بين النصرانية واليهودية، وبقي تكتل اليهود وانفصالهم عن مجتمعهم إلى حد كبير. وأثار اليهود الضغينة من جدي؛ لأنهم حتى بعد الانقلاب الصناعي تسابقوا مع المسيحيين وجدُّوا في أن يكون لهم منزلة ممتازة وسلطة قوية في الصناعات أيضًا، مع بقاء تكتلهم ومساعدة بعضهم بعضًا ضد من يسابقونهم من النصارى.

ونعود إلى موضوعنا فنقول: إن اليهود لم يكونوا كثيري العدد في أمريكا قبل منتصف

القرن التاسع عشر، ثم زادت هجرتهم إلى أمريكا من ألمانيا وسائر الممالك الأوروبية على أثر الحركات الثورية التي حدثت في أوروبا بعد سنة 1848؛ ومن سنة 1880 إلى الحرب العالمية الأولى هاجر إلى أمريكا آلاف من يهود بولندة وأوكرانيا والبلقان، ونزل أكثرهم في المدن الكبرى على ساحل البحر الأطلنطي، وفي شيكاغو وما حولها، وفي سنة 1940 بلغ عدد اليهود في نيويورك مليونين ونصف مليون، وهو نصف عدد اليهود في أمريكا إذ ذاك، وقد زاد عددهم بعد، فبلغ نحو ستة ملايين.

وما هاجر هذا العدد من اليهود إلى أمريكا حتى وضحت الظاهرة المزمنة، وهي الصراع الاقتصادي بين اليهود والمسيحيين، وكان النظام الرأسمالي في أمريكا مرتعًا خصبًا لليهود يجولون فيه ويسودون ويسيطرون، ومن أجل هذا شاع بين الأمريكيين أن اليهود لا يتجهون وجهة قومية، ولكن وجهة يهودية مالية بحتة عمادها السيطرة على البنوك، ومن العجيب أنهم اتهموا أيضًا بمناصرة الشيوعية ونشر التذمر والقلق والاضطراب في الطبقات الدنيا من العمال وأمثالهم، وفسر بعض الأمريكيين ذلك بأن اليهود يلعبون على حبلين، فيناصرون الرأسمالية ويناصرون الشيوعية، وهم يستفيدون من هذا وذاك، وهم الرابحون إذا نال النصر والظفر هذا أو ذاك، وهذه هي بعينها الألعوبة التي لعبها الصهيونيون في فلسطين، وهذا الموقف الغريب من اليهود في لعبهم على الحبلين وانتصارهم للنقيضين، كان أحد الأسباب التي حملت هتلر على اضطهادهم وتشريدهم والتنكيل بهم.

ويهود أمريكا قد حافظوا على الصفة البارزة في يهود العالم، وهي تكتلهم وانطواؤهم على أنفسهم وتكوينهم أمة في الأمة. ومن أبرز ما فيها أيضًا ميلهم إلى الحركات اليسارية الاقتصادية والسياسية. ومن عجيب الأمر أن قد أجرى بعض الباحثين الأمريكيين تجاربهم على عدد من الطلبة في الجامعات الأمريكية، فثبت لهم بالبحث أن طلبة اليهود أقل تمسكًا بدينهم من الطلبة المسيحيين، وأسرع إلى اعتناق مبادئ الإلحاد. وقام الأستاذ كارلسون ببحث 215 حالة من طلبة جامعة شيكاغو، في الصفوف العليا، فوجد أن طلاب اليهود أشد اعتراضًا على مبدأ تحريم الخمر، وأنهم أقل إيمانًا بالله من أمثالهم من الكاثوليك والبروتستنت، وأنهم أيضًا أشد تحمسًا لمبدأ ضبط النسل والشيوعية والدعوة إلى السلم، وأن الطلبة الكاثوليكيين أشد تحفظًا، والطلبة البروتستنتيين وسط بين هؤلاء وهؤلاء. ومما لاحظه الأمريكيون أيضًا، مهارة اليهود -بجانب مهارتهم المالية- في الدراسات الجامعية، وخاصة الطب والقانون والتعليم.

وقد أدّى كل ما ذكرناه من مسلك اليهود في الصناعات، والسياسة والمال، والجامعات، إلى تنافس شديد بين المسيحيين الأمريكيين واليهود الأمريكيين تنافسًا سبب الخصومة والعداء، وكان لذلك مظاهر كثيرة. فبعض الجامعات الأمريكية تحرم الطلبة اليهود من الاشتراك في نواديها والمنظمات الاجتماعية فيها، وبعض الطلبة يعير بعضًا إذا صاحت فتاة يهودية، مما اضطر بعض اليهود إلى ترك التعلم في بعض الجامعات فرارًا من الضغط الاجتماعي. وهم يعيرون اليهود بأنَّهم عيابون ظنانون أنانيون لا يتعاونون إلا مع أنفسهم، وكثيرًا ما كان اسم اليهودي كافيًا لحرمان صاحبه من الدخول في الجامعة، أو حرمانه من منصب الأستاذية أو نحو ذلك، ولذلك لجأ بعضهم إلى تغيير أسمائهم واستعارة أسماء مشتركة بين المسيحيين واليهود للاستفادة من هذا الغموض في أعمالهم الخاصة.

واليهود الأمريكيون، مع تكتلهم، مختلفون من حيث طبقاتهم الاجتماعية ومن حيث عقائدهم الدينية، ومن حيث الأمة التي ينتسبون إليها من ألمانية أو بولندية أو نحو ذلك. فاليهودي الغني من الإسبان أو البرتغال يعدُّ نفسه أعلى اليهود نسبًا، وأعظمهم جاهًا، ويليه الغني من الألمان، ولكن لكثرة عدد الألمان من اليهود وكثرة غناهم ربما عدوا أعلى طبقة.

وهؤلاء بما كسبوا من ألمانية متفوقة متعجرفة يحتقرون اليهودي الروسي والبولندي.

ولهذه الخلافات الاجتماعية والعنصرية أثر كبير في نشوب الخلافات المتعددة بينهم، ولكنهم مع خلافهم بعضهم وبعض يتكتلون تكتلًا قويًّا إذا حزب الأمر وعرضت منافسة بين اليهود وغيرهم؛ فهم إذ ذاك يكونون كتلة واحدة قوية، ويقفون وقفة واحدة أمام غيرهم. ومهما يكن أمرهم فقد أصبحوا في أمريكا قوة كبيرة بتسلطهم على منابع الثروة والقوة والدعاية، فهم أرباب البنوك وأرباب السينما وأرباب الصحافة. وبذلك كان سلطانهم في أمريكا سلطانًا كبيرًا.

فهل يتخذ العرب من هذا كله درسًا فيُكتّلوا أنفسهم، ويوحدوا كلمتهم، ويقووا مراكزهم في السياسة والمال وعدد الحرب والدعاية، ويفتحوا أعينهم لكل ما يجري في العالم مما يتعلق بهم وبمستقبلهم، ويدعموا حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية بدعامة العلم الحديث؟ أو يظلوا متفرقين والعدو مجتمع، متصدعين والعدو ملتئم، قابعين في بيوتهم والعدو ينشط في كل الميادين؟ يسيرون سير الجمال والعدو يقفز بالطيارات، مكتفين بالدعوة بأن الحق معهم، والحق لا يغني ما لم تدعمه القوة. وقد كتب الله على نفسه: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 105] وليس الصالحون من صلوا وصاموا ثم ناموا، إنما

الصالحون من ضموا إلى عبادة ربهم رعاية حقوقهم وواجباتهم، وعرفوا كيف يسوسون للمالك ويدبرون أمورهم على خير وجه وأقوم طريق، وتسلحوا بكل ما يقتضيه الزمان من سلاح ـ مادي ومعنوي -أولئك هم الصالحون الذين يرثون الأرض. أما من عداهم فيرثون الذل والمسكنة في الدنيا والقبور في الأخرى. ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 26].

* * *

مصادفة

هل في الوجود مصادفة؟ أم أن الوجود كله خاضع لقوانين ثابتة نعرف بعضها فنسميه سببًا ومسببًا، ونجهل بعضها فنسميه مصادفة؟

خرجت في سيارتي أول أمس، وكان كل شيء على ما يرام: السائق متمرن، والسيارة تسير سيرًا حسنًا والجو معتدل، وأوصلني السائق إلى حيث أريد، ثم استمر في سيره لعمل من الأعمال، وبينا هو يسير إذا غلام يخرج من الشارع فجأة وهو يجري، فيريد السائق أن يتفاداه فيصطدم بعربة ترام فيتهشم الجانب الأيسر من السيارة، ولم أشعر إلا والسائق يكلمني في التليفون ليخبرني بما حدث.

وفي اليوم التالي استدعيت مندوب شركة لإصلاح العربة، فبعد أخذ وردّ قرر أن يصلحها بثمانية عشر جنيهًا. وعدت إلى بيتي فوجدت خطابًا مسجلًا، ففتحته، فإذا فيه حوالة مالية بمبلغ ثمانية عشر جنيهًا، ولم أكن أتوقع هذا المبلغ مطلقًا؛ لأني كنت أديت عملًا علميًّا وأعطيت عليه مكافأة، وانتهى كل شيء، فإذا هم يذكرون مع هذه الحوالة أنها بقية المكافأة.

ما هذا؟ وكيف حدث أن الغلام يخرج من الشارع فجأة وقت سير سيارتي ووقت سير الترام، ولم أكن في السيارة، وكيف نجا سائقها، وكيف اتفق مبلغ المكافأة مع مبلغ الإصلاح؟

فكرت في هذا كله: أهذا قَدَر قُدِّر أم مصادفة حدثت، وتسلسل تفكيري على النحو الآتي: ما معنى مصادفة؟ إن من العسير تحديد معناها، والناس يطلقونها على معان مختلفة، وكثيرًا ما يستعملونها في معنى الخير ومعنى الشر؛ فتهشيم السيارة كان مصادفة سيئة، ونجاتي ونجاة السائق من هذه الصدمة، ومجيء الحوالة المالية كان مصادفة حسنة. ولعل المعنى الذي يراد منها هو حدوث شيء غير متوقع وغير مرتبط بشيء آخر سابق عليه في الوجود، وليس له سبب معروف يوجب حدوثه، وكان يمكن أن يحدث ويمكن أن لا يحدث، وليس خاضعًا للقوانين التي نعرفها ولذلك لا نتوقعه. فلسنا نسمّي تعاقب الليل والنهار، ولا تتابع

الفصول ولا غليان الماء بالنار، ولا تبخره إذا غلى، ولا شيئًا مما عرفنا سببه، مصادفة؛ لأنها كلها تابعة لقوانين معروفة يمكن أن نتنبأ بها، ونجزم بأنه إذا حدث السبب حدث المسبب. ولكن إذا كنت اعتزمت السفر غدًا فجاء الجو جميلًا والشمس ساطعة عددت هذا مصادفة حسنة، وإذا جاء الجو عكس ذلك عددته مصادفة سيئة؛ لأني أعرف وقت مجيء النهار فلا أسمّي ذلك مصادفة، ولكني لا أعرف أنه سيكون صحوًا أو غيمًا، أو باردًا أو معتدلًا، فأسمّي هذا مصادفة؛ وما أسميه أنا مصادفة في هذا الباب قد لا يسميه عالم الأرصاد مصادفة إذا كان يتنبأ بحالة الجو في الغد بناء على علمه، فالمصادفة إنما هي مصادفة عند الجهل بالقوانين واحتمال أن الشيء يكون أو لا يكون.

وتساءلت بعد ذلك: هل هناك شيء يصح أن نسميه مصادفة؟ أو بعبارة أدق: هل في الوجود مصادفة، أم أن الوجود كله خاضع لقوانين ثابتة، نعرف بعضها فنسميه سببًا ومسببًا، ونجهل بعضها فنسميه مصادفة؟ هذا السؤال هو بعينه سؤال الجبر والاختيار أو بعبارة أخرى سؤال الإيمان بالقضاء والقدر وعدم الإيمان بهما؛ وهو سؤال ظل الناس طوال العصور يحارون في شأنه، ويختلفون في الإجابة عنه، كان ذلك في العصور القديمة، وفي العصور المتوسطة، وفي العصور الحديثة؛ واتخذ الناس وضع السؤال والإجابة عنه أشكالًا مختلفة؛ ففي القديم كانوا يصوغونه: هل قدر على الإنسان كل ما يحدث له أو لا؟ وهل إرادة الإنسان حرة أو لا؟ وفي العصور الحديثة اتخذ وضعًا آخر وهو: هل ظروف الإنسان وبيئته المحيطة به تجعله يتصرف تصرفًا ما كان يمكن أن يتصرف غيره، أو أن إرادة الإنسان ليس شأنها شأن النبات والجماد والحيوان تسير في الوجود على وتيرة واحدة وعلى نمط في الحياة لا يتغير، بل هي حرة تمام الحرية، تتجه إلى الشيء وكان يمكنها أن تتجه إلى غيره، وتسلك هذا الطريق وكان في إمكانها أن تسلك الطريق الآخر! وهكذا من مختلف الأشكال في السؤال والجواب، والمحور في الجميع واحد.

ولئن كان الفلاسفة في جميع العصور لم يستطيعوا حتى اليوم أن يجيبوا إجابة حاسمة، فإنهم لم يتعبوا من السؤال والجواب، وظلوا يشكلون الصعوبة بأشكال جديدة، ويجيبون عنها إجابات جديدة.

ومن المعقول أن من يقول بالجبر لا يقول بالمصادفة؛ فكل شيء مقدر على الإنسان في الأزل، سواء منه ما كان مظهره الاختيار أو مظهره الاضطرار؛ وإن تكلم بالمصادفة فمعناها

في نظره شيء لم يجر به الإلف ولم يحدث في العادة، ولكن شأنه شأن غيره من المقدرات الأزلية. أما الذين يقولون بحرية الإرادة وحرية التصرف، فمجال المصادفة عندهم فسيح؛ فإن جميع شؤون العالم وخاصة التصرفات الإنسانية كلها عالم مصادفات، غاية الأمر أن هناك مصادفات يكثر حدوثها وتكرارها على نمط واحد، فنعدل عن تسميتها بالمصادفات إلى تسميتها بالقوانين، والقوانين في نظرهم يمكن أن تختلف؛ وهناك أحداث لم تؤلف ولم يكثر وقوعها على نمط واحد، فاكتفوا بتسميتها بالمصادفات.

ومن النتائج المؤلمة للقول بالجبر أن هذا المذهب يسلم إلى القول بأن ما وقع ما كان يمكن أن لا يقع، وأن ما سيقع لا يمكن أن لا يقع؛ وبعبارة أخرى: ما وجد ما كان يمكن أن لا يوجد، وما سيوجد لا يمكن ألا يوجد، فليس لإرادة الخيِّرين المصلحين تأثير في الإصلاح، إلا على ضرب من التأويل، وهو أن المصلح -هو أيضًا- مجبر على الدعوة إلى الإصلاح لتحقيق النتيجة المحتومة؛ وهو مذهب قد يربح معتقده ويبعث فيه الراحة والطمأنينة، ولكنه لا يستفز الإرادة لإصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج. ولعل إفراط المسلمين في العصور الأخيرة في عقيدة الجبر وغلوهم في الإيمان بالقضاء والقدر على النحو الذي اعتنقوه أخيرًا، كان من أسباب قصورهم في إصلاح حالتهم الاجتماعية وتقدمهم وسيرهم مع الزمان. وربما كان من أكبر الفروق بين الشرقي والغربي، رضاء الشرقي عما كان وسيكون، وقناعته بحالته ولو ساءت، وثورة الغربي على ما يسوؤه وحده في تعرف أسبابه وعلاج فساده.

كما أن من الصعوبات في هذا المذهب غموض التفرقة بين الخير والشر، فإنه إذا كان الكذب والجبن والظلم قدرًا أزلًا، كالصدق والشجاعة والعدل، وأن المجرم في الحالة الأولى، والفاضل في الحالة الثانية، كل قد أتى بالأعمال التي قدرت عليه، فما الوجه للاختلاف في التسمية والاختلاف في التقدير؟ أو ليس من غير المفهوم على هذا الأساس تسمية شيء بأنه خير وتسمية آخر بأنه شر؟

وإذا عدنا إلى مذهب الاختيار وجدناه كذلك معيبًا؛ فإن مذهب الاختيار بأوسع معانيه يجعلنا ننكر سير العالم، وخاصة التصرفات الإنسانية، وفق قوانين مضبوطة؛ فإذا كان الإنسان يمكنه أن يعمل وأن لا يعمل، ولا نستطيع أن نتنبأ بما سيعمله إذ يصحُّ أن يعمل غيره، كان المستقبل فوضى لا نستطيع أن نرسم أشكاله، وكان الحكم على الناس بأنهم أخيار أو أشرار مجالًا للشك، إذ ربما يأتي الخيّر بأفظع أنواع الشر، ويأتي الشرير بأحسن أنواع الخير!

* * *

هأنذا حائر في تفكيري بين الجبر والاختيار! وكل ما حدث أن سيارتي تكسرت، وأثار كسرها تكسير عقلي في الجبر والإختيار والمصادفة، وعدم المصادفة وأخشى أن أكون كذلك أتعبت عقل القارئ من غير وصول إلى نتيجة، والأمر لله.

* * *

إلغاء البغاء

البغاء نتيجة لا سبب. فإذا أردنا القضاء عليه وجب أن نعمل للقضاء على أسبابه.

أصدرت مصر في هذا الشهر أمرًا عسكريًّا بإلغاء البغاء.

والبغاء داء قديم يكاد يكون تاريخه تاريخ الجمعية البشرية، وقد حارت الدول في شأن معالجته في كل العصور؛ فكانت أحيانًا تعالجه بإقراره والاعتراف به ثم حصره؛ ووجهة نظرها في هذا الإقرار أنها إنما تفعل ذلك حرصًا على الأسر. فإنها رأت أن العهر لا بد منه ولا يمكن اتقاؤه، فإذا حاربته جهرًا تسرب سرًّا. وبذلك ينتشر العهر أو الفجور في أوساط ما كانت لتزل لو وجدت أمكنة للبغاء معينة، فالبغيُّ ماهرة ماكرة لها من الوسائل ما تستطيع به أن تنصب شراكها وتنفذ رغبتها سرًّا إذا عجزت عن تنفيذها جهرًا، كما تستطيع أن تندسَّ بين الأوساط الشريفة، فتفسد أخلاقها وتضعف من عفافها. وإزاء هذه الحجة مالت بعض الدول في عصور مختلفة إلى الاعتراف بهن، وتخصيص بيوت لهن، وإرغامهن على تسجيل أسمائهن في سجل، وإلزامهن بثياب خاصة بهن حتى يعرفن، ووضع مراقبة شديدة عليهن، ومما احتج به أصحاب هذا النظر أن البغي عرضة للأمراض السرية، فمن الخير أن يعرفن ويحصرن وتقيد أسماؤهن حتى يخضعن للكشف الطبيّ، وتبعد من ثبت مرضها وتعالج، فلا تنتشر بسببها العدوى.

هذه وجهة نظر الدول التي أقرّت البغاء. ولكن نظرت بعض الدول الأخرى إلى المسألة من زاوية أخرى. فرأت أن إقرار الدولة للبغاء اعتراف بالمهانة الإنسانية وإهدار للكرامة النفسية، وتشجيع على زيادة البغاء وموت الضمير؛ فمن علمت أنها بغي معترف بها قد سجل اسمها في سجل الحكومة تبلد ضميرها وماتت نفسها وزاولت مهنتها -في نظرها- كما تزاول الحرة مهنتها، وقلَّ بعد ذلك أن يحيا ضميرها فتعدل عن عملها الخسيس. ورد هؤلاء - على فكرة حصر المرض ومعالجته بالكشف الطبي - بأن هذا الكشف إنما يجري على النساء البغايا، ولا يجري على من يغشَوْن دورهن من الرجال، وقد دلت الإحصاءات الدقيقة في أمريكا -مثلًا- على أن عدد المصابات بالأمراض السرية 4,86 في الألف من النساء، و10

في الألف من الرجال، والرجال يعدون كما تعدي النساء، وليس عليهم من رقابة ولا كشف طبيّ. أضف إلى ذلك أن إقرار البغاء يستتبع حتمًا وجود عدد كبير من الرجال يحترفون حرفًا في منتهى الخسة والنذالة، يسقطون بها أكثر مما تسقط البغي كالقواد وحماة البغايا ومحترفي وسائل الإغراء ونحو ذلك، وهم طائفة كالنباتات الطفيلية تمتص ماء السذج البسطاء، وقد تعيش عيشة الترف والنعيم على حسابهم.

ثم قد جربت الدول التي أقرّت البغاء وضع هذه البيوت تحت إشراف البوليس لمراقبتها، ولكن دلت الأمور في جميع الدول على أنها تجربة فاشلة، فلم يستطع البوليس إزاء الحيل الدقيقة والألاعيب الخفية، وإزاء المغريات بالمال وغير المال أن يؤدّي وظيفته كما ينبغي، فكان الأمر فسادًا على فساد.

ثم كان أن إقرار البغاء والاعتراف ببيوت البغايا سبب في اتساع تجارة الرقيق الأبيض حتى إلى عهد قريب؛ فالبيوت إذا أقرّت رتب أصحابها الخطط لاستيراد سلع جديدة، فجدوا في الحصول عليها بمختلف الوسائل، أحيانًا عن طريق الإغراء وأحيانًا عن طريق التهديد والإكراه؛ وقد لفتت خطورة هذا الأمر نظر عصبة الأمم، فدعت إلى اجتماع عقد في جنيف سنة 1921، وبثت خبراءها لكتابة تقارير عن تجارة الرقيق الأبيض في البلدان المختلفة وما يتبع ذلك من فساد، فقرروا «أن وجود الدور المرخصة عامل يزيد في الاتجار بالنساء، وأن التحريات التي أجروها لا تثبت هذا فحسب، بل تدل على أن الدور المرخصة في بعض البلدان تصبح مركزًا لكل أنواع الفساد الخلقي».

ومن أجل هذا كل الاتجاه الحديث في الدول المختلفة نحو إلغاء البغاء وعدم الاعتراف به واتخاذ الوسائل لمنع أسبابه أو تقليلها على الأقل، حتى إنه في الإحصاء الأخير كان عدد الدول التي تحرمه ثلاثين دولة، والتي تقره ثماني عشرة، وكانت مصر معدودة من الدول التي تقره فنقصت واحدة.

* * *

ولكن ما الذي يحمل على البغاء؟ لقد قال قوم من علماء البيولوجيا: إن بعض الأفراد يصابون بالشذوذ الجنسي بحسب تكوينهم، فيدعوهم ذلك إلى الإفراط في هذا الباب، وإن صحّ ذلك وصحّ العجز عن معالجته فهو قليل الحدوث. إنما الأسباب الهامة لذلك ترجع إلى عوامل اقتصادية واجتماعية.

فمن الناحية الاقتصادية كثيرًا ما يكون الفقر سببًا لهذا السقوط الخلقي: امرأة لا تجد من يعولها، ولا تجد حاجتها الضرورية من العيش والملبس، ولا تجد عملًا تعمله فتتكسب منه، وليست متعلمة تعلمًا يمكنها من عمل شريف، وتجد أن الأبواب كلها سدت في وجهها، ثم تجد من يغريها بالفجور فتسقط؛ وقد دلّت الإحصاءات على أن الفقر من أهم أسباب السقوط الخلقي، وأنه يكثر حيث يكثر الفقر ويقل حيث يقل غالبًا، وقد لا يكون السبب هو حصول الفتاة أو المرأة على القوت الضروري، ولكنها ترى مثيلاتها يأكلن أكلًا أنعم من أكلها، ويلبسن ثيابًا أفخم من لبسها، وينعمن بالحياة أكثر مما تنعم، ولم يكن لها من المبادئ الأخلاقية ما يحصنها ويحميها، فتنزلق عند أوَّل إغراء. ومن أجل هذا كان السقوط في المدن أكثر منه في الأرياف؛ لأن حاجات الإنسان ومطالب الحياة في المدن أكثر منها في الريف، ولأن سعة المدينة وكثرة سكانها يمكن المرأة من أن يجهل أمرها ولا تعرف حقيقتها ولا بيتها، فتجرؤ على ما لم تجرؤ عليه الفتاة المعروف بيتها المعلوم أمرها.

والأسباب الاجتماعية لهذا المرض كثيرة؛ فسوء التربية والخطأ في فهم الحرية واعتقاد أنها عمل الإنسان حسبما يشتهي ويهوى من غير قيد ولا رقيب، وانهيار المبادئ الأخلاقية التي تقدس العفة وتجعلها من أقوم الفضائل، وضعف الوازع الديني وتصدّع الأسرة وكثرة الشقاق بين أفرادها، وانحلال روابط الزوجية فيها، وضعف سلطة الآباء والأمهات على البنات، وفراغ المرأة وعدم استطاعتها أن تجد ما يملأ وقتها بعمل مفيد أو بتسلية بريئة، وعدم تقديرالعرف والرأي العام لخطر الزلل تقديرًا صحيحًا، وعدم استنكاره واحتقاره للمرأة غير العفيفة... كل هذه أسباب اجتماعية للسقوط الخلقي في هذه الناحية؛ وإن كثيرًا من المتعففين والمتعففات لم يحملهم على العفة حب في الفضيلة، ولا ترفّع عن الرذيلة؛ إنما يحملهم على ذلك خوف الأمراض السرية الشائعة؛ فقد ظهر هذا الوباء في جنوبي أوروبا في القرن الخامس عشر، واجتاح أوروبا كلها في القرن السادس عشر حتى كان الموتى به ثلث السكان، وكاد يعم العالم، فعمل الخوف منه في نفوس الناس أكثر مما عملت الحكومات والوعاظ والرغبة في الفضيلة.

* * *

وبعد، فإلغاء البغاء عمل مشكور، يرفع عن مصر وصمة إقرار الرذيلة إقرارًا رسميًّا وتحصيل الضرائب عليها، ويتضمن حسن التقدير للكرامة الإنسانية، ولكن لا بد أن نعترف بأن البغاء نتيجة لا سبب؛ فإذا أردنا القضاء عليه وجب أن نعمل للقضاء على أسبابه. لقد

أشرنا من قبل إلى بعض أسباب البغاء، فيجب أن نعمل لإلغائها كما ألغينا النتيجة، وإلا فإن بقيت الأسباب حاولت أن تنتج نتائجها في الخفاء، وفي ذلك الخطر الكبير. فإذا كان هناك مجرى من الماء وسددنا فوهته تجمع حتى يقوّى فيزيل السد أو يتسلل في الخفاء حتى يجد له مسربًا. يجب أن نعمل على رفع مستوى الحياة الاقتصادية حتى يقل الفقر فيقل العهر، وأن نعنى بالتربية كما عنينا بالتعليم، فالتربية غير التعليم، فقد يكون الشخص متعلمًا وليس مربيًا، كما قد يكون الشخص متربيًا غير متعلم، والذي يقف دون العهر هو التربية لا التعليم. وإن إلغاء البغاء ليس يكفي فيه إغلاق دوره وطرد محترفيه وتشتيت أهله، بل يجب مع ذلك توفير أسباب العيش لأهل هذه الحرفة الملغاة، ومراقبة أهلها مراقبة دقيقة، والقضاء أيضًا على دور الملاهي الخليعة التي هي سبب من أسباب الإغراء على البغاء، ثم إنشاء المستشفيات الصحية لمعالجة الأمراض السرية التي نتجت عن البغاء حتى نخفف نتائجه.

إن البغاء ثمرة شجرة خبيثة، فما لم تقطع جذورها تجددت ثمارها.

* * *

من الأدب العربي:

حديث أم زرع

من أظرف ما روت كتب الحديث، «حديث أم زرع»، وقد رواه المحدثون عن عائشة، وهي قصة لعلها كانت قصة شعبية عند بعض العرب سمعتها عائشة فروتها كما سمعتها. وتدور القصة على أن إحدى عشرة امرأة من نساء العرب ضمهن مجلس، وجرى بينهن ذكر الأزواج، فتعاقدن أن تصف كل زوجها ولا تكتم من أخباره شيئًا، فكان المجلس بذلك معرض أزواج، منهن الراضية والساخطة، ومنهن المادحة والقادحة، ومنهن الفصيحة البليغة، ومنهن دون ذلك. وأيًّا ما كان فالقصة تمثل نظر نساء العرب إلى أزواجهن، وتمثل الصفات الممدوحة والمذمومة في بيئتهن. ونكتفي بما استحسناه من وصفهن ذمًّا كان أو مدحًا، فبعضهن كانت تافهة لا قيمة لوصفها، وبعضهن أخلَّت بالوعد فخافت من وصف زوجها.

قالت إحداهن إن زوجها غث هزيل، يجمع إلى قلة خيره سوء خلقه، لا ينال القليل منه إلا بالكثير من المشقة، وهو مع تفاهته مترفع متكبر يسمو بنفسه فوق موضعها. وقد عبرت عن ذلك بتعبيرها البدوي اللطيف: «زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى[1]».

وذمت أخرى زوجها بأنه جشع شره، إن أكل أو شرب أتى على كل ما أمامه، وهو مع ذلك لا يسدّ حاجتها منه: «إن أكل لفّ، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف».

وذمّت ثالثة زوجها بأنه عيي أحمق سخيف العقل، يتخيل كل داء عند الناس داءًا فيه، طويل اليد يضرب ويكسّر، وذلك إذ تقول: «زوجي عياياء طباقاء، كل داء له داء، شجك أو فلك أو جمع كلا لك».

---

(1) ينتقي: أي: يستخرج نقيه، والنقي هو المخ.

هذا نوع من أنواع الساخطات القادحات. أما من مدحن، فقالت إحداهن إنه حسن الرائحة طيب الملمس، وكنَّت بذلك عن طيب سيرته في الناس وحسن عشرته، إذ قالت: «زوجي، الريح ريح زرنب، والمسُّ مسُّ أرنب».

وقدّرت أخرى زوجها من ناحية المعنى فوصفته بأنها تسكن إليه وترتاح في جنابه، وتشعر بالطمأنينة إذ كان زوجًا لها وكانت زوجة له، لا تشعر من مصاحبته بسأم أو ملل، وعبرت عن ذلك تعبيرًا لطيفًا فقالت: «زوجي كليل تهامة، لا حرّ ولا قرّ، ولا مخافة ولا سآمة».

ولاحظت أخرى في زوجها معنى لطيفًا، وهو أنه لطيف العشرة في البيت، خشن الملمس خارج البيت، لا يسأل عما افتقده في البيت، فقالت: «زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد».

ومدحت زوجة زوجها فقالت: «زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد». فوصفته بالشرف وطيب الأصل، والرفعة في قومه، وأنه طويل القامة، كثير الكرم، كثير الضيوف، وأنه اتخذ بيته قريبًا من مجتمع القوم، ولا يفعل ذلك إلا الكريم؛ لأنهم يأخذون منه ما يحتاجون إليه في مجالسهم.

ومدحت زوجة زوجها بأنه كثير المال، وقد أعد المال لقصاده، فقالت: «زوجي مالك، له أبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك». وتريد بالجملة الأخيرة أنه تعود أن يلقي ضيوفه بالمزهر (والمزهر هو العود يغني عليه)، وقد تعودت إبله أنها إذا سمعت صوت العيدان والمعازف أدركت أنهن سينحرن لا محالة.

وجاء دور أم زرع فقالت: إنه زيّنني بالحلي، ووسع علي في الرزق، وأخرجني مما كنت فيه من ضيق في أهلي إلى نعيم في جنابه. فإذا قلت فيه فمجال القول ذو سعة، فذلك قولها: «أبو زرع وما أبو زرع، أناسَ[1] من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبجحني[2] فبجحت إلى نفسي، وجدني في أهلي في غنيمة بشق[3]، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق[4]، فعنده أقول

(1) أناس: حرك.

(2) بجحني: عظمني.

(3) شق: اسم موضوع.

(4) الصهيل: صوت الخيل. والأطيط: الإبل. والدائس: ما يدوس الزرع في البيدر ليخرج الحب من السنبل. ومنق: من النقيق، وهو أصوات المواشي.

فلا أقبح، وأرقد فأتصبّح[1]، وأشرب فأتقنح[2]».

ويروي الحديث أن رسول الله لما سمع هذه القصة من عائشة قال لها: كنت لك كأبي زرع لأم زرع.

وفي هذه القطعة الأدبية مصداق للحياة البدوية، من إبل وخيل وصهيل ونقيق، وفيها أمثلة لما يذم من الأخلاق من بخل وعي وحمق وشره، وما يمدح من كرم ونحر للضيفان، وسعة صدر، وحسن عشرة، وفيها مثل من أمثلة ما يعجب المرأة العربية من الرجل وما لا يعجبها... إلخ.

ونقف عند هذا الخير قليلا لنفكر: هل من المعقول أن يجتمع نساء كهؤلاء، فتقول كل زوجة على البديهة هذا اللفظ المزوق في هذا السجع المنمق، من مثل عياياء طباقاء، ومن مثل إن أكل لف، وإن شرب اشتف، وإن اضطجع التف، إلى آخر الأسجاع، أو أن قصاصًا لطيفًا سمع الحكايات المألوفة فوضعها في هذه الصيغة البليغة؟.

ترى، لو اجتمعت إحدى عشرة امرأة حضرية في مجلس القاهرة أو دمشق أو بغداد، فماذا كنّ يقلن إذا ذممن، وماذا يقلن إذا مدحن؟ ستختلف اللغة كل الاختلاف، وستختلف المعاني أيضًا كل الاختلاف، فلا يكون في اللغة بطبيعة الحال جمل ولا خيل ولا صهيل، ولا طويل النجاد ولا كثير الرماد؛ لأن كل بيئة لها حكمها، وكل زمان له لغته ومعانيه. وأكبر الظن أنه إذا اجتمع إحدى عشرة امرأة حضرية فمن الصعب أن يسود النظام والإصغاء حتى يسمعن رأي القائلة في وصف زوجها. ومن الصعب أيضًا أن يلتزمن الصدق، فسيكون منهن المتزيدة التي تسرف في مدح زوجها أو ذمه حتى تخرج عن المعقول. وهب أننا افترضنا الصدق والنظام فتكون هناك معان للذم جديدة، ومعان للمدح جديدة، ابتكرتها البيئة الجديدة. وسترى بعضهن يشكون أزواجهن من السهر خارج البيت إلى ما بعد منتصف الليل في سكر أو قمار أو مغازلة نساء أو كيف من الكيوف، وهو معنى لم يتعرض له حديث أم زرع. وقد يشترك بعضهن مع نساء البدو في الوصف بالبخل وسوء العشرة، وإذا مدحن فقد يشتركن أيضًا في المدح بالكرم وإغداق النعم عليهن ونحو ذلك. ولكن مما لا شك فيه أن المدنية ستوحي لبعضهن بمعان جديدة، فقد تصف الحضرية زوجها بأنه أباح لها الحرية في

(1) أرقد فأتصبح: كناية عن كثرة خدمها.

(2) أتقنح: أروى.

كل ما تقول وتفعل كما أباحت له الحرية في كل ما يقول ويفعل. ومايدرينا! لعل امرأة حضرية أخرى تصف زوجها الحضري بأنه استنوق فصار الناقة وصارت الجمل، وأصبحت الذئب وأصبح الجمل.

ولعل هذا الحديث يوحي لنا بوصف أحد عشر رجلًا يجلسون فيصفون زوجاتهم ويتعاقدون على الصدق في القول، إذًا لكان مجلسًا ظريفًا يكمل مجلس أم زرع. ولعلنا نفعل.

* * *

من الأدب العربي:

حكمة على لسان مهرج

من لقادة الأمم جميعًا بعقلية أبي دلامة؟

كان أبو دلامة مهرجًا كبيرًا في أول العصر العباسي، يضحّك الناس بشكله وقوله وفعله وشعره، فكان أسود اللون، قبيح الوجه، سكّيرًا معربدًا. وكان خفيف الروح، لطيف الشعر، حاضر البديهة، عارفًا بنفوس الناس وما يسرهم وما يغضبهم، وخاصة الولاة والحكام، خبيرًا بطرق اجتذاب المال منهم. وكان يقوم مقام (مضحك الملك). وكان مضحكًا للسفّاح والمنصور والمهدي، وتشيع نوادره وشعره وأقواله في بغداد فيخفون لها ويضحكون منها. ويخشى كل أمير أو كبير أن يجعله أبو دلامة موضعًا لنكتة أو نادرة من نوادره، فيسبغ عليه عطاءه حتى لا يكون موضع السخرية من الناس بما يتناقلونه فيه عن أبي دلامة. اتخذ من نفسه ومن زوجه ومن ابنه أسرة للحيل والمكر، يبتز بها الأموال من الأغنياء، ويضحك منهم، ويضحك عليهم. ويصفه الجاحظ بخبرته النفسية، ودهائه في الاستجداء، ويستدل على ذلك بأنه أضحك المنصور يومًا، فقال له: سلني حاجتك. قال: كلب صيد. قال المنصور: أعطوه إياه. قال: فدابة أتصيد عليها. قال: أعطوه. قال: فغلام يقود الكلب. قال: أعطوه. قال: فجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه. قال: لا بد لهؤلاء من دار يسكنونها. قال: أعطوه دارًا تجمعهم. قال: وإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ فأعطاه ضيعة... الخ. قال الجاحظ: فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، حيث ابتدأ بكلب، وانتهى بضيعة، ولو سأله الضيعة ابتداء ما وصل إليها.

وتروي لنا كتب الأدب الكثيرمن فكاهته ونوادره وشعره الذي يستخدمه في الإضحاك.

ولندع هذا كله ونروي له قصة رائعة حقًا حكيمة حقًا.

لقد كان أبو دلامة جبانًا يخشى الموت، ويخشى أن يحمل سلاحًا، ويخشى أن يشهد

قتالًا، وما له والقتال؟ فليس له إلا نكتة يقولها، أو أضحوكة يضحك بها، أو حانة يحتسي فيها الخمر أو نحو ذلك من ضروب اللهو. أما ميدان القتال فيهرب منه هروب الفأر من القط. وعرف الخلفاء والأمراء منه ذلك، فكانوا يأمرونه أحيانًا أن يتجهز للقتال لينظروا كيف يفعل، وكيف يضطرب، وكيف يستغيث، وكيف يصير أضحوكة للناس بعد أن اتخذ الناس أضحوكة له. أمره المنصور يومًا أن يخرج إلى الشام للقتال. فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن أخرج، فإني والله لشؤم، قال له المنصور. امض، فإن يمني يغلب شؤمك. فقال: لَعَمْرُ الله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجرب في مثل هذا الموقف، فإني لا أدري أيهما يغلب! يمنك أو شؤمي، وأنا بنفسي أدري وأوثق وأعرف وأطول تجربة. قال المنصور: دعني من هذا؛ فما لك بد من الخروج. قال: فإني أصدقك الآن، شهدت والله تسعة عشر عسكرًا كلها هزمت وكنت سببها، فإن شئت الآن أن يكون عسكرك العشرين فافعل. فضحك المنصور وأعفاه.

وليس هذا أيضًا هو المقصود من هذا المقال. إنما حدث مرة أن أتى به إلى المهدي وهو سكران، فأراد أن يعاقبه، فجنده في جيش مع روح بن عدي بن حاتم المهلبي لمحاربة الخوارج، وهم أصدق الناس قتالًا، وأعنفهم حربًا، وأنكاهم في عدوهم، وظل أبو دلامة يستعطف ولا يجد سميعًا، فخرج مع الجيش وحاول أن يستعطف قائد الجيش روحًا بن عدي المهلبي ويقول له [من البسيط]:

إنِّي أعوذ بروحٍ أن يقدّمني
إلى القتالِ فتخزى بي بنو أسدِ[1]

إن البرازِ إلى الأقرانِ أعلمهُ
ممّا يفرِّقُ بين الرُّوحِ والجسدِ

قد حالفتك المنايا إذ صمدتَ لها
وَأَصْبَحَتْ لجميعِ الخلقِ بالرَّصدِ

إنَّ المهلَّبَ حبَّ الموتِ أورثَكُمْ
وما ورثت اختيارَ الموتِ عن أحدِ

---

(1) بنو أسد: قبيلة المهلب.

لــو أنَّ لــي مــهــجــةً أخــرى لَــجُــدتُ بــهــا
لــكــنَّــهــا خُــلــقــتْ فــردًا فَــلَــمْ أَجُــدِ[1]

وهو شعر لطيف مؤثر، ولكنه لم يؤثر في «روح» ولم يستمع له، إذ كان هذا أمر المهدي، وهكذا أرغم على القتال فتقدم إليه كارهًا ساخطًا خائفًا، فجمع كل حملته ودهائه للخروج من هذا المأزق، فماذا صنع؟

كانت عادة الخوارج أن يبدأوا القتال بالمبارزة، فيبرز رجل ويطلب من يبارزه، حتى إذا حمي القتال كانت حرب الكر، فخرج خارجي يطلب المبارزة وأمر أبو دلامة أن يخرج له، وهنا كان الموت لا محالة من نصيب أبي دلامة، فأنّى له أن يقف أمام الخارجي؟ قال أبو دلامة: أيُّها يوم الأمير! إنه أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، وأنا والله جائع، فمر لي بشيء آكله ثم اخرج، فأمر له برغيفين ودجاجة، فأخذ ذلك وبرز إلى الصف ووقف أمام الخارجي، وكانت عيناه تتقدان، وأسرع إلى أبي دلامة يقضي عليه، فقال له أبو دلامة: على رسلك يا هذا. فوقف:

أبو دلامة: هل كان بيننا عداوة قط؟

الخارجي: لا!

أبو دلامة: هل تعلم بين أهلي وأهلك وترًا؟

الخارجي: لا!

أبو دلامة: ولا أنا والله لك إلا على جميل.

أبو دلامة: أتقتل رجلًا على دينك؟

الخارجي: لا!

أبو دلامة: إني والله أدين بدينك، وأريد الشر لمن أراده لك.

الخارجي: جزك الله خيرًا، (وأراد الإنصراف).

أبو دلامة: قف، إن معي زادًا وأريد أن آكله، وأريد مواكلتك لتتأكد المودة بيننا ونرى أهل العسكرين هوانهم علينا.

---

(1) ديوانه ص 54 ـ 56.

الخارجي: افعل!

فتقدم إليه أبو دلامة حتى اختلفت أعناق دابتيهما، ووضعا أرجلهما على معرفتيهما، وجعلا يأكلان، فلما رأى العسكران ذلك جعلوا يضحكون، وعاد أبو دلامة بعد الأكل وقال للقائد: أنا كفيتك قرني فقل لغير يكفيك قرنه.

* * *

هذه هي حكمة أبي دلامة، وهي حكمة العالم كله، وهي الحكمة التي غابت عن الناس جميعًا في بداوتهم وحضارتهم، فكانت الحرب المزمنة، ولو عقل الناس لفعلوا فعل أبي دلامة، لِمَ يقاتل الجيش الجيش؟ هل بينهما خصومة؟ لا. هل بينهما ترة؟ لا. لو سأل كل جندي قرنه سؤال أبي دلامة لأجاب إجابة الخارجي، ولو سأل كل جيش الجيش الذي يقاتله هذا السؤال لأجابه هذا الجواب، بل هذه الحكمة هي التي غابت عن رؤساء الحكومات وقادة الحروب، فلو تساءلوا سؤال أبي دلامة، ما كان الجواب الحق إلا إجابة الخارجي. والحق أن ليس بين الجيوش عداء إلا عداء مصطنع تبثه الوطنية المصطنعة، والناس يحاربون اتباعًا لرأي القادة الذين يقعون تحت سيطرة الغفلة. وقد كان الناس قديمًا إذا نازع فرد فردًا تقاتل الفردان، وأخذ أحدهما حقه أو ما يدعى أنه حقه بالقتال، فلما تحضروا حل العقل محل القتال وأنشئت المحاكم وأنشئ القضاء، ولكن عقل الأفراد ولم تعقل الحكومات، فلا تزال الحكومات تأخذ حقها أو ما تدعى أنه حقها بالقوة والحروب، فعل الإنسان المتوحش الأول.

لماذا يتقاتل الناس؟ إنهم يتقاتلون لأن حكوماتهم تريد القتال، ولماذا تتقاتل الحكومات؟ إنها تتقاتل لسبب من أسباب ثلاثة، أو لها جميعًا! إنها تتقاتل لأن مريدة القتال تريد العظمة والسيطرة واتساع الرقعة، أو تريد زيادة المال لأمتها، واستغلال الغير لفائدتها، وإفقار الأمة المغلوبة لغنى الغالبة، وشرب دم المغلوب لري الغالب، أو تريد الفخفخة الكاذبة وحسن الصيت، والتبجح بأنها أعظم دولة، أو أقوى دولة، أو أنها لا تغرب الشمس عنها، أو أنها ذات الكلمة المسموعة في سياسة العالم وتوجيهه.

هذه هي الأسباب التي كانت من أجلها الحرب ولا شيء غيرها، فلننظر إليها بعين الحق، وإن شئت فقل بعين أبي دلامة، هل شيء منها أو هي كلها تستحق هذه الدمار في العالم، وهذه الدماء تجري أنهارًا، وهذا الفزع يملأ النفوس، وهذه الأسر تفقد أبناءها

وتشقى بقتل عائلها، وهذا الخراب وهذا الدمار، وهذا النقص في الأنفس والأموال والثمرات؟. إن القادة إنما يفعلون ذلك لأنهم فقدوا عقولهم وغلبت عليهم شهواتهم، ولو عقلوا لرأوا أن لا شيء في العالم يساوي إزهاق روح واحدة، وأن المادة مهما عظمت لا يمكن أن تقوم بإنسانية مهما كانت جزئية.

أما بعد، فمن لقادة الأمم جميعًا بعقلية أبي دلامة!!

* * *

التجديد والمجددون

حركات التجديد في عصرنا الحاضر أسرع منها في كل عصر مضى لأن العالم أصبح وحدة، والفروق في الأزمنة والأمكنة قد قضي عليها، وما يحدث في أمة ينتقل عنها إلى أقصى العالم في سرعة البرق... وحسبك في ذلك تطور الشرق في القرن الأخير...

من الأحاديث الطريفة ما روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها». وقد أخذ العلماء يبحثون في رأس كل مئة سنة عن هذا المجدد الذي يصدق عليه الحديث، فقال بعضهم إنه عمر بن عبدالعزيز على رأس المئة الأولى، والشافعي على رأس المئة الثانية، وابن سريج أو الأشعري على رأس المئة الثالثة، وأبو حامد الإسفرائيني على رأس المئة الرابعة، والخامس الغزالي، والسادس الفخر الرازي، والسابع ابن دقيق العيد. . .إلخ. ويعجبني في هذا الحديث طرافته من حيث معناه وتقريره لفكرة تغير التشريع بتغير الزمان، ولكن لم يعجبني من الفقهاء تزمتهم الحرفي في تحديد مجيء المجتهد على رأس كل مئة بالحساب الدقيق، كما لم يعجبني فيهم تعصبهم المذهبي واعتقاد الشافعية أن المجدد يجب أن يكون شافعيًا أبدًا، وهكذا.

والواقع أن فكرة التجديد لا يمكن أن تقاس بالمتر، فقد يحدث من الأحداث ما يستوجب التجديد في زمن قصير، وقد يحدث منها ما يستوجب التجديد في زمن طويل، وليس التجديد مقصورًا على الدين، فكل مرفق من مرافق الحياة يتجدد: الدين، والعادات والتقاليد، والأدب، والغناء، والنظريات السياسية والعلم، وكل شيء في الحياة يتجدد، لأن هذه الأشياء كلها وليدة الزمان، والزمان في تجدد مستمر وحركة دائبة، فكم من الفرق بين الأدب الجاهلي والأدب الحديث! وكما قال الجاحظ: «كم من الفرق بين قول امرئ القيس [من الطويل]:

تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معًا   عقرتَ بعيري يا امرأَ القيسِ فانزلِ[1]

وقول علي بن الجهم [من الطويل]:

---

(1) ديوانه ص 11.

فبتنا جميعًا لو تراقُ زجاجةٌ من الماءِ فيما بيننا لم تسرّبِ[1]

وفي كل شيء تجد هذا التغيير: بين البيت قديمه وحديثه، والملابس قديمها وجديدها، وفن العمارة قديمه وجديده، والموسيقى قديمها وجديدها وهكذا. وكل تغيير في مرفق من هذه المرافق يسمى تجديدًا.

ولكن ما هو التجديد وما هي قوانينه؟ إن التجديد من ناحيته النفسية معناه مرونة العقل لإحلال الأوضاع الجديدة محل الأوضاع القديمة أو تعديل القديم ليتفق والجديد، ومن ذلك يتضح أن التجديد يتخذ أحد شكلين: إما القضاء على القديم بالوسائل الثورية وإما أخذ طرف من القديم وطرف من الجديد ومزجهما مزجًا متناسبًا بوسيلة سلمية هادئة. وقد أشار روسو في القرن الثامن عشر إلى أهم مظاهر التجديد، إذ وصفه بأنه «الأخذ بمبادئ الإنسانية والمبادئ العقلية والتسامح الفلسفي، وإحلال ذلك محل الأوضاع القديمة وتقديس السلطات والتعصب الضيق النظر».

وللتجديد قوانين تشبه القوانين الطبيعية في دقتها واطرادها وعدم تخلفها، وإن كان لا يزال بعض هذه القوانين غامضًا معقدًا.

تبدأ فكرة التجديد عند فرد أو أفراد قلائل، وتأتيهم هذه الفكرة من شدة شعورهم بسوء الحاضر. فيدعون إليها ويؤلفون الحجج العقلية والشعورية للبرهنة على صحتها، وقد يحدث أن تقبل هذه الفكرة وتنتشر وتتسع كما تتسع الموجات حتى تعم الشعب بأجمعه، ولكن كثيرًا ما يحدث أن تقاوم الفكرة، ويدعو إلى مقاومتها أنها قد تسلب بعض أصحاب المصالح وتفوت على المتمسكين بالقديم منافعهم، كما يحدث عادة عند اختراع آلات للنقل تحل محل أدوات النقل القديمة، وكما يحدث عند الدعوة إلى منهج في التعليم جديد يخالف منهجًا في التعليم قديمًا أو نحو ذلك. وقد يدعو إلى اضطهاد الدعوة الجديدة خوف أصحاب السلطان منها، لأنها تذهب بجاههم أو سلطانهم؛ إذ ذاك يقف أصحاب المصالح المهددة وأصحاب السلطات المقررة في سبيل هذه الدعوة فيضطر الداعون إلى مقابلة المقاومة بالمقاومة ومحاربة الفكرة بالفكرة، وقد يستدعي الأمر محاربة العنف بالعنف، فينقسم الناس إلى معسكرين: معسكر يناصر القديم، ومعسكر يناصر الجديد، والغلبة للقوة، ولسنا نعني القوة المادية فحسب، بل المادية والمعنوية معًا.

وقد يجد دعاة التجديد أنفسهم أمام تيارين متناقضين، فيضطرون إلى منازلتهما جميعًا؛

(1) ديوانه ص 95.

كالذي حدث في الشتراكية، إذ رأى أصحابها أنهم مضطرون إلى منازلة فكرة الشيوعية المتطرفة وفكرة الرأسمالية الجامدة.

ثم إن هناك ظروفًا تساعد على نجاح الفكرة الجديدة؛ منها أن يعم الشعب الملل والإحساس بسوء الحال والطموح إلى حال خير من حالهم ونظام خير من نظامهم وعدل يحل محل ظلمهم، فتسري الدعوة إلى التجديد وإلى التغيير سريان النار في الهشيم. ويقرب من هذا أن تكون الدعوة إلى الجديد قريبة من أذهان الشعب محركة لعواطفهم محققة لآمالهم. أما إن كانت الدعوة تسبق زمنها بوقت طويل، ولا تلتقي مع عواطف الناس وعقليتهم الحاضرة فقل أن يكتب لها النجاح.

ومن المشاهد أن هناك جماعات تكون أسرع قبولًا لفكرة الجديد، وجماعات أخرى أشد مقاومة للتجديد، فإذا كانت الجماعة من الجماعات التي تكوّنت حديثًا، ولم تقيد بقيود ثقيلة من الأوضاع، كما هو الشأن في أمريكا، كانت أقرب إلى اعتناق فكرة التجديد، وكذلك الشأن إذا سادت فيها حرية الرأي، وحرية الصحافة، وحرية الخطابة، والتسامح الفكري والديني، كما هو الشأن في انجلترا. أما إن كانت الأمة بدائية تقدس الآباء وما صدر عنهم كالذين قال فيهم الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: الآية 22] ، أو كانت الأمة متدينة دينًا جامدًا لا نسمح فيه باجتهاد ولا تعمل فيه عقلًا، ولا تقيسه بالمصلحة العامة، فهناك يكون الجمود وسد الآذان وإغماض العيون عن كل دعوة إلى التجديد.

ومن العجيب أن نرى بعض العادات الجديدة تنتشر في سرعة، وبعضها لا تنتشر مطلقًا أو في بطء شديد! فسفور المرأة المصرية كان عادة جديدة سرعان ما انتشرت حتى كادت تعم الشعب بأجمعه، ولكن لبس السيدات للبنطلون وللكورسيه ولعب الرجال للبياردو لمن ينتشر، فهل سبب هذا أن العادة الجديدة إذا انبعث من صميم الشعب، ومن الطبقة الوسطى والدنيا كانت أعم، وإذا نبعت من الطبقة الأرستقراطية لم تعم؟ وأن السبب في ذلك يرجع إلى أن المواءمة وعدم المواءمة وتكاليف البدعة الجديدة كثرة وقلة.

وللأزمات فضل كبير على التجديد؛ فالأزمات الحربية مثلًا قربت بين أمم ما كان يظن أن يقرب بعضها من بعض، وحملت على التفكير في مثل عصبة الأمم وميثاق الأطلنطي وهيئة الأمم المتحدة ونحو ذلك، وإن كانت ولدت تفكيرًا ولم تتحقق عملًا؛ والأزمات الاقتصادية كوقوع طائفة كبيرة من الناس في الفقر والمرض والجهل، كثيرًا ما تحمل الأمة على التفكير

في نظام الثروة وضرب الضرائب ووضع الخطط لمقاومة الفقر والجهل والمرض، وهكذا.

وحركات التجديد في عصرنا الحاضر أسرع منها في كل عصر مضى؛ لأن العالم أصبح وحدة، والفروق في الأزمنة والأمكنة قد قضي عليها؛ وما يحدث في أمة ينتقل عنها إلى أقصى العالم في سرعة البرق؛ ولذلك نرى حركات التجديد في الأفكار والنظم السياسية والنظم الاجتماعية والاقتصادية تغزو العالم بأسرع من غزو الحروب؛ وحسبك في ذلك تطور الشرق في القرن الأخير وقبوله أفكارًا كثيرة جديدة من المدنية الغربية في الماديات والمعنويات ما كان يقبلها في العصور الماضية.

وما مظاهر القلق والاضطراب في العالم اليوم إلا مظاهر حرب بين جديد وقديم، وإن شئت فقل بين قديم ظهر فساده وجديد لما يتضح ولما يحدد، ومن المشاهد أن مرافق الحياة في كل شعب متفاعلة ميالة بطبعها إلى إيجاد الانسجام بينها، فإذا دخل التجديد في مرفق منها فسرعان ما تنفعل لذلك سائر المرافق كحوض الماء يصب فيه ماء بارد وماء ساخن، فسرعان ما يكتسب البارد سخونة والساخن برودة حتى يكون منهما ماء في حرارة واحدة.

قد كان ذلك قديمًا في كل شعب، أما اليوم فالعالم كله على هذه الحال يتفاعل ويتفاعل ثم ينسجم وينسجم، والطبيعة دائمًا تميل إلى وحدة الوجود.

* * *

مذكرات الأستاذ: محمد كرد علي

نشر الأستاذ: محمد كرد علي جزأين من مذكراته ضمنهما ترجمة حياته، وهي حياة طويلة حافلة؛ فقد عاش الأستاذ في أوساط مختلفة، ورحل رحلات كثيرة في الشرق والغرب، وانغمس في السياسة واكتوى بنارها، واشتغل بالصحافة مدة طويلة. والصحافة من أكبر المدارس في معرفة الحياة وألوانها، وصادق كثيرًا من رجال الأدب والسياسة والعلم والمال والأعمال، وخبرهم وأطال عشرتهم، وعمر بحمد الله عمرًا طويلًا، فقد ذكره في مذكراته أنه في عشر الثمانين. وتقلب في مناصب كبيرة حتى كان وزيرًا أكثر من خمس سنوات، فالمذكرات مظنة الإفادة والإمتاع.

وقد صاحبت الأستاذ كرد على مدة طويلة - جالسته في مجمع فؤاد الأول في مصر واستمعت إلى آرائه وبحوثه، وجالسته في لجنة التأليف والترجمة يوم كان يغشاها، وفي مجمع دمشق أيام كنت أزورها، وكونت فيه رأيًا بعد طول الخبرة، هو أنه واسع الاطلاع على الكتب العربية، عليم بمصادر الموضوعات المختلفة وبخزائن الكتب وهي شيمة أخذها عن أستاذه الشيخ طاهر الجزائري، فقد كان رحمه الله بحاثة في الكتب عليمًا بخفاياها، حسن التقدير لغثها وسمينها. وقد أفاد الأستاذ كرد على العالم العربي بما ألفه في هذه الناحية ككتابة «خطط الشام» وبما نشر من كتب من مثل رسائل البلغاء، وأخبار أحمد بن طولون.

ولكنه إذا عدا هذا الطول فتعرض لبحث مبتكر أو لنقد لما قرأ، أو تعقيب على قول لم يعجبني كثيرًا، لا في آرائه ولا في أسلوبه، فآراؤه لا تصدر عن أفق واسع ولا نظر شامل ولا عمق كاف، وأسلوبه متعثر ليس فيه رونق أو صفاء، ونكاته ونوادره تستجلب الضحك عليها لا الضحك منها، وكنت لا أرتاح لكثير من تصرفاته، فهو إذا لقي أحدًا من معارفه عانقه وبالغ في مدحه في وجهه حتى يخجله، وأثنى على تآليفه وكتبه ولو لم يكن له تأليف ولا كتاب، والله أعلم بما يقوله من ورائه.

وجاءت مذكراته هذه مصداقًا لما أقول، من قلة في الذوق، وسخافة في الحكم، وتقويم ما ليست له قيمة، وتحقير ما له قيمة.

وهؤلاء المصريون الذين كان يلقاهم فيعانقهم ويشيد بذكرهم قد انقلب عليهم انقلابًا عجيبًا لسبب عجيب أيضًا!

أسوق لذلك مثلًا لطيفًا. فقد كتب في الجزء الثاني مقالًا عنوانه: «كتاب إلى حبيب» كتبه إلى معالي محمد حلمي عيسى باشا، يصب فيه نقمته على أدباء مصر، ويسبهم ويقدح فيهم أفظع القدح. لماذا؟ لأنهم لم يقرظوا كتبه ولم يشيدوا بذكره أو نحو ذلك من توافه الأسباب. اسمعه يقول: «وماذا أقول في مجلاتكم وصحفكم و«أحمد حسن الزيات» صاحب مجلة الرسالة بعد أن كان يكتب لي أنه كان لقي فرفعته. تنكر لي بأخرة وأعمته التجارة وجمع الأرباح، ونسي أصحابه ومن عاونوه على اكتساب الشهرة». «وصديقي أحمد أمين كأكثر المتشغلين بالعلم في مصر وغير مصر «أشغل من ذات النحيين»، ما سمعت منه كلمة طيبة لا باللسان ولا بالقلم منذ عرفته، وأنا -شهد الله- ما تركت بابًا من أبواب الدعاية له منذ ظهوره في التأليف. سأله في الجامعة أحد تلاميذه من الحلبيين عن رأيه في، فقال: تسألني رأيي في بلديك؟ إنه أعرف المعاصرين بالمصادر». «وهناك في مجمع فؤاد الأول من هم عجيبة الزملاء. هناك رئيسه أحمد لطفي السيد باشا الفيلسوف، وكثيرًا ما نوهت به، وأردت إخواني في المجمع العلمي العربي من أول تأسيسه أن يختاروه عضوًا مراسلًا فانتخبوه، وما تنازل أن يحييهم بكلمة شكر فيما أذكر، ولم يغلط خلال خمسين سنة أن يقابل جميلي بمثله؛ كأنه يعتقد أن ما أقول به نحوه هو واجبي، وأنه من عالم غير هذا العالم، وشتان بين ثقله وخفتي، وفرق بين جنسيتي وجنسيته، هو مصري وأنا شامي». ثم أبان سبب سخطه عليه، فذكر أن لطفي باشا دعاه وزملاءه إلى نادي محمد علي، فلحظ لطفي باشا أن بين الأعضاء الأجانب رجلًا له لقب وزير فدعاه إلى الجلوس في مقام التكرمة وترك كرد علي.

ونقم علي المازني وهيكل لمثل هذا السبب فقال: «إن رصيفي المازني وهيكل ما أضاعا قط كلمة في التعرض لعملي وعمل إخواني في الشام. انتخبهما مجمعنا عضوين مراسلين، فلم يتنزلا أن يكتبا له سطرًا، كيف يرتكبان هذا الإثم والمازني دأب حياته يكتب المقالات للصحف والمجلات، ودأب يستوفي المكافآت عليها، وهيكل أصبح يقلمه وحزبه ممن يدير دفة السياسة المصرية، وأي نفع يأتي من كرد علي وصحبه؟».

وأغرب من ذلك كله قسوته على الأستاذ محمود شلتوت. أتدري ما السبب؟ إنه سبب يستوجب الاستغراق في الضحك من غير شك. قال -حفظه الله- «كان الشيخ محمود شلتوت

لي صديقًا قديمًا، عرفته في دار آل عبد الرازق الأكارم، ولما اضطهده الشيخ الظواهري في الأزهر كنت من أول الحانقين عليه، ولما نفس خناقه وأعيد إلى منصبه فرحت له فرحًا كثيرًا، أتدري ماذا كان مقامي عند عضو جماعة كبار العلماء؟ كان منه أن أهداني كتابًا له وكتب على ظهره: «آية الإخلاص لصاحب العزة فلان». هذاما جناه الأستاذ شلتوت وما استحق من أجله من الأستاذ كرد علي اللوم والتعنيف والتأنيب، حتى ختم ذلك بقوله: «إن المباينات بين أرباب العمائم وأرباب الطرابيش قديمة لا تحتاج إلى بيان»، وهكذا وهكذا من أمثال هذه الأحكام العجيبة للأسباب الغريبة.

ألا يدري الأستاذ أن الحكم على الأشخاص إذا كان ميزانه مدحًا لكتاب أو عدم مدحه أو الإفراط في الألقاب أو التقصير فيها، أو نحو ذلك من توافه الأمور، كان حكمًا سخيفًا لا يقام له وزن، وكان أشبه ما يكون بحكم الأطفال إذ يحبون شخصًا لأنه يضحك في وجوههم أو يقدم لهم قطعة من الحلوى. ويكرهون آخر لأنه عبس في وجوههم أو لم يقدم لهم حلوى. أما الرجال العظماء أمثال الأستاذ فميزان الأحكام عندهم يجب ألا يكون الأحداث الشخصية الصغيرة، وإنما قيمتهم الحقيقية وصفاتهم الذاتية. ولو حكم على جمال الدين الأفغاني ونابليون وبسمارك، بل لو حكم على الأنبياء والمرسلين بميزان الأستاذ هذا لكانت النتيجة غريبة عجيبة. فليس منهم إلا من عبس ولم يقرظ، وانتقد أحيانًا في مرارة وعاقب أحيانًا في شدة، ومع كل هذا لم تدخل هذه الأعمال كلها في الميزان الصحيح للحكم عليهم، لأنها توافه لا يأبه بها إلا التافهون. ومن أجل هذا النظر التافه لم ينل أحد من إعجاب الأستاذ محمد كرد علي في مصر ما نالته جميعة «البعكوكة» فقد كتب في محاسنها صفحات ثناء وإعجاب لم ينلها أحد من الكبراء ولا العظماء ولا المؤسسات العلمية والأدبية.

ثم في الكتاب مصداق لقلة الذوق، فهو يصف المشتغلين بالعلم في مصر وغير مصر بأنهم أشغل من ذات النحيين، وأحيل الأستاذ الكبير على أي كتاب في الأمثال أو على لسان العرب في مادة «نحي» ليعلم مضرب المثل، وليعلم أيضًا أنه لا يصح أن يستعمله في مثل هذا الموضع إلا من تجرد من كل ذوق.

ويشاء أدبه أيضًا بعد أن مدح لجنة التأليف وذكر فضلها عليه في أنها طبعت له ثلاثة كتب وأعادت طبعها وعاملته معاملة حسنة - شاء أدبه بعد كل هذا أن يصفها في ثنايا المدح بأنها «عصابة» ولكن لا بأس، فالذوق شيء ليس في الكتب.

ويحاول الأستاذ في مذكراته أن يظهر بمظهر الوطني الكبير والمصلح العظيم والأخلاقي المثالي؛ ولكن لا يلبث أن يخونه قلمه فيكشف عن نفسه، ويذكر مثلًا أنه عمل وزيرًا مع حقي بك العظم والشيخ تاج الدين الحسني خمس سنين وسبعة أشهر في ظل الانتداب الفرنسي، ثم هو يطلق قلمه فيهما بالنقد واللذع والتجريح، ويصفهما، بضعف الشخصية والمحسوبية والخضوع للسلطة الفرنسية خضوعًا تامًا مطلقًا وتنفيذ أوامرها مهما كانت ضارة بالبلاد، إلى آخر ما قاله فيهما. والرجل الأخلاقي المثالي لا يبيح لنفسه أن يشغل الوزارة أكثر من خمس سنين مع مثل هذين الرجلين لو صدق قوله فيهما. إن الرجل الأبي الشجاع يرفض أن يعمل مع من يعتقد أنه يضر البلاد مهما ادعى أنه يريد الإصلاح. وأنكى من ذلك أنه يذكر أنه كان يشتغل معهما رغم أنفهما ولم يكن يحميه في الوزارة ويضغط عليهما في إبقائه إلا السلطة الفرنسية. أيرى الأستاذ أن حب الفرنسيين لبقائه كان صادرًا عن غفلة منهم، فيظنوا فيه أن يشايعهم وهو في الحقيقة يناهضهم؟ أو أنهم يعلمون حق العلم حقائق الرجال ومن ينفعهم ومن يضرهم، وأنهم لولا ما يجدون فيه من خدمة كبيرة لهم ما أبقوه لحظة وانتهزوا فرصة غضب رؤسائه عليه فأخرجوه من الوزارة مغتبطين مسرورين!

الحق أنه قد تم في عهد وزارته أكبر مصائب سورية وهو تقسيمها إلى دويلات أربع وتمزيقها إلى وحدات متعددة، لكل دويلة علم ولكل دويلة إدارة، وما تحرك الأستاذ ولا حدثته نفسه بالاستقالة رغم كل هذا، وإنما بقي مطمئنًا راضيًا عما يجري حتى نحّى الفرنسيون الوزارة كلها.

وقد كان الأستاذ -كما ذكر في مذكراته- يدعي عند رئيس الوزراء الشيخ تاج الدين الحسني ليؤنس الذين يدعوهم الرئيس من سيدات الفرنسيين وسادتهم، كما كان يدعى لاستقبال المندوب السامي في بيروت عند حضوره من فرنسا، فيلبي الأستاذ هذه الدعوات راضيًا مغتبطًا فخورًا. وهكذا وهكذا مماتتكشف عنه المذكرات.

وآخر ما كنت آمله فيه أن يتحرّى الصدق فيما يقول، ولكن خاب أملي في هذا أيضًا، فقد رأيته يذكر عني حادثتين أشهد بالله أنهما كاذبتان، كما يذكر كثيرًا من الأحداث عن أشخاص متعددين في مصر والشام يكذبونها وينكرونها. وأسوأ ما في هذا أن يشكك القرّاء في كل ما صدر عنه حتى في كتابيه تاريخ خطط الشام، والحضارة الإسلامية. فمن يدري! لعله استباح لنفسه من خلق الأحداث ما استباحه في الرواية عن الأحياء، وبهذا لم يكن أساء

إلى نفسه فقط، ولكنه أساء إلى المؤرخين جميعًا. ولعل كثيرًا ممن ورد ذكرهم في الكتاب واتهموا بالجهل أحيانًا، والجاسوسية أحيانًا، والرشوة وقلة الذمة أحيانًا، لم يكن فيهم شيء من هذا، وإنما نشأت من سوء ظن الأستاذ أو اخترع خياله أو فساد حكمه على الأشياء.

وعلى الجملة فهذه المذكرات لم تصدر إلا بخذلان من الله كبير، فالله يعفو عنه ويغفر له.

* * *

روح السماحة

قرأت اليوم وصفًا لناد في واشنطن إذا ترجمنا إسمه إلى العربية سميناه «نادي السفود»[1] عدد أعضائه خمسون يختارون على أساس مراكزهم الإجتماعية ومقدرتهم الصحافية ومهارتهم التهكمية.

ولهذا النادي تقاليد، فالأعضاء يلبسون في الاجتماع «الفراك» وربطة الرقبة البيضاء، ولهم شارة هي عبارة عن صورة «سفود» تعلق على السترة، فيعلم أن صاحبها عظيم من العظماء إذ كان عضوًا في هذا النادي.

وعمر النادي الآن خمس وستون سنة، يقيم أعضاؤه حفلتين كل عام، إحداهما في إبريل، والأخرى في ديسمبر، وفي كل حفلة يدعى رئيس الجمهورية، ورئيس الحزب المعارض، وكبار موظفي الدولة -وقد لبّى الدعوة رؤساء الجمهورية جميعًا، ما عدا الرئيس «كليفلاند». وفي كل اجتماع يعد برنامج حافل يشتمل على أغان وموسيقى وتمثيل، ونكات رائعة، وكلها ترمي إلى نقد الرئيس ورئيس المعارضة وكبار الموظفين نقدًا تهكميًا لاذعًا، واستعراض المشاكل التي تشغل بالهم، وتشغل الرأي العام، وكيف تصرف فيها هؤلاء الكبار، ثم وضع ذلك كله في قالب فكه ساخر، وبعد أن ينتهي هذا البرنامج الذي يشوي فيه هؤلاء الكبار على السفود، يقف رئيس الجمهورية ورئيس الحزب المعارض، فيخطب كل منهما عشر دقائق شاكرًا النادي تهكمه، مقابلًا السخرية بالسخرية، والتهكم بالتهكم، واللذع باللذع، وبذلك ينتهي الاحتفال بعد أن يكونوا قد عرضوا للمشاكل والرؤساء من الجانب التهكمي، فأبانوا مثلًا كيف كبر هؤلاء الكبار صغار الأمور، وعدوهامشاكل عظمى وهي في ذاتها تافهة، وكيف تصرفوا فيها تصرفات مدوية، وكان يمكن أن يتصرف فيها على أبسط وجه وأخصر طريق، وكل ذلك في ثنايا الضحك اللطيف، والتهزئ الطريف.

ويقول أحد رؤساء الجمهورية في مذكراته: «يزودنا نادي السفود بقدر كبير من المرح،

---

(1) السفود: هو الحديدة التي يشوى عليها اللحم.

وقد روضت نفسي على الابتسامة العريضة من النكات اللاذعة التي تقال عني. . . ويغريني على ذلك علمي أن كل رئيس غيري -مهما بلغت منزلته- سيلقى ما لقيت في سبيل المرح في هذا المساء».

وقد حدثني من تخرج من جامعة أمريكية أنه فوجئ آخر العام الدراسي بورقة وزعت عليه وعلى سائر الفصل، تسأله فيها الجامعة عن رأيه في الأستاذ فلان من حيث كفايته العلمية ومن حيث طريقة تدريسه، ومن حيث معاملته الطلبة إلخ. والطلبة يجيبون في صراحة من غير ذكر أسمائهم، والجامعة والأساتذة يتقبلون هذا في سماحة.

هذا ما أسمّيه روح السماحة»، وهي روح لا يمكن أن تسود في أمة إلا أذا ربي الأفراد فيها على الديمقراطية الحقة، فلكل شخصيته. ولكل رأيه، ولكل أن ينقد ما يشاء، ومن يشاء، وعلى المنقود أن يكون واسع الصدر في سماع النقد، ولكن على الناقد -أيضًا- أن يكون لديه من حسن التقدير ودقة الذوق، ما يصوف به نقده في أسلوب مؤدب، ولذلك عرف أعضاء نادي «السفود» بأنهم يستطيعون أن يمزجوا الفكاهة والسخرية بالرزانة والذوق السليم.

وليست تستطيع أمة أن تعتنق «روح السماحة» إلا إذا عودت سعة الأفق وعدم التزمت، واحترام الفرد رأي غيره، كما يحترم رأي الآخرين، وإيمانه بأن رأيه وإن ظهر له صوابه- قد يكون خطأ، ورأي غيره -وإن ظهر خطؤه- قد يكون صوابًا، وأن من الصعب رأية الحق من جميع زواياه، فليس يرى الفرد الحق إلا من زاوية واحدة، وقد يراه الآخر من زاوية أخرى، ومن أجل ذلك فهو واسع الصدر للنقد، مقدر للناقد محترم له، لأنه يزيده في رأيه ثروة.

أما المتعصب فضيق النظر، شديد الحقد على مخالفه، ساد سمعه ومغمض بصره عن أي حجة لخصمه، لا يرى إلا أن تسير الدنيا على رأيه، وإلا استحقت الخراب، ولذلك كان فاقدًا لروح الفكاهة، لا تصدر عنه، ولا يستسيغها من غيره، لأن روح الفكاهة وروح السماحة منزلة أسمي من منزلته.

* * *

في الأدب العربي كثير من الشعر والأخبار التي تمثل روح السماحة، كالذي يروي عن الأحنف بن قيس، ومعن بن زائدة وغيرهما، ينقدون فيحلمون، ويتهكم عليهم فيسمحون، ويقابلون السخرية بالابتسامة، ولكن لسنا الآن بصدد أفراد، وإنما نحن بصدد روح عامة في الأمة.

والحق أن الأمم العربية اليوم في أشد الحاجة إلى روح السماحة، فهي تقربهم إلى التفاهم، وتبعدهم عن التقاطع، نحن أحوج إليه من علاقة الحاكم بالمحكوم، فالمحكوم ينفس عن نفسه بنقد ما لا يستصوبه من أعمال الحاكم، ولكنه نقد مؤدب، وقد يكون فكهًا فرحًا، وقد يكون فيه سخرية لطيفة، أو نكتة رائعة، والحاكم من جانبه واسع الصدر لسماع النقد، سمح في قبوله، يجيب عن نقده في رزانة، وقد يقابل التهكم بالتهكم، والسخرية بالسخرية، وروح الجميع سليمة من الحقد، لا تنطوي على الشر، وقد فرج ذلك كله على الحاكم والمحكوم، فبينهما -برغم النقد والسخرية- صفاء متبادل.

ونحن في حاجة كذلك إلى روح السماحة في العلاقة بين الدول العربية والشعوب العربية بعضها وبعض، ولو سادت هذه الروح ما رأيت ما يحدث بينهما كل حين من سباب وغضب، وتهديد بقطع العلاقات، وسد الطرق، وانسحاب من الجامعة العربية، وما إلى ذلك، -فمثل هذه الأمور كلها مظهر من مظاهر فقدان «روح السماحة»، ودليل على ضيق العطن، والانطواء على الحقد والضغينة، أو العزة الكاذبة.

لكم نرى في التاريخ الماضي وفي الحاضر من أزمات حادة، عولجت بكلمة سمحة فرجت الأزمة، أو نكتة بارعة أعادت إلى النفوس صفاءها، أو احتمال الرئيس للنقد اللاذع تحقيقًا للمصلحة العامة.

إن روح السماحة هي أشبه ما تكون بالروح الرياضية، يلعب اللاعبون في ميدان اللعب، فيتبارون ويتسابقون، ولكن لا يحملون حقدًا، ولا ينطوون على ضغينة، فإذا انتهى اللعب وضع المغلوب يده في يد الغالب مهنئًا له، وخرجوا جميعًا من الميدان بنفوس صافية وقلوب راضية.

وهل الحياة كلها إلا ميدان لألعوبة لا تستأهل احتمال الهم والانطواء على الضغن.

يحكون أن المهدي أراد أن يغزو أهل الشام لخطأ ارتكبوه، فقال له «ابن خريم»: يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

* * *

لماذا - ولأن

لماذا ترى الرجل عاقلًا حكيمًا، صادق الرأي في الحكم على الأشياء، صحيح التقويم لها، عادلًا في تقديرها - وذلك كله إذاكان الشيء الذي يحكم عليه أو يقدره غير متصل بذاته، ولا يمس مصلحة من مصالحه، ولا يناله منه خير أو شر؛ فإذا اتصل هذا الشيء بنفسه، أو كان يتوقع منه ضرًا أو نفعًا، فسد حكمه، وساء تقديره، وفقد حكمته، وأصبح مثله مثل السفيه في الرأي، الكاذب في النظر، السيئ التقدير؟

لأن الإنسان في الأعم الأغلب لا يستطيع أن يجرد الأشياء عند الحكم عليها من عواطفه؛ وقد لاحظ الفلاسفة هذا الخطأ في الأحكام، فحاولوا تجريد الأشياء المحكوم عليها مما يتصل بها من العواطف؛ وأدرك هذا علماء المنطق، فرأوا أن الألفاظ في القضية قد يتصل بها شيء من العواطف يفسد حكمهم، فحاولوا أن يعبروا عن هذه القضايا بـ: ا، ب حـ، ء، حتى يكون حكمهم مجردًا فيكون أقرب إلى الصدق.

والدنيا مملوءة بالأحكام الفاسدة،والتقويم الفاسد، وكان سبب الفساد وسوء التقويم دخول المنفعة الشخصية في التقويم والحكم، حتى في القضية الواحدة، والمثل الواحد، ينظر إليه الإنسان في غيره فيصدر حكمه صحيحًا، فإذا اتصل هذا الأمر بشخصه نفسه أصدر حكمًا آخر، وتقويمًا آخر.

وهذا ما حدا بطائفة من الفلاسفة أن يقولوا إن الإنسان لم يمنح العقل لمعرفة الحقائق، ولكن لخدمة المصالح.

ومما يؤسف له أن مداخل العواطف في تقويم الإشياء والحكم عليها مداخل في منتهى الخفاء؛ وليس الكذب مقصورًا على الكذب على الآخرين، بل أشد منه خطرًا كذب الإنسان على نفسه؛ فهو يخدعها، ويظن أنه ينصحها؛ ويجور في حكمه، ويظن أنه يعدل. ولم يستطع أن يتحرر من هذا إلا القليل النادر.

وما سبب النزاع في العالم إلا الوقوع في هذا الخطأ، وما ملأ المحاكم بالقضايا إلا هذا الخطأ؛ فليست المحاكم والمجالس القضائية وغير القضائية مقصورة على الشريرين والباغين

الذين يدعون الحق ويعلمون أنهم مبطلون، ولكن أكثر من هؤلاء المتخاصمون الذين يختلفون على الأمر الواحد ويعتقد كل منهم أنه على حق؛ ذلك أن كلا منهم ينظر إلى المسألة من زاويته هو، لا من زاوية خصمه، والزاوية التي ينظر منها كل متخاصم عمل في تكوينها عقله ومنطقه وبواعثه وعواطفه، والخير الذي يرتجيه والشر الذي يهرب منه.

وهذه المصيبة الكبرى تطالعك كل يوم في الخلاف المالي بين الأشخاص والخلاف بين أعضاء المجالس، حتى في الهيئات التي تتكون من أرقى الناس عقولًا وأكثرهم ثقافة وأوسعهم إدراكًا، فإنك إذا فتشت عن أكبر سبب للخلاف بينهم وجدته في لعب العواطف والمصالح الشخصية الخفية في أعماق النفوس.

وهذا هو ما يطالعك كل يوم في الجرائد في أكثر ما تكتب يوميًّا؛ فالمسألة الواحدة تعرضها جريدة بشكل، وتحكم عليها بشكل، وتخالفها في كل ذلك الجريدة الأخرى؛ وكلا الكاتبين عاقل ممتاز، كان من الممكن أن يتفق مع صاحبه في نظره وحكمه، لو تجرد من عواطفه وهواه؛ ولكن تدخلت في حكمه على الشيء مصلحته الشخصية، أو مصلحته الحزبية، فلونت عرضه للمسألة، وحكمه عليها، حتى رآها أحدهما سوداء، والآخر بيضاء، وحتى عجب القارئ على الحياد من بعد ما بين الفريقين من الخلاف، وكيف لعبت المصالح بالعقول، حتى صارت موضع الهزء والسخرية.

بل هذا ما يطالعك أيضًا في شؤون السياسة العامة؛ فخروج الروس من إيران صواب في نظر الإنجليز خطأ في نظر الروس، وخروج الإنجليز من مصر صواب في نظر الروس خطأ في نظر الإنجليز. والتعدي على أية أمة ولو صغيرة بتقسيمها خطأ في نظر جميع الأمم، ولكن تقسيم فلسطين صواب عند أغلب الأمم، ووجود منفذ على البحر الأبيض لروسيا خير لا بد منه في نظر الروسيين، شر لا بد من مقاومته في نظر الإنجليز والأمريكيين، وهكذا.

ذلك لأن العقل ليس هو الذي يحكم وحده، ولكن تدخلت العاطفة الوطنية والمصالح القومية، فلوّنت المسألة الواحدة عند كل فريق بلون يخالف تمام المخالفة اللون الذي صبغه الفريق الآخر.

وهذا هو سر الخلاف بين الشرق والغرب، بل سر الخلاف بين الدول كلها الآن، وانقسام العالم إلى معسكرين، كما كان من قبل؛ بل هو سر الخلاف بين الممثلين لهذه الأمم، مع أن المفروض فيهم أنهم من أرقى الناس عقلًا وأصدقهم حكمًا، وأعدلهم تقويمًا للأشياء؛ وإنما المسألة أن العقل وحده ليس الذي يحكم، وليس الذي يقدر، ولكن العامل

الأكبر في الحكم والتقدير هو ما تراه كل أمة ومن يمثلها، مراعيًا ما يعود من الرأي على أمته من مصالح أو مضار؛ ولو أنك جمعت هؤلاء الممثلين، وجردتهم من عواطفهم لاتفقوا على رأي واحد في تقدير الأشياء وخيرها وشرها، وما يجب أن يعمل، وما يجب أن يترك في أقرب زمن.

وإن شئت فقل إن الحروب في العالم وويلاتها سببها هذا الخطأ في الحكم من حفنة من قادة الرأي والسياسة، قدر كل زعيم أمة مصلحة أمته، وما ينالها في الحرب إن دخلت الحرب، أو السلم إن جنحت إلى السلم، ثم أصدر حكمه غير مصغ إلى عقله المجرد، وغير مقدر للحقائق كما ينبغي أن تقدر، وقد يؤثر في رأيه هوى شخصي، أو ناحية من نواحي ضعفه الخلقي، أو رغبته في المجد الوطني الكاذب، أو خضوعه تحت تأثير قوم من الرأسماليين الشريرين، أو نحو ذلك من شهوات أو مطامع ومطامح، يتأثر بها عدد قليل من القادة، فيوقعون العالم الإنساني كله في كوارث لا تقدر خطورتها.

ولو أتيح للعالم يومًا من الأيام أن يكون قادته من المناطقة أو الفلاسفة الذين يستطيعون أن يتجردوا في حكمهم على الأشياء من هوى أو مطمع أو مطمح، وأن يقدروا المسائل حسب قيمتها الذاتية لا حسب مايغلفها من أعراض وأغراض، فإن كان ولا بد من اشتراك العواطف والمشاعر في الحكم، فالعواطف للإنسانية لا للوطنية، والمشاعر للعالمية لا للقومية -لعمّ العالم السلم، وعاش في رفاهية، وكان الناس بنعمة الله إخوانًا.

ولكن أنّى لنا ذلك والقول ما قال بديع الزمان: «والله ما فسد الناس، ولكن اطرد القياس».

* * *

محنة العالم الإسلامي

يجتاز العالم الإسلامي اليوم محنة من أشق المحن وأقساها، تختلف في مظاهرها وتتحد في أهم أسبابها -العراق ومصر يرفضان المعاهدة التي تعرضها عليهما انجلترا، فيضطربان من حين لآخر، وتقوم المظاهرات وتكثر الضحايا. وفلسطين تثور لما لحقها من ظلم، وما فرضته عليها الأمم المتمدنة من سلبها أخصب جزء فيها، ويثور معها العالم الإسلامي بأجمعه. والمغرب يجوع من فرنسا، ويئن تحت حكمها، فإذا تحرك للخلاص منها، عومل أقسى معاملة وأفظعها. وليس القسم المغربي الذي تحتله أسبانيا بخير مما تحتله فرنسا. وطرابلس تعاني مما تخيط لها انجلترا وأمريكا وإيطاليا من شباك. وأندونيسيا تشكو من هولاندة ما يشكو المغرب من فرنسا، من عسف وجور وفتك وانتقام. والباكستان تعاني الأمرَّين مما يحيق بها من جيرانها الهنود، ومن السياسة الإنجليزية العامة. وهكذا وهكذا، في كل قطر إسلامي مأتم، فمظاهر العالم الإسلامي كله قلق واضطراب.

وأهم سبب لهذا القلق والاضطراب أن العالم الإسلامي دب فيه الوعي القومي وتوالت عليه ألاعيب السياسة الأجنبية، ولم يكن يفهمها، ففهمها، وتوالت عليه الوعود أيام الحرب، وخلفها أيام السلم، فأدرك كذبها، ورأى بعد التجارب الطويلة أن الحجج العقلية لا تقنع السادة المستعمرين، وأنهم لا يفهمون من الأساليب إلا أساليب القوة ولا من الحجج إلا حجج القتال؛ ولم يعد يصدق لغة السياسة المزوقة ولا أساليبها المنمقة، ولم يعد يخدعه ما كان يخدع به من قبل تغيير لفظ الاستعمار بالانتداب، ولا لفظ الانتداب بالمشاركة والمساواة، أو نحو ذلك من أساليب تختلف ألفاظها ويتحد مدلولها.

ليست هذه أول محنة لقيها العالم الإسلامي من العالم الأوروبي، فقد امتحن من قبل بغزو أوروبا له، وهجومها عليه، وتسليطها الحديد والنار على أقطاره، حتى سقطت في يدها، فقد كانت هذه محنة عظمى، ولكنها أصابته وهو نائم، فلم يشعر بها الشعور التام، ولم يقاومها المقاومة الواجبة، بل خضع لطغيانها، وامتثل لأوامرها، حتى إذا توالى عليه الطغيان، وتتابعت عليه الكوارث، أخذ يستفيق ويقاوم، ويشعر أن استعماره مذلة، واستغلاله

عبودية، وأنه يجب أن يفك هذه القيود التي كبلته، ويتحرر من العبودية التي نكبته. وعلى الجملة فقد أدرك أنه إنسان يجب أن تحترم إنسانيته، وأنه حرّ يجب أن تقدر حريته، فقلق واضطرب.

هذا من ناحيته، أما من ناحية أوروبا، فقد استعذبت سيادتها، واعتزت بسلطتها، وبنت حياتها الاقتصادية والسياسية على الانتفاع بموارده، والاستفادة من تصريف تجارتها فيه، وتلذذت من امتصاص دمائه. ومضت فترة طويلة وهي تحقق أغراضها منه في سهولة ويسر، حتى ظنت أن هذا هو المنهج الأبدي، والطريق المعبد السوي. ولكن ما لبثت أن رأت العقبات تعترض حكمها على أشكال شتّى، وجاءت الحروب فأشعرتها بالحاجة إليه ضد خصومها، فبذلت له الوعود تلو الوعود، تمنيه بمستقبله وحريته واستقلاله؛ غير أن الحرب ما تهدأ ويحل السلم، حتى يعز عليها أن تفرط في شيء مما تستمتع به، وأن تتنازل عن شيء من سيادتها.

هذا كان شأنها عقب الحرب العالمية الأولى، وعقب الحرب العالمية الثانية، وهذا هو الموقف الآن؛ قلق واضطراب من العالم الإسلامي، لأنه يريد أن يعتز بإنسانيته، ويريد أن ينتفع بما أودعه الله في أرضه، ويريد أن يشارك في بناء الإنسانية، ويريد أن يقف على قدم المساواة مع أوروبا، إذ يرى أنه لا يقل عنها عقلًا وذكاء واستعدادًا، وقد شاركها من قبل في بناء الحضارة القديمة والحضارة الوسطى كما شاركت أوروبا، بل أحسن مما شاركت، وتريد أوروبا أن لا تتزحزح خطوة عما ألفت، ولا تتخلى عن شيء من سيادتها وسيطرتها وظلمها واستعبادها -وتدرك أوروبا الخطوب المقبلة والحروب القادمة، فتود أن تخدع العالم الإسلامي خدعة جديدة بالأساليب والألفاظ والمعاهدات الناعمة، من غير أن تتنازل عن شيء خقيقي من سلطانها، ويدرك العالم الإسلامي هذه الخدعة فلا يأبه بها، ولا يقع في شركها، تريد إنجلترا أن تصادق العراق ومصر، وأن تعقد معهما معاهدة، ولكن لا على أساس المساواة الحقيقية، بل على أساس المساواة الشكلية الوهمية، ولا تريد أن تترك شيئًا من سيادتها الفعلية، وإنما كل ما تريد أن تتركه شيء قليل من سيادتها الشكلية، وتريد فرنسا أن تصادق المغرب، ولكن على أساس أن يذوب المغرب في فرنسا، وأن يكون مزرعتها وحقلها ومستغلها دون أن ترد عليه شيئًا من حقوقه؛ وتريد هولندة أن تصالح الأندونيسيين على أساس أن تمنحهم شيئًا من المظاهر مع الاحتفاظ بالجواهر؛ وهكذا شعور من العالم الإسلامي بالاعتداء والسيطرة غير المشروعة ولا المعقولة، وشعور من أوروبا بحب الغلبة والاستغلال

والسيطرة كما ألفت منذ عشرات السنين؛ لهذا كان القلق والإضطراب والاحتكاك الدائم والثورات والمظاهرات من جانب العالم الإسلامي.

ولا حل لذلك إلا أحد أمرين: إما أن يموت الوعي القومي الذي تنبه عند العالم الإسلامي، ولكن لا أمل في هذا؛ لأنه يزداد يومًا بعد يوم على ضوء الحوادث، ولأنه من المستحيل أن يرضى العاقل يومًا ما أن يكون عبدًا أو يرضى الشاب أن يكون في سلوكه طفلًا؛ وإما أن يضطر الغرب إلى التنازل عن سلطانه، والتخلي عن سيادته، ويدرك أن مصادقة الإنسان للإنسان خير من استعباده، ومعاملته معاملة المثل خير من استغلاله؛ وإذا كان الحل الأول مستحيلًا، فالحل الثاني لا بد أن يكون، ولأن يكون قريبًا خير من أن يكون بعيدًا، ولأن يكون بالرضا والاختيار خير من أن يكون بالقهر والاضطرار، ولكن هل يدرك العالم الغربي هذا، ولما يزل يكفر بكل شيء إلا القوة، ويغضي عن كل شيء إلا مصلحته الذاتية العاجلة التي يمليها النظر القاصر القريب، لا النظر الحكيم البعيد!

وشيء آخر هو أن العالم الإسلامي وقد أدرك أن الغرب لا يؤمن إلا بالقوة، إذ دلته التجربة تلو التجربة على أن كل أمة من أمم العالم الإسلامي تكتفي بالحجج العقلية لا يسمع لقولها، ولا يلتفت لمطلبها، حتى إذا لجأت إلى القوة دعيت للتفاهم، كما كان الشأن في أندونسيا والباكستان وفلسطين والعراق ومصر. يجب عليه أن يزداد من الحجج التي توصله إلى غرضه، دون الحجج التي تذهب مع الريح، وتطير في الهواء. وللقوة مظاهر متعددة وأساليب مختلفة، فنشر العدل في البلاد قوة كقوة السلاح، والاتحاد بين الزعماء وطبقات الشعوب قوة كقوة الدبابات، والإلحاح في طلب الحقوق كاملة غير منقوصة دون المساومة قوة كقوة الطائرات والغواصات. وهكذا كل ضرب من ضروب نشر الحكم الصالح في البلاد، واتحاد الزعماء، ومراعاة المصلحة العامة لا الخاصة، قوة معنوية لا تقل شأنًا عن جميع ضروب القوة المادية.

وشيء ثالث، وهو أن كل قطر من أقطار الشرق قليل بمفرده، كثير بإخوانه. وأن التعاون بين جميع الأقطار الشرقية يعود بالنفع العظيم على كل قطر، والعالم الإسلامي سائر في هذا الطريق. لقد أدرك بصحة نظره، وصدق شعوره، أن الأمم المستعمرة تتعاون، فيوم تبدو حركة وطنية في المغرب تتحد فرنسا وأسبانيا وترسمان الخطط المشتركة للقضاء عليها، ويوم تريد هولاندة أن تعيد سلطانها على أندونيسيا تجد من الدول المستعمرة ما يؤيدها، ويوم تريد أيطاليا أن تبسط سلطانها ثانية على طرابلس ترى من الدول المستعمرة تأييدًا لها، وهكذا؛

علمًا منهم بأن الاستعمار نظرية واحدة وفكرة واحدة وملة واحدة، إذا انهارت في جانب سرت عدوى الانهيار في الجوانب الأخرى: فإذا كان الاستعمار الظالم الباطل المخالف للطبيعة الإنسانية والقوانين البشرية يتعاون، فكيف لا يتعاون أصحاب فكرة الاستقلال، وهو العدل، وهو الحق، وهو الأليق بالإنسانية.

قد بدا هذا التعاون على شكل ما في فكرة الجامعة العربية، ولكن لا يزال في مبدأ أمره، وفي مستهل حياته. والتعاون الذي نرجوه تعاون أوسع من ذلك وأشمل وأعمق، تعاون يجعل الأقطار العربية والإسلامية كلها تخاصم فرنسا إذا ظلمت فرنسا الغرب، وتخاصم أمريكا إذا ظلمت أمريكا فلسطين، وتخاصم هولندة إذا ظلمت هولندة أندونسيا. تعاون يشمل الاقتصاد؛ فلا بترول يقدم لأمريكا من أي قطر عربي حتى تعدل عن ظلمها لفلسطين، ولا معاهدة تجارية مع فرنسا حتى تعدل عن ظلمها للمغرب إلخ. وتعاون سياسي؛ فلا معاهدة مع دولة عربية إلا إذا علمت بها جميع الأمم العربية وأقرّتها جامعة الدولة في ضوء المصالح المشتركة إلخ. وهذا مطلب قد يبدو عسيرًا. وقد يصيب الأمة من الأضرار ما يصعب احتماله، ولكن ما دامت هذه اللغة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها المعتدي، فلا بد من استخدامها واحتمال أضرارها. ثم إذا هي نفذت لا نحتاج إلى زمن طويل، لقرب نتائجها، وسرعة الفائدة منها وإذا كانت الأمم الغربية ترسم الخطط المحكمة المشتركة للاستعمار، فأحرى أن ترسم الدول المظلومة الخطط المحكمة المشتركة للاستقلال، وعجيب أن يصر الظالم على ظلمه ولا يمعن المظلوم في الدفاع عن حقه.

* * *

أدب الحرب

-1-

عاش العرب طوال حياتهم عيشة حربية سواء في جاهليتهم أو إسلامهم، فحياتهم في الجاهلية كانت حياة حروب مستمرة بين القبائل المختلفة؛ إما للإغارة وأما لدفع الإغارة، بل كانت الحروب وسيلة من وسائل العيش. وفي الإسلام اضطر المسلمون للحرب من أجل وقوف أعدائهم في نشر الدعوة أولًا وللفتح ثانيًا. حتى إذا مدّ في سلطانهم ما شاء الله أن يمد، وقفوا أمام خصومهم الذين يريدون نزع ملكهم من روم وتتر وصليبيين. ولم يدعوا القتال إلا في فترات قليلة في العصور الأخيرة.

وللأمم الحربية أخلاق تخالف أخلاق الأمم المسالمة، ولكل أدب يخالف أدب الأخرى؛ لأن الأدب ظل الحياة وسجلها، وإذا كان العرب أمة حربية غنى أدبهم في هذا الباب غنى كبيرًا، وسلكوا في القول في الحرب كل مسلك ونحن نعرض صورًا من أدبهم في هذا الباب.

من ذلك أنهم صوروا لنا المثل الأعلى للفتى العربي المحارب، فوصفوه بأنه حديد الفؤاد، ضامر الجسم، أخمص البطن، لم ترهل جسمه الحياة الوادعة الهنية المطمئنة. كما وصفوه بأنه يقظ متوثب، لا ينام ثقيل الجسم الكسول، إنما هو نوم خفيف، يزول لأقل حركة، حتى لو رميت بجانبه حصاة لسمع لها وقعًا كوقوع الهدة العظيمة، فيثب وثوب الطير، ثم إذا هب من نومه هب مستويًا في غير كسل ولا التواء، وإذا رفعته إلى الحرب خاض غمارها، واندفع فيها اندفاع الصقر على فريسته، ثم هو لا يعبأ بمكاره الحرب، ولا بلائها وغمراتها، فهو في أحلك الأوقات، وأشد الأزمات، منبسط أسارير الوجه، يلمع جبينه كما يلمع البرق، ولا يستطيع أن ينال منه نائل، وهو ينال من كل من أراده، فإذا عزم لا يصده صاد عن عزمه، وكان كالسيف القاطع، وهو ردء في الحرب لصحبه ومن يقاتلون معه،

وموثل في السلم لذوي الفاقة والحاجة، فذلك قول أبي كبير الهزلي [من الكامل]:

وأتـــتْ بِـــهِ حـــوش الـــفـــؤادِ مـــبـــطَّـــنَـــا
سُـــهُـــدًا إذا مـــا نـــامَ لـــيـــلُ الـــهَـــوْجـــلِ

فـــإذا نَـــبَـــذْتَ لـــهُ الـــحـــصـــاةَ رأيـــتـــه
يَـــنْـــزو لـــوقـــعـــتـــهـــا طـــمـــور الأخـــيـــلِ

وإذا يَـــهُـــبّ مـــن الـــمَـــنـــامِ رأيـــتـــه
كـــوثـــوبِ كـــعـــبِ الـــســـاقِ لـــيـــس بِـــزُمَّـــلِ

مـــا إن يـــمـــسَّ الأرضَ إلا مَـــنْـــكـــبٌ
مـــنـــه وحـــرف الـــســـاقِ طـــيّ الـــمَـــحْـــمَـــلِ

وإذا رمـــيـــت بـــه الـــفـــجـــاجَ رأيـــتـــه
يـــهـــوى مـــخـــارمـــهـــا هـــويَّ الأجـــدلِ

وإذا نـــظـــرت إلـــى أســـرَّةِ وجـــهـــه
بـــرقـــت كـــبـــرقِ الـــعـــارضِ الـــمـــتـــهـــلِّـــلِ

صَـــعْـــب الـــكـــريـــهـــةِ لا يُـــرامُ جـــنـــابـــه
مـــاضـــي الـــعـــزيـــمـــة كـــالـــحـــســـامِ الـــمِـــقْـــصـــلِ

يَـــحْـــمـــي الـــصِّـــحـــابَ إذا تـــكـــون عـــظـــيـــمـــةٌ
وإذا هُـــمُ نـــزلـــوا فـــمـــأوَى الـــعُـــيَّـــلِ[1]

ووصفوه بأنه يضع حياته في كفه، يحرص على الشرف أكثر مما يحرص على الحياة، لا يمل الحرب وإن طالت، ولا يمل الأخطار وإن عظمت، ثم لا تنسيه شجاعته عدله ونبله، فهو لا يجزى حسنًا بسيئ، ولا يقابل غلظًا بلين، ولا يكفون عن بطولتهم لكثرة ما يتعرضون له من محن، ولا يملّون الحرب لتعاقبها حينًا بعد حين، فشجاعتهم خالدة، وبطولتهم لا تنفذ. لا يركنون إلى الدعة، ولا يتلمسون الراحة. فذلك قوله [من الوافر]:

فـــوارسُ لا يـــمـــلُّـــونَ الـــمـــنـــايـــا
إذا دارت رحـــى الـــحـــربِ الـــزبـــونِ

(1) شرح أشعار الهذليين ص 1073 ـ 1075.

ولا يجزونَ من حسنٍ بِسَيْءٍ
ولا يجزون من غلطٍ بلينِ

ولا تبلى بسالتهم وإن هُمْ
صلوا بالحربِ حيناً بعد حينِ

ولا يرعونَ أكنافَ الهوينى
إذا حلُّوا ولا أرض الهدونِ

ثم هم يهزأون بالموت كأنَّ المنية لم تخلق [من الكامل]:

قوم إذا لبسوا الحديدَ حسبتهم
لم يحسبوا أن المنيَّةَ تخلقُ

إذا دعوا للقتال لبوا الدعوة من غير ريث، وأسرعوا إلى النجدة من غير تلمس علة. وجوه مشرقة، ونفوس مستبشرة. فذلك قوله [من الكامل]:

وإذا دعوتهُمُ ليومِ كريهةٍ
سدُّوا شعاعَ الشَّمسِ بالفرسانِ

لا ينكتونَ الأرضَ عندَ سؤالها
لتطلّب العلاتِ بالعيدانِ

بل يسفرونَ وجوههم فترى لها
عند السؤالِ كأحسنِ الألوانِ

يفخرون بالدم يجري على أقدامهم؛ لأنه دلالة الطعن والإقدام، ويستنكرون الدّم يجري على أعقابهم؛ لأنه دلالة الفرار والإحجام [من الطويل].

ولسنا على الأعقابِ تدمى كلومنا
ولكن على أقدامنا تقطرُ الدِّما

وهم ذوو نسب في الحروب عريق، إذا أفنى القتال منهم جيلًا خلفه جيل، وإذا أفنى القتال شيوخهم أورثوه شبابهم، قد وهبوا نفوسًا عزيزة غالية، ولكنهم أرخصوها في الحروب، مرنوا نفوسهم على القتال ومواجهة الحرب، فلا يجزعون من موت ولا يبكون ميتًا، ثم هم يواجهون المكاره، فيكشفونها بالسيوف في أيديهم والحمية في نفوسهم. فذلك قوله [من البسيط]:

وليس يهلكُ منّا سيِّدٌ أبدًا
إلا افتلينا غلامًا سيِّدًا فينا

إنّا لنرخصُ يوم الرَّوعِ أنفسَنا
ولو نُسامُ بها في الأمنِ أغلينا

إنّي لمن معشرٍ أفنى أوائلهم
قيل الكماة: ألا أين المحامونا؟

ولا تراهُمْ وإن جلّت مصيبتهم
مع البكاةِ على من ماتَ يبكونا

ونركبُ الكرهَ أحيانًا فيفرجهُ
عنَّا الحفاظُ وأسيافٌ تواتينا

تلك صورة للمثل الأعلى الذي كانوا ينشدونه لفتى الحرب ورجال الحرب، عزة نفس واسترخاص للحياة وبذل للنفس في سبيل المجد، وحفظ الأعراض وطيب الأحدوثة، وهو ما توحيه دائمًا الحياة الحربية. وهناك صور أخرى في أشعارهم الكثيرة على هذا النحو، تجتزئ منها اليوم بهذا القدر، ثم نعرض لظواهر أخرى من أدب الحرب فيما بعد.

* * *

(2)

من أوضح خصال الأمم الحربية الاستهانة بالموت، وقلة الحرص على الحياة، لكثرة ما يرون من القتال، ووقوع أعينهم كل حين على صرعى الحرب؛ فلو فزعوا لرؤية القتيل، وبكوه البكاء الطويل، لفسدت حياتهم، وعظم خطبهم. وكان يدعوهم إلى الاستهانة بالموت في الجاهلية أنهم يخشون العار، أكثر مما يخشون الموت؛ فلو قعد العربي عن نجدة مستنجد، أو صراخ مستصرخ، أو لم يدفع الشَّرَّ عن عرضه، أو وقع أسيرًا لخصومه، لكانت الطامة الكبرى، ولعاش ذليلًا! مطأطئ الرأس، يعير هو وقبيلته بأسوأ أنواع العار، فالموت في عزة أحلى عنده من الحياة في ذلة وفي ذلك يقول المتلمس [من الطويل]:

ألــم تَــر أنَّ الــمــرء رهــنَ مــنــيَّــةٍ
صــريــعٍ لــعــافــى الــطّــيــر أو ســوف يــرمــسُ
فــلا تَــقْــبَــلَــنْ ضــيــمًــا مــخــافَــةَ مــيــتــةٍ
وَمُــوتَــنْ بــهــا حــرًّا وجــلــدك أمــلــسُ
ومــا الــنَّــاس إلَّا مــا رأوا وتــحــدَّثــوا
ومــا الــعــجــزُ إلا أن يُــضــامــوا فــيــجــلــســوا

وزاد الموت هوانًا عندهم أن الموت سبيل كل حي، فمن لم يمت في الحرب مات في السلم، وما الفرق بين ميت يموت كريمًا دفاعًا عن قبيلته، أو عن شرفه أو عن عرضه، وبين جبان يحمل العار ويحرص على الحياة، ويعيش ذليلًا، إلا أيام أو سنون؛ والنتيجة المحتومة واحدة، وهي الموت. يقول عنترة [من الكامل]:

بَــكَــرَتْ تــخــوِّفــنــي الــحــتــوفُ كــأنَّــنــي
أصــبــحْــتُ عــن غَــرَضِ الــحــتــوفِ بــمــعــزلِ
فَــأَجَــبْــتُــهــا: إنَّ الــمــنــيَّــة مــنــهــلٌ
لا بــدَّ أن أســقــي بــكــأس الــمــنــهــلِ
فاقني حياءك لا أبا لك! واعلمي   أنّي امرؤ سأموتُ إن لم أقتلِ[1]

وكثر شعرهم في هذه المعاني من استخفاف بالموت وكرة للحياة الذليلة، واستفظاع للذلة والهوان. بقول قائلهم [من الطويل]:

وإنّا لتَسْتَحلي المنايا نفوسَنا   وتَتْرك أخرى مرَّةً ما تذوقُها

بل رأوا بالتجربة أن الشجاع ليس أكثر تعرضًا للخطر من الجبان، فقالوا إن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة، وقالوا: إن من يقتل مدبرًا أكثر ممن يقتل مقبلًا.

وكان من أثر ذلك أن افتخروا بالموت في ميدان الحرب، وكرهوا أن يموتوا على الفراش حتف أنوفهم.

يقول شاعرهم [من الطويل]:

---

(1) ديوانه ص 251 ـ 252.

وما ماتَ منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ
ولا طُلَّ منّا حيث كان قتيلُ

تسيلُ على حدِّ الظُّباةِ نفوسنا
وليست على غيرِ الظُّباة تسيلُ[1]

فلما جاء الإسلام، بقيت النفوس الحربية على طبائعها الموروثة من حب للقتال وخوف من العار. وزادهم استهانة بالموت عقيدتهم في الحياة الأخرى، وأن قتيل الحرب شهيد؛ كما طمأن نفوسهم الاعتقاد في القدر؛ فمن مات مات بالقدر، ومن عاش عاش بالقدر. وفلسفوا هذا المعنى، فقالوا: إذا قدر عليهم الموت فلا مفر، وإذا قدر لهم الحياة فلا موت، وقال قائلهم في ذلك [من الرمل]:

أيّ يوميّ من الموتِ أفرّ
يومَ لا يقدرُ أم يوم قَدَرْ

يوم لا يقدر لا أرهبه
ومن المقدور لا ينجي الحذرْ

وأكثروا من القول في هذا المعنى وأشباهه، ففخروا بالموت كما يفخر غيرهم بالحياة. قال قائلهم [من الرجز]:

نحنُ بني ضبَّة أصحابَ الجَمَلْ
الموت أحلى عندنا مِنَ العَسَلْ

نحنُ بنو الموتِ إذا الموت نَزَلْ
لا جزع اليوم على قربِ الأجَلْ

وقال آخر [من الكامل]:

يغشون حوماتِ المنونِ وإنَّها في اللهِ عند نفوسهم لصغارُ

* * *

وكان من أبواب أدب الحرب عندهم التوسع في وصف آلات القتال المستعملة، فأغنوا

(1) البيتان للسموأل في ديوانه ص 72 ـ 73.

لغتهم بأسماء السيف وأوصافه وأجزائه وقرابه، والرمح ونعوته، والقوس ووترها وأصواتها وتركيبها، والسهم، والنصل، والترس والبيضة، والدرع. فكان لكل أداة من هذه الأدوات أسماء مفرطة في الكثرة.

ثم بجانب هذا الغنى اللغوي، الغنى الأدبي، فوصفوا كل آلة من هذه الآلات أدق وصف وأحكمه، حتى لو جمع ما قيل في ذلك لبلغ مجلدات ضخمة. ولو عاشوا إلى زمامنا هذا ببلاغتهم وأدبهم، لقالوا في المدرعات والغواصات والطائرات والقنابل الذرية ما لم يقله أحد اليوم.

يقول قائلهم في السيف [من الكامل]:

ماضٍ، وإن لم تمضِهِ يدُ فارسٍ
بطلٌ، ومصقولٌ، وإن لم يُصقَلِ

يغشى الوغى، فالترسُ ليس بجنَّةٍ
من حدِّه، والدّرعُ ليس بمَعْقِلِ

مصغٍ إلى حكمِ الردى، فإذا مضى
لم يلتفت، وإذا قضى لم يَعْدِلِ

مُتَألِّق، يفري بأوّل ضربةٍ
ما أدركت، ولو انها في يَذْبلِ

وإذا أصاب فكل شيء مقتلٌ
وإذا أُصيب فما له من مقتلِ

ويقول آخر [من الخفيف]:

جرِّدوها فألبسوها المنايا
عوضًا عوّضت عن الأغمادِ

وكأنَّ الآجالَ ممَّن أرادوا
وظباها كانت على ميعادِ

ويقول آخر [من الخفيف]:

وصقيل مدارج النّمل فيه
وَهْوَ مذ كان ما درجن عَلَيْهِ

أخـلـص الـقـيـن صـقـلـه، فـهـو مـاءٌ
يـتـلـظّـى الـسـعـيـر فـي صـفـحـتـيـه

إلى كثير من مثل ذلك.

بل اعتزوا بآلات القتال كاعتزامهم بأبنائهم، وسمى فرسانهم وشجعانهم آلات القتال بأسماء، كما يسمى الناس، واحتفظوا بها احتفاظهم بأرواحهم، وتوارثوها كما يتوارث المال العزيز، كسيف عمرو بن معد يكرب، فقد سماه الصمصامة، وشاع ذكره وعظم أمره، وظل محتفظًا به منوها بذكره إلى أن تقدمت به السن وضعفت يده عن حمله، وكان وزنه فيما يقال ستة أرطال، فقال له سعيد بن العاص: «هب لي الصمصامة، فإنك قد ضعفت عن حمله؟»، فقال عمرو: «ما ضعفت قناتي ولا جناني ولا لساني، وأن اختل جثماني، وهو لك؟». ثم قال [من الوافر]:

خـلـيـلٌ لـم أَهَـبْـهُ مـن قـلاهُ
ولـكـنَّ الـمـواهـبَ فـي الـكـرامِ
خـلـيـلٌ لـم أَخُـنْـهُ وَلَـمْ يُـخُـنِّـي
عـلـى الـصَّـمـصـامِ أَضْـعـاف الـسّـلامِ

وظلّ الصمصامة في يد سعيد بن العاص، ثم توارثه ولده طوال العهد الأموي وصدر من الدولة العباسية، إلى أن اشتراه الخليفة الهادي بمال كثير.

وهكذا اشتهر كثير من آلات القتال؛ من خيل وسلاح بأسماء خاصة، حفظت على مر الأزمان، وذكرت على ألسنة الشعراء، وطال ذكرها في الأدب العربي.

وكما أكثروا من وصف السلاح وأدواته، أكثروا من وصف المعارك، من كثرة الجيوش وما تثير من غبار، وما تسد من أفق، وما يلمع فيها من سيوف، وما تبذل فيها من أرواح؛ وإذ كانت حروبهم في الجاهلية وفي صدر الإسلام حروبًا برية كانت أوصافهم في هذا العصر لهذه الجيوش البرية، فلما عظمت جيوشهم البحرية، كما عظمت جيوشهم البرية أخذ الشعراء يصفون الأسطول والمعارك البحرية، كما فعل البحتري في قصيدته المشهورة التي يقول فيها [من الطويل]:

إذا زَمْـجَـرَ الـنُّـوتـيُّ فـوق عـلاتِـه
رأيـت خـطـيـبًـا فـي ذؤابـة مِـنْـبـرِ

إذا عَصَفَتْ فيهِ الجنوبُ اعتلى لها
جناحا عقابٍ في السَّماءِ مُهَجِّرِ
وحولك ركّابونَ للهولِ عاقروا
كؤوس الردى من دارعين وحُسَّرِ
تميل المنايا حين مالت أكفُّهم
إذا أصلتوا حدَّ الحديد المُذَكَّرِ
إذا رَشقوا بالنَّار لم يكُ رشقُهم
لِيُقْلِعَ إلا عن شِواءٍ مُقَتَّرِ
يسوقون أسطولًا كأنَّ سفينه
سحائبُ صيفٍ من جهامٍ ومُمْطِرِ
كأنَّ ضجيجَ البحرِ بين رماحهم
إذا اختلفت ترجيع عود مُجَرْجِرِ
فما رمت حتّى أجلتِ الحَرْبَ عن طلى
مُقَطَّعةٍ فيهم وهامٍ مُطَيَّرِ
على حين لا نقعٌ يُطَوِّحُه الصَّبا
ولا أرض تلفي للصريعِ المُقَطَّرِ[1]

(3)

ومع أن العرب أشادوا بذكر الحرب، وتغنوا بوقائعها، وفخروا بالبطولة فيها، لم ينسهم ذلك أن يلتفتوا إلى الجانب السيئ منها، وهو ما ينال الناس من ويلات وما يصيبهم من كوارث؛ فأبان شعراؤهم شدتها، والأضرار التي تحيق بالناس منها، وتمنوا أن لم تكن، ولكنها سنة الدنيا. ولا بد من أن تربّى الأمة تربية حربية ما دام في الدنيا ظلم واعتداء. ورأوا أن الظلم لا يدفع إلا بالظلم، والحرب لا تدفع إلاَّ بالحرب، ولو عقل الناس لما ظلم الظالم ولدفع بالتفاهم؛ ومن خير ما ورد في ذلك المعنى أنهم شبهوا الحرب في أول أمرها قبل

(1) ديوانه ص 982 ـ 985.

اندلاع نارها بغادة حسناء تتزين للناس، ويودها كل من رآها؛ لأن كل حزب يتصور الحرب قد وقعت، وقد انتصر فيها، ونال الغنائم من أسلابها، حتى إذا دخلوا في معمعتها ورأوا ضحاياها، وشعروا بأخطارها، انقلبت هذه الغادة الحسناء عجوزًا شمطاء يفزع منها كل من رآها، ويعزب عن رؤيتها كل من شاهدها، سواء في ذلك المنتصر والمنهزم، فالضحايا من كل جانب، والغنائم مهما بلغت لا تساوي خسائر الأرواح مهما قلت، وفي ذلك يقول شاعرهم [من الكامل]:

الحربُ أوَّلُ ما تكونُ فتيَّةً
تسعى بزينتها لكل جهولِ

حتَّى إذا حَمِيَتْ وشبَّ ضرامُها
عادت عجوزًا غير ذات خليلِ

شمطاء جزَّت رأسَها وتنكَّرت
مكروهة للشَّمِّ والتَّقبيلِ

ودعاهم إلى طول التفكير في هذا أن النصر لا يعرف لمن يكون، مهما درست الظروف وامتحنت القوى. فنتيجة الحرب تخفى حتى على الطب العليم، ولا يدرك نتائجها إلا الخبير المجرب، الواسع النظر، العميق الفكر، وهو مع ذلك شاك في النتيجة، حتى إذا انتهت الحرب، رأى عواقبها الجهول والعليم، والغر والعاقل. يقول الكميت [من البسيط]:

والنَّاس في الحرب شتَّى وهي مقبلةٌ
ويستوون إذا ما أدبرَ القبلُ

كلٌّ بأمسيِّها طبّ مولِيّةً
والعالمون بذي غدويّها قللُ

وأدرك العرب من مساوئ الحرب أن أضرارها لا تقتصر على المحارب، ولا تقف مهما كانت الحيطة على المقاتل، فأقل ما في الأمر أن قتيل الحرب له أسرة تكتوي بفقد راعيها، وتبتئس من فقدان عائلها؛ ولذلك كان من أقوالهم المشهورة: «الحرب غشوم»، وفسروا غشمها بأنها تنال غير الجاني.

وربما كان من أقدم الشعراء، وأبرعهم في وصف ويلات الحرب زهير بن أبي سلمى حيث يقول في معلقته [من الطويل]:

وما الحربُ إلّا ما علمتُمْ وذقْتُمُ
وما هُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ

يقول إن الحرب قد ذقتم مرارتها، وعلمتم أضرارها، والحديث عن ذلك حديث صدق ويقين، لا حديث ريب وظنون [من الطويل]:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً
وَتَضْرَ إذا ضرَّيتموها فتضرمِ

أي متى تثيروها لا تحمدوا مغبتها، وإذا شببتموها ضريت كما تضرى النار، أو كما يضري الكلب العقور، فتحرق من فيها [من الطويل]:

فتعرككُمْ عَرْكَ الرَّحى بثفالها
وَتَلْقَحْ كشافًا ثُمَّ تُنْتَجْ فتتئمِ

يقول إن الحرب متى ضربت تطحن الناس كما تطحن الرحى ما يلقى فيها، وتحمل في أشد أوقاتها استعدادًا للحمل، فتلد توأمين، فهي تحمل في قوة، وتلد في قوة، تحمل وتلد الشر مضاعفًا [من الطويل]:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلّهم
كأحمر عاد ثمّ ترضعْ فتفطمِ[1]

أي: أنها تلد أولاد شؤم، كلهم في الشؤم، كأحمر عاد، ثم هي ترضع أولادها وتتعهدهم حتى ينموا فيفطموا [من الطويل]:

فتغلّ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها
قرى بالعراقِ من قفيزٍ ودرهمِ[2]

يريد أن هذه الحروب تغل من الشرور ما لا تغله أرض العراق الخصبة المنتجة للخيرات الكثيرة:

وهو تصوير بدوي طريف للحرب وويلاتها، وكثرة ما تنتجع من شرورها، وتسلسل ما

---

(1) غلطوا الشاعر في قوله: أحمر عاد؛ لأن المعروف أنه أحمر ثمود وهو عاقر الناقة.
(2) ديوان زهير بن أبي سلمى ص 18 ـ 21.

يولد من أضرارها. وهو قول ينطبق على الحرب في هذه الأيام كما كانت في أيام زهير؛ فالطبيعة هي الطبيعة، والشرور هي الشرور، وكلما تقدم الناس في أفانين الحرب كثرت شرورها، وازدادت كوارثها، وتوالدت مفاسدها، واتسعت الأضرار بغير جناتها.

وأدرك العرب معنى لطيفًا، وهو أن ضحايا الحرب أرواح، وضحايا غيرها أموال، وأين الأموال من الأرواح؟ فقال قائلهم: «دافع الحرب ما استطعت، فإن النفقة في كل شيء من الأموال، إلا الحرب، فإن نفقتها من الأرواح».

وفي بعض القطع الأدبية معان لطيفة من الدعوة إلى السلم، فإن لم يجنح الخصم لها فالحرب، ومن خير ما قالوا في ذلك قول الشاعر [من الطويل]:

دعاني أشبّ الحربِ بيني وبينه
فقلتُ له لا بل هلمَّ إلى السِّلمِ

فإنْ يظفرِ الحزبُ الذي أنتَ مِنْهُمُ
وينقلبوا ملءَ الأكفِّ من الغنمِ

فلا بدَّ من قتلي لعلَّك فيهمُ
وإلا فجرحٌ لا يكونُ على العَظْمِ

فلمّا أبى خلَّيت فضلَ ردائهِ
عليه فَلَمْ يرجع بحزمٍ ولا عزمِ

وكان صريعَ الخيل أوّل وهلةٍ
فبعدًا له مختار جهلٍ على علمِ

فقد أدرك الشاعر في هذه الأبيات أن كل حزب مقضي عليه بالخسارة حتمًا، وأن النصر محتمل، ولكن الخسارة محققة، وغنم المال لا يساوي في شيء خسارة الأرواح، وقال: إنه لم ينصحه هربًا من الحرب، ولكن أدراكه لعواقبها المحتومة، فلما بيّن له الرشد من الغي وأبى صاحبه إلا الغي، نازله عن بينة، وكانت الدائرة على خصمه.

وهذا يرينا أن الناس من قديم حتى العرب في جاهليتهم أيام كانت الغارات وسيلة من وسائل العيش كانوا يرون أضرار الحروب ومفاسدها؛ وكان عقلاؤهم يتمنون أن لو زالت

الحروب؛ ولكن ظلت هذه النزعة الصادقة خافتة لا تلقى سميعًا إلى يومنا هذا. والفرق الكبير بين الأمة الحربية وغير الحربية، أن الأمة الحربية الراقية تفضل السلم وتدعو إليه، ولكنها مع هذا تعد للحرب ما استطاعت من قوة، فإذا لم يسمع صوت الحق فليسمع صوت السيف، إما إن هي استسلمت، ولم تأخذ عدتها، واعتمدت على العقل وحده، والحكمة وحدها، افترسها عدوها المسلح، كما يفترس الأسد الضاري الحمل الوديع.

* * *

الفهرس



